دارفور خلقٌ جديد

تجربة حية في بناء السلام

الكتاب: **دارفور خلقٌ جديد**، تجربة حية في بناء السلام
تأليف: **ياسر الغرباوي**
عدد الصفحات: 184 صفحة

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: 2018/656

الرقم الدولي (ردمك): 978 - 9927 - 132 - 17 - 9

الطبعة الأولى: 2018

التنفيذ الطباعي: **ديمو برس/ بيروت، لبنان**

مصمم الغلاف: **ريان التيجاني زايد**.

جميع الحقوق محفوظة © دار لوسيل 2018

الناشر

دار لوسيل للنشر والتوزيع
الدوحة – قطر – شارع الغرافة – مبنى نابكو – بوابة B – الدور الأول مكتب رقم 8
ص. ب: 64040
هاتف: 0097444177311
فاكس: 0097444177322
بريد إلكتروني: darlusail@darlusail.com
: Darlusail : Dar lusail : Darlusail

ياسر الغرباوي

دارفور خلقٌ جديد

تجربة حية في بناء السلام

الفهرس

شكر وتقدير 9

تقديم 11

مقدمة الكاتب 13

الفصل الأول 15

اتخاذ القرار 19

مفاجأة صحية 20

طاحنة العظام 21

المغامرة وتحمل القرار 24

الإعداد للرحلة 25

جذور النيران 28

المحطة التاريخية 30

جوهر النزاع 32

* اتفاقية الدوحة 2011 33

مشروع الوئام المجتمعي في دارفور 34
ملخص المشروع 63
ملخص الفصل الأول 38
الفصل الثاني 39
على الطائـرة 41
محاسن الصُدف..... 43
مع آدم صابون..... 46
سوق قندهار..... 47
في انتظار التحرك..... 52
إلى مقر بعثة الهلال الأحمر..... 54
الوصول إلى مقر بعثة الهلال الأحمر..... 56
حل مشكلة اختيار القرى 59
معايير اختيار القرى..... 62
دور القادة المحليين 62
المعايير الثمانية..... 64
العودة إلى فندق 65
اليوم الرابع في «الخرطوم» 66
الخبير الياباني وسلطان الكراهية 68
أي فارق بين التجربة الآسيوية والتجربة العربية–الإفريقية؟ 74
اليوم الخامس في الخرطوم..... 80

اليوم السادس في الخرطوم، وأخيرا. 58
تماثل تجربتي قطر والنرويج 90
مملكة الكراهية..... 91
الزرافات الهاربة والنمور المُهاجرة 95
الخلاوي المُسبحة 105
ملخص الفصل الثاني..... 110
الفصل الثالث **111**
بيت الأرواح – إيزابيل الليندي 113
عدم الانحياز 114
أكشاك الفقر 115
بئر مُعطل وطريق وَعر 117
دُمرة أم إدريس 122
وادي الموت 126
اليوم الأول في «أرارا» 131
بائعة الدواء 135
الآبار الذكية 136
تلاميذ السلام بذور الأمل 139
اليوم الثاني في أرارا (لقاء مع الفُرْشة)..... 141
الأسمدة مقابل السلام 144
يَا يحيى خُذِ الْسلام بِقُوَّةٍ 147

أبو السبعين صانع السلم 148
اليوم الثالث في «أرارا» 150
اليوم الرابع في أرارا 156
من الرصاص إلى الغراس..... 157
مزارع المحبة..... 160
المسجد المحروق 163
محاسن الأقدار 165
نهاية الرحلـــــــة 170
كلكم لآدم..... 171
ملخص الفصل الثالث..... 174
مرفقات الكتاب 175
1 – تقرير ميداني عن مشروع بناء الوئام الاجتماعي بغرب دارفور 175
خاتمة الكتاب 179
المراجع 181

شكر وتقدير

أتوجّه بخالص الشكر لكل الذين ساعدوني في خروج هذا الكتاب للنور. لا يفوتني هنا أن أشكر الدكتور نِزَار شَقْرُون على الملاحظات القيّمة التي مدّني بها حول مادة الكتاب ومحاوره، في الحقيقة استفدت منها للغاية، الشكر الوافر لـ«أحمد الصبّاغ» الذي بذل مجهودا كبيرا في تحرير الكتاب . أود أيضا أن أشكر كلاً من المحررة «نهى سعداوي» التي قامت بالتدقيق والتصحيح اللغويّ، والمصممه ريان زايد التي أخرجت غلاف الكتاب. وكذا لا يسعني سوى الشكر والامتنان للفريق الذي قام بمساعدتي في تفريغ المادة الصوتية. أيضا لن أستطيع أن أنسى هؤلاء الذين منحوني من وقتهم وجهدهم؛ لأتمكّن من إنجاز هذا السِفْر؛ زوجتي العزيزة، و فريق «مركز التنوع لفض النزاعات». وأخيرا أتوجه بخالص التقدير لكل الأشخاص الذين زيّنت اسماءهم فصول الكتاب؛ لأنهم هم الأعمدة الراسخة التى قام عليها مشروع بناء السلام في غرب دارفور، وهم الذين ألهموني الأمل والفكرة.

ياسر الغرباوي

تقديم

بعد انتهائي من قراءة الفصول الثلاثة لهذا الكتاب الرائع، والشيق أيضا، شعُرت بثقل المسؤولية الأخلاقية والإنسانية المُلقاة على عاتقنا في مؤسسات العمل الإنساني، إذ اشتمل الكتاب على العديد من القصص الميدانية المؤثِّرة التي تكشف أن المشاريع الإغاثية إذا نُفِّذت بشكل جيد في المجتمعات التي خرجت توا من نزاع أو حرب يمكنها أن تحول حياة المتضررين من الشقاء والألم إلى السعادة والاستقرار، ومن التوتر والخوف إلى الطمأنينة والأمن.

فبعد أن يخمد صراع أو حرب ما، نحتاج بعدها لجهد كبير لتأهيل البشر المتنازعين لأن يعودوا إلى حياتهم الطبيعية، وأن نوفر لهم حياة أفضل تجتز أسباب الصراع من جذورها حتى لا تعود الأخيرة لتنفجر مرة أخرى.

والحق إن ريادة هذه التجربة للباحث ياسر الغرباوي تنبع من أسباب عديدة، تجعلها تستحق أن توثق ليستفاد منها، إنها نموذج لتكامل مؤسسات المجتمع المدني المتمثلة في مركز التنوع لفض النزاعات والهلال الأحمر القطري، ثم هي تجربة حية واقعية عاشها الكاتب من بدايتها إلى أن اكتمل نضجها، واستطاع أن يسطر تفاصيلها وأحداثها، من خلال حكاياته الواقعية التي خطها تحت عناوينه الجذابة.، لم يكتف

الكاتب بهذا بل قام بتقييم التجربة تقييما شاملا أوضح فيها نقاط القوة ونقاط الضعف، والمقترحات التي قدمها للقائمين على التجربة وغيرها من التجارب المماثلة. ولقد وجدت في الكتاب من الشواهد والوقائع ما يُثبت إمكانية انتصار الإنسان على الكراهية والتعصب والشقاق حينما نتعاون جميعًا من أجل خدمة الإنسانية وسيادة السلام بين البشر.

نجح الكاتب من خلال تجربته الميدانية في قرية أرارا، وما أورده في كتابه «دارفور خلقٌ جديد.. تجربة حية في بناء السلام» من زيادة قناعتنا بحتمية تعميق وتسريع التعاون بين كل المهتمين بنشر الرحمة والمودة بين بني البشر. ولقد كانت لملاحظات الكاتب وتقريره الميداني عن مهته أثر محمود في تحفيز فريق عمل الهلال الأحمر على الاستزادة من النقاط الإيجابية التى ثبتت فاعليتها على الأرض، ومن سرعة العمل على تدارك نقاط الخلل والقصور؛ حتى نتمكن من المساهمة في أداء رسالتنا الإنسانية على نحو يُخفِّف من معاناة الإنسان المهمش، والفئات الأكثر تضررًا في العالم.

د/ محمد غانم المعاضيد

رئيس مجلس إدارة جمعية الهلال الأحمر القطري

مقدمة الكاتب

يرصد هذا الكتاب تجربة ليست بالطويلة في مدتها، ولكنها عميقة الأثر بشكل كبير بالنسبة لي، رحلتي إلى قرية «أرارا» بغرب دارفور السلام لمطالعة أحد أهم التجارب الإنسانية لتطوير مجموعة من قرى غرب دارفور التي عاشت فترة طويلة من المعاناة بسبب الحرب الأهلية التي دارت بين الحكومة السودانية من جهة، ومجموعة من قبائل دارفور التي تمردت على الأوضاع السياسية والمجتمعية التي عاشها الإقليم لفترة طويلة، قبل أن يحل السلام أخيرا في العديد من مناطق الإقليم بفضل وساطات دولية وإقليمية، كان لدولة قطر الجهد الأبرز فيها، إذ دعمت الأخيرة وجود هذا السلام بمجموعة مشاريع اقتصادية وتنموية لتطوير الإقليم في محاولة لنزع أسباب الشقاق المجتمعي والسياسي التي تكرست عبر فترة طويلة من الزمن.

في التجربة التي عايشت جزءا منها، مبتعثا من جمعية الهلال الأحمر القطري، اقتربت من مجتمع يحاول تجاوز عقود من آثار الحرب والكراهية، والاحتقان والتوتر الطائفي والعرقي لبناء مجتمع أكثر تجانسا ووعيا، بفضل مبادرة «السلام» التي قادتها قطر لنزع فتيل العنف بين المجموعات المتحاربة، والحكومة السودانية.

في البيوت البسيطة التي يتكوّن أغلبها من الطين والقش، والحواري التي تنبعث منها روائح المعاناة، ومساجد أرارا البسيطة، استمعت لعشرات القصص على ألسنة رجال

ونساء قرّروا الاستجابة لفكرة السلام المجتمعي، بعد فترة طويلة للغاية من صعوبات قابلوها بسبب الحرب والجوع والقتل، والتناحر على موارد الزرع والمياه. تحدّث هؤلاء عن أبناء قُتِلوا، وأولاد عمومة صاروا في عداد النسيان، وأرض تم نهبها، وآبار تم ردمها، بسبب عداءات تولّد بفعل الجهل والتهميش وغياب العدالة الاجتماعية. رجال ونساء وشباب أدركوا أخيرا أن العيش بسلام مع جيرانهم، وتنمية مجتمعهم لن يتحقق سوى بالعيش المشترك، وممارسة الزراعة والرعي بديلا عن استخدام الرصاص، وامتهان الصناعة والتجارة بديلا عن احتراف التدمير والقتل، من السعي بالقطيعة إلى بذل الجهد في الإصلاح، متجاوزين الجروح الدامية، والذكريات المؤلمة التي أصبحت عندهم تنتمي للماضي الذي يجب أن يتم تناسيه؛ على الأقلّ رغبة في ألا تعيش الأجيال الجديدة نفس المأساة التي عايشها الآباء والأجداد من قبل.

في قرية «أرارا» بغرب دارفور، عايشت عن قرب نموذجا من نماذج مشاريع التنمية، وبناء السلام المجتمعي التي بنيت بفضل مجموعة من رجال «الهلال الأحمر القطري». مشاريع تحاول انتشال قبائل دارفور من براثن الإهمال والتهميش، والاحتراب القبائلي والطائفي، نحو مرحلة وسياق مختلف من العيش المشترك في مجتمع سلمي أكثر أمنا بالسلم والتنمية، وأكثر قدرة على دفع أفكار التحريض والكراهية.

وقد دفعتني هذه المشاهدات، والمعارف، والخبرات، والقصص، والحكايات التي أمسكت بها في رحلتي إلى تلك القرية المُلهمة إلى جمعها وكتابتها في هذا الإصدار، ليكون سندا وعونا للراغبين في توسيع معارفهم حول قضايا بناء السلام في المجتمعات بعد النزاع والحرب الأهلية. الكتاب يحاول نقل خبرة وتجربة تُثبت إمكانية تعافي الإنسانية من أدواء الحروب، وآثار الصراع الناتجة عن القتل والعنف، فقط إذا توفرت الإرادة والعزيمة وحسن النوايا.

ياسر الغرباوي

الدوحة– قطر 2018

الفصل الأول

«إنّ في المخاطرة جزءًا من النجاة».

محمد بن عبد الجبار بن النفري

اليوم 15 نوفمبر 2015، تلقينا اتصالا من مكتب الدكتور خالد دياب مدير الإغاثة والتنمية الدولية بالهلال الأحمر القطري، يطلبون فيه لقاءا مع مدير مركز التنوع لفض النزاعات[1] في مقر الهلال الأحمر على كورنيش الدوحة من أجل التشاور حول ملف مهم. فرحّب فريق التنوع بطلب اللقاء والتشاور، خاصّة مع إدراكي لأهمية الاتحاد الدولي للصليب الأحمر والهلال الأحمر، كونه المؤسسة الإنسانية الأهم عالميا، والتي لها باع كبير في العمل الإغاثي والإنساني، وخبرة كبيرة في الوصول إلى مناطق النزاعات والحروب. والتقارب مع مؤسسة لها هذا الثقل معناه بالضرورة، اكتساب خبرة جديدة للمركز. تحركت في الموعد المتفق عليه بين الهلال الأحمر وفريق التنوع لحضور الاجتماع في مقر الهلال الأحمر القطري بالدوحة، وقد رحب بنا الدكتور خالد. بعد ذلك، انتقلت دفة الحديث للدكتور دياب، فتحدث بإسهاب عن أزمة دارفور، وتدخّل الهلال الأحمر بعمله الإغاثي هناك. وأكمل حديثه عن مبادرة دولة قطر من أجل تنمية غرب دافور، ثمّ تطرّق للنقطة الأهم، وهي طلبه التعاون مع «**مركز التنوع**»[*] من أجل تقييم مشروع بناء الوئام بإقليم غرب دارفور بالسودان. فقد مرّت دارفور بحرب أهلية واحتقان اجتماعي كبير، منذ عام 2003. وسَعت العديد من الدول والمنظمات

(1) رابط مركز التنوع لفض النزاعات http://www.tanaowa.org/site/

الدولية إلى حل النزاع وبسط السلام من خلال دعوة طرفي الصراع –حركات المعارضة والحكومة السودانية–للحوار، والدخول في اتفاقيات سلام تُلزم جميع الأطراف بالكف عن ممارسة العنف، ولكن للأسف فشلت كل الاتفاقيات السابقة في الصمود، حتى جاءت اتفاقية الدوحة للسلام الموقعة في العام 2011 وحققت اختراقًا معقولا في سبيل تحقيق السلام في مجمل أقاليم دارفور.

وقد نتج عن هذه الاتفاقية إتاحة العمل الميداني المتواصل مع سكان الإقليم، للهلال الأحمر القطري، عبر تنفيذ مشاريع إغاثية تستهدف إعادة توطين النازحين واللاجئين في قراهم التي تركوها جراء الحرب والصراع. وكما فهمنا من حديث دكتور خالد دياب وفريقه العامل معه، فإنّ فلسفة عمل مشاريع الهلال الأحمر في دارفور قائمة على نشر السلام، ومحاولة رتق النسيج الاجتماعي الدارفوري الذي مزقته ويلات الحروب وآلام المعارك بين القبائل ذات الأصول الإفريقية والقبائل ذات الأصول العربية. بعدها، عرض علينا دياب أن يشارك مركز التنوع في زيارة ميدانية لتقييم المشروع في غرب دارفور، باعتبارنا جهة استشارية عاملة في مجال فض النزاعات وبناء السلام، للوقوف على نقاط القوة ونقاط الضعف في هذا المشروع الإنساني.

انتهى اجتماعنا مع «الهلال الأحمر» القطري، وعدنا إلى مقرّ المركز للتشاور حول العرض المُقدّم لنا. كنّا نحاول تقييم أهمية الدخول في شراكة من هذا النوع، والوقوف على مدى قدراتنا على إنجاز العمل المطلوب منا على الأرض، خاصّة وأنّ القيام بهذه المهمة بطبيعة الحال، يستدعي أن يسافر أحد أعضاء فريق التنوع لفض النزاعات إلى الخرطوم، ومنها إلى إقليم دارفور، ومن إقليم دارفور تحديدا إلى غرب دارفور، ومنها إلى مدينة الجنينة، ثم التحرك لزيارة هذا المشروع في قرية تسمّى «أرارا»، تبُعد قرابة مائة كيلومتر من مدينة الجنينة، وتتاخم الحدود التشادية السودانية.

اتخاذ القرار

تم تحديد اجتماع عاجل لفريق «التنوع» في الدوحة، من أجل البت في العرض المقدم مع الهلال في أسرع وقت ممكن. وبدأنا النقاش بسؤال: هل نقبل بإرسال أحد أفراد المركز لخوض التجربة، أم نرفض بسبب خطورة الأوضاع الموجودة في دارفور؟ دارت نقاشات محتدمة حول مسألتي الرفض والقبول. وفي النهاية، خلصنا إلى عدم الاستعجال وقررنا دراسة المهمة والغرض من السفر بشكل دقيق. إذ قرّر الفريق القيام بعمل دراسة قصيرة، ووقعت هذه المهمة على عاتقي. بدأت بمراجعة ما لدينا من وثائق ومعلومات عن الصراع، وقمت بالتواصل مع بعض الباحثين في السودان، والذين نثق في تقديرهم للأمور. كما تواصلنا مره أخرى مع الهلال الأحمر لمعرفة تفاصيل المشروع، حتى تتّضح لدينا الصورة الكلية للمشروع والمهمة. فإقليم دارفور ، تبلغ مساحته قرابة مساحة دولة فرنسا، وبه عدة أقاليم إدارية وفق التقسيم الإداري الحكومي.

أعطانا الهلال الأحمر القطري كافة تفاصيل المشروع. وبقي أمامنا فقط معرفة الظروف الأمنية في المكان عن كثب، حتى تتضح لنا حقيقة الوضع الأمني هناك، وهل يسمح بزيارة فريق من المركز للمنطقة أم أن هناك صعوبات. وبعد دراسة الأوضاع، وجدنا أنّ الوضع الأمني جيد، خاصةً بعد توقيع اتفاقية السلام، لكنه قابل للتفجر في أي وقت، فما زالت هناك مجموعات مسلّحة لم توقّع اتّفاقية سلام الدوحة. وقد زال هذا التخوف بعدما تناقشنا مع الأستاذ عز الدين جلال (مسئول قسم إفريقيا في إدارة الإغاثة والتنمية الدولية بالهلال الأحمر)، والذي أكد لنا أن الوضع الأمني آمن بدرجة كبيرة في غرب دارفور.

مفاجأة صحية

وفق المعطيات السابقة، وافق التنوع على الدخول في الشراكة مع الهلال الأحمر، وتم الاتفاق على أن أكون أنا ممثل المركز في هذه المهمة، وبدأت الاستعداد للسفر. وفي أثناء مرحلة استعدادي للمهمة، اتصل بي الأستاذ عز الدين جلال، وأوصاني بالذهاب للمركز الصحي بالدوحة لأخذ التطعيمات الوقائية اللازمة قبل السفر إلى منطقة غرب دارفور. فالمعروف عن هذه المناطق أنها مليئة بأوبئة مثل الملاريا، والحمى الصفراء، والكوليرا تستوجب أخذ تطعيمات صحية قبل السفر إليها.

عزمت أمري سريعا، وتوجهت للمركز الصحي بالدوحة. وأخذت فعلًا التطعيمات المُوصى بها، كما قمت بشراء بعض الأدوية التي أوصاني بها الزملاء السودانيون تحسبا لظهور أية أمراض مفاجئة–لا قدر الله– أثناء فترة إقامتي هناك، كما أوصاني فريق الهلال الأحمر بأخذ ملابس مناسبة للجو في دارفور، ونصحوني بعدم ارتداء أية ملابس قصيرة؛ حتى لا أُصاب بلدغات البعوض. وهذا الغرض، قمت بشراء قفازات لليد وجوارب قوية للأقدام تمنع اختراق البعوض لها. إلى هنا، كانت

الأمور تسير سيرا حسنا؛ فقد تأكدنا من استقرار الحالة الأمنية، وتأكدنا من الوضع الصحي، وقمت بأخذ التطعيمات.

ولن أبالغ إذا قلت لكم أن سعادتي بالسفر في هذه المهمة لا تقارن بأي رحلة أخرى قمت بها؛ لأنني سأرى نموذجا في بناء السلام لا يقل أهمية عن تجربة رواندا، تجربة جنوب إفريقيا، وأيرلندا الشمالية وغيرها، فالفكرة هنا ليست فقط رصد وتحليل، بل نتحدث عن مشاركة ميدانية قد تساهم في نزع العنف، وإرساء السلم المجتمعي في غرب دارفور .

طاحنة العظام

لكن، قد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. فجأة، حدث تطور خطير! فبعدما انتهينا من التطعيمات، وتجهيز تذاكر الطيران وترتيب الجدول الميداني للرحلة، جاءني اتصال من الأستاذ عز الدين جلال، لمست فيه توترا عرفته من نبرة صوته، قال لي: «حتى تكون على اطلاع واضح بالمستجدّات الميدانية يا أستاذ ياسر، وأكون معك شفافا وصريحا، الآن في أخبار وصلتنا بأن حمى الضنك موجودة في المنطقة.» فرددت عليه بعفوية واضحة: «إذا كانت الحمى موجودة في المنطقة، فالحل بسيط يا عز الدين: أعود للمركز الصحي، وآخذ التطعيم الخاص بها، مثلما أخذت تطعيم للملاريا.» وبالفعل، عدت للمركز الطبي، لأقوم بزيادة تطعيم آخر خاص بحمى الضنك.

طرقت باب نفس القسم الطبي المخصص للتحصينات، كما حدث في المرة الأولى، وشرحت للممرض المسؤول أنني بالأمس أخذت تطعيمات السفر، واليوم أنا في حاجة إلى تطعيم إضافي، فسألني الموظف عن اسم التطعيم، فأخبرته قائلا: حمى الضنك. سكت الموظف للحظة، كأنه يسمع اسم المرض لأول مرة، ثم قال لي: «انتظر حتى أسأل الطبيب.» وبعد خمسة دقائق طلب الطبيب دخولي فبدأ كلامه

قائلا: «أين ستسافر؟» أخبرته: «إلى دارفور.» سكت للحظات، ثم ردَّ قائلا: «سأخبرك بمعلومة لعلك لا تعرفها. نوع المرض الذي تسأل عنه للأسف خطير للغاية، وإلى الآن لم يتوصل الطب إلى إنتاج مصل له، ونصيحتي لك عدم السفر مطلقا لأي مكان فيه هذا الوباء اللعين؛ لأن في ذلك مغامرة وخطرا كبيرا على حياتك».

بمجرد سماعي رأي الطبيب، تسربت إليَّ حالة من الإحباط وخيبة الأمل، فمشروع السفر كان قاب قوسين أو أدنى من التحقق والآن أصبح في مهب الريح! قدت سيارتي عائدا من المركز الصحي، لم أتحمل دقائق التوتر التي لازمتني منذ مغادرتي مكتب الطبيب، أمسكت هاتفي واتصلت بالمهندس أحمد القرعاني المدير التنفيذي لمركز التنوع، وطلبت منه اجتماعا طارئا للتشاور في كيفية التعامل مع (حمى الضنك)!

هدّأ القرعاني من توتري، وطلب مني قبل اتخاذ أي قرار أن نجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات المتوفرة والتقارير التي تتحدث عن إصابة منطقة غرب دارفور بهذا الوباء القاتل. مع شروعي في عملية البحث، كنت أُمني نفسي بأن تُكذّب المنظمات الصحية الدولية هذه الأنباء حتى يسهل علينا اتخاذ قرار السفر، ولكن للأسف وجدت على موقع منظمة الصحة العالمية أخبارا وحقائق مفزعة عن حمى الضنك مفادها التالي «تؤدي العدوى بحمى الضنك إلى مرض شبيه بالإنفلونزا، يتفاقم أحيانا ليغدو مرضا قاتلا محتملا يُطلَق عليه اسم حمى الضنك الوخيمة».[1]

واستمرت عملية بحثنا المكتبي، فكان لزاما علينا المرور على الموقع الرسمي للحكومة السودانية، لنرى ماذا تقول المصادر الرسمية، فوجدنا مفاجأة وهي أن الحكومة السودانية تنفي وبشدة التقارير الدولية التي تدّعي تفشي وباء حمى الضنك في المنطقة، بل وتقول إنها أخذت تدابير وقائية تحول دون إمكانية انتشار الحمى!

(1) http://www.who.int/features/qa/54/ar/ شُوهد يوم 16/ 10/ 2018

أصبح الآن أمامنا مصدران للمعلومات: الأول تقارير مؤسسات دولية تؤكد إصابة غرب دارفور بالحمى، فيما تنفي المصادر الحكومية هذه الأخبار جملة وتفصيلا. فعلى أي أساس سنتخذ القرار؟ هل سأعتمد على ما تقوله منظمة الصحة العالمية، أم نأخذ بتقرير الحكومة السودانية؟

لم يكن أمامنا سوى اللجوء لفريق الهلال الأحمر المتواجد في غرب دارفور، للوقوف بشكل دقيق على حقائق الأمور. وفعلا قام عز الدين بالتواصل معهم، لكي يعطينا رأي فريقه الموجود على الأرض بخصوص «حمى الضنك». وحينها أتت الأخبار التي طمأنتنا أخيرا، وحسمت قرارنا بالسفر إلى دارفور.

ومع سماعي لهذه الأخبار، شعُرت بأن حجرا ثقيلا كان موجودا على صدري قد أُزيح. وتنفست بعدها الصعداء إذ أصبحت مشاركة المركز في تقييم مشروع الوئام مرتفعة. وزاد من احتمالات سفري للمهمة تأكيد الأستاذ عز الدين وعده ببذل أقصى درجات التأمين الممكنة لي ميدانيا، لعدم إصابتي بهذه الحمى القاتلة، بتوفير الإجراءات الصحية الوقائية اللازمة.

يبدو أنّ إصراري الواضح على الالتحاق بالمهمة، والمشاركة فيها، حتى ولو على حساب سلامتي، لم يكن بنفس القدر لدى الزملاء بالمركز، أو زوجتي العزيزة و أولادي الذين كان لديهم تحفظات على فكرة السفر، باعتبار أن أولوية السلامة الشخصية مقدمة على أي شيء، إذ ما زلت أتذكر تعقيب القرعاني لي قائلا: «أنا مهندس مشروعات يا ياسر، أعتبر سلامة العاملين معي أولوية قصوى. نحن حريصون على عدم فقدان أي شخص من الفريق.» وعندما انتهى القرعاني من عرض تحفظاته قلت له: «إننا في النهاية نعمل على خط تماس مع النزاعات، وفكرة التعرض لخسائر أمر وارد، والمغامرة مطلوبة، وفكرة وجود فريق طبي وإغاثي بالمنطقة يعطينا قدرا من الاطمئنان على الأقل. وبالنسبة للنقطة الأخيرة، دعنا نقوم بالتأكد من موضوع

عدم توفر الرعاية الطبية للمعالجة في حالة الإصابة لا قدر الله بالحمى.» فوافق على المُقترح. وبعدها، تواصلت مع طبيب سوداني كنت قد تعرفت عليه بالدوحة في العام 2013، وسألته عن طرق معالجة المصابين بهذه الحمى في السودان، فكان حديثه معنا أنها ليست قاتلة، بشرط إذا تمت رعاية المريض بشكل جيد، مع أخذ المضادات الحيوية مع الراحة التامة ووجود خدمة طبية متقدمة. ومما أخافني في المكالمة مع عمرو أنه قال: «عندنا في السودان يسمون حمى الضنك بطاحنة العظام لأن الآلام الناتجة عنها تشبه أوجاع تكسر العظام». وكان صريحا معي عندما قال : «إنّ منطقة دارفور بدائية. وربما لا تجد في العديد من مدنها وقراها المترامية مستشفى واحدا. وإذا وجدت مستشفى، قد لا تجد به خدمات. وإذا وجدت الخدمات، قد لا تجد بها فريقا من الممرضين و الأطباء القادرين على التعامل مع هذه الحُمى. وحينها –والحديث لزميلي الدكتور– «لو سافرت وقررت اتخاذ هذا القرار، فسيكون على مسؤوليتك الشخصية».

المغامرة وتحمل القرار

نقلت تفاصيل المكالمة لفريق المركز، وكان قرارهم هو عدم السفر، ولكنهم تركوا لي خيارا وحيدا ممكنا، وهو إذا أصررت على الذهاب، فعليِّ تحمل كامل التبعات بشكل شخصي.

خلوت بنفسي لأفكر: هل أتحمل قرار السفر، أيا كانت العواقب؟ بحكم أن هذه طبيعة العمل في فض النزاعات، ابتسمت بيني وبين نفسي وقلت: «فض النزاعات، أي فض نزاعات ذلك الذي يتم في الغرف المكيفة، والأماكن الآمنة؟»

ثم جاء دور زوجتي لتُعبر عن رأيها في الموضوع، إذ أشارت علي بفكرة تأجّل موعد المهمة إلى فصل مناخي آخر يقل فيه وجود البعوض الناقل للحمى هناك.

فوجدته مقترحا وجيها، وعرضته على الهلال الأحمر، الأستاذ عزالدين فقلت له: «هل يمكن تأجيل المهمة لفصل مناخي آخر لا يكون فيه البعوض الناقل للعدوى منتشرا، وتكون الظروف المناخية مناسبة وتكون نسبة الإصابة بالأمراض أقل؟» فاستمع للمقترح ولكن للأسف كان رده أن المشروع سينتهي قريبا ويسلّم في نهاية 2015، وكنا نحن حينها-أثناء مناقشة المشروع في 27 نوفمبر 2015، بمعنى أنه تبقى فقط أقل من شهر واحد ويستلم الهلال الأحمر المشروع للأهالي في قرية أرارا. ثم تابع قائلا: «الكرة في ملعب مركز التنوع الآن، فليس هناك مُتسع من الوقت يسمح لنا بالمناورة. فإما أن نذهب ونشارك في مشروع، وإما أن نرفض ونغلق الملف.» استدعى ذلك مني توسيع دائرة التشاور فناقشت أحمد عبد السلام، وهو صديق لي وعلى دراية بقضايا بناء السلام، وعرضت عليه الأمر، وشاءت الأقدار أن ينتج عن حواري معه حسم قراري بإعطاء الموافقة على السف، فقد ركز أحمد على المستقبل فقال: «إذا كان مشروعك في الحياة، هو مسألة دعم السلم المجتمعي، وفض النزاعات، فهذه في رأيي فرصة ينبغي ألا تفوت. إذ أنّ تعرّض العاملين في فض النزاعات للضرر أقل من تعرض المراسل الصحفي الحربي للمخاطر. فاعتبر نفسك يا سيدي مراسلا لبناء السلام، فإن متّ فقد مت في سبيل ما تُؤمن به» (نشر السلام).

بعد حواري مع عبد السلام اتخذت قرار السفر، وكان مما شجعني على المضي في المهمة قدما وأنا مُنشرح الصدر موافقة زوجتي. فقد قالت لي: «توكل على الله، فالله خيرُ حافظا وهو أرحم الراحمين». وفي الصباح الباكر، أبلغت موافقتي إلى الهلال الأحمر، بدأنا مرحلة جديدة من الإعداد للمهمة حتى تؤتي ثمارها ونخرج منها أيضا بفائدة توازي أو تزيد عن حجم المخاطر والمخاوف المتوقعة فيها.

الإعداد للرحلة

بعد إعطاء الموافقة، عقدنا عدة لقاءات مع إدارة الهلال الأحمر حتى يتم الاتفاق

على كامل التفاصيل المرتبطة بالشراكة بيننا، إذ تحددت المهام في ست نقاط. أولها، تقييم تجربة الهلال الأحمر في ولاية غرب دارفور. وثانيها، رصد نقاط قوة وضعف المشروع. وثالثها: معرفة نقاط القوة وعوامل النجاح المتحققة بالفعل. ورابعها: تقديم حزمة من المقترحات لتطوير المشروع. وخامسها: معرفة ما الذي نجح من وسائل بناء السلام بين المتحاربين. وسادسها: معرفة رأي المستفيدين من مشروع الوئام.

النقطة الأخيرة ركز عليها فريق الهلال الأحمر، واعتبرها من الأهداف ذات الأهمية القصوى، لأسباب مختلفة. أوّلها، أن الهلال الأحمر يرغب بنقل تجربته إلى قرى أخرى. كذلك كان الهلال حريصا على الاستماع لرأي أهالي المنطقة في الخدمات المقدمة إليهم؛ للتعرف على إيجابيات وسلبيات التجربة ذاتها.

بدأنا في وضع التصورات الإجرائية الخاصة ببرنامج الزيارة، وبدأ عدَّاد الساعات ينطلق نحو نقطة البداية للذهاب أخيرا إلى دارفور. تسرّبت إلى ذهني لحظتها آهات وآلام أهالي دارفور، ورحت أستذكر تلك القصيدة التي جعلتني أرسم أفقا إنسانّيا يتداخل فيه الحب بالموت، والحياة بالعدم. كنت أتذكر هذه الأبيات القاسية للشاعرة السودانية امتثال محمود[1] وهي تصف بلوعة مأساة دارفور:

«عندما فتحت الميليشيا نيرانها في الفاشر

رأينا نجوما ذهبية تتساقط من السماء

تحط على كل الزوايا

كانت البيوت تذوب

والرصاص ينسكب من كأس مكسورة

(1) https://www.youtube.com/watch?v=VxQQwqcxDRU16/10/2018

كيروسين فضي، لهب قرمزي، كالعاج، كان انعكاس الشمس ظاهرا على العظام.

عنابي، هو لون الدماء التي تسير منسابة، كأنها تحاول الهروب عائدة لأجساد الضحايا المترامية.

لن أنسى أبدا كيف يحب الموت أهلي

وكيف ينامون تحت أقدامه

يغطيهم بدثار عنابي

يوسّدهم بوسائد عنابية

إلا أن دموعنا كانت بلا ألوان

ليس هناك مسحة لهذا الألم

قبل إحدى عشر يوما

عبرت رصاصتان وجهين من شجرة عائلتي

تلميذين في الرابعة عشرة كان عمرهما

أغرقت الدماء كراسة الحساب، ما زالت تقبع في الرف هناك، عمي رفض أن يرميها.

أعجز أن أخبركم كيف يبدو الموت

لكنه عندما يأتي يبقى طويلا

أقمنا جنازة واحدة لأخوين

القبر المشوّه أجبر الضوء أن ينحنيّ، فأغلق النعشين

عجزت الأكفان تحت ثقل الرصاصتين

أخي ذو الثالثة عشر تعلم حمل الموتى

وحين عجزت ساقاه من حمل كفن قريبيّه الصغيرين.

صاح أبي: «هل هي ثقيلة؟ جرب حمل الأحياء إذن».
من تلك اللحظة توقفنا عن استئجار حفّاري القبور.
صار التراب مألوفا بين يديّ، جمعت منه ما يكفي لصنع جسد.
ولكني أخشى مما سأصنع.»

جذور النيران

في الأيام والليالي التي سبقت فترة الاستعداد للسفر سعيت لفهم قصة دارفور وفصولها الجغرافية والتاريخية والدينية؛ بهدف الحصول على فهم أعمق لواقعها، وبناء تصور ما عن مستقبلها، عبر دراسة الوضع الجغرافي في «دارفور»، وطبيعة العلاقة التي تربط دارفور بالحكومة المركزية في الخرطوم، والتنوع السكاني والقبائلي هناك. فتعالوا نبحر ونتشارك في رحلة البحث لنكتشف الجذور العميقة التي تسببت في اشتعال النيران في ثوب دارفور الجميل.

أول باب سندخل منه دارفور هو باب الجغرافيا، فالجغرافيا ليست عبارة عن خرائط صماء لا قلب لها، ولا مشاعر وحدود ومعابر وعلامات باللون الأزرق أو الأحمر، وإنما هي كائن حي وقلب نابض وشرايين تجري فيها حركة الإنسان منذ بدء الخليقة. فالجغرافيا هي الموارد التي يراد استغلالها من البشر، وهي الحدود التي يتم انتهاكها من المعتدين، وهي خريطة القبائل الموزعة هنا وهناك، واللغات المحكية، والثقافات المتنوعة، وآبار النفط، وطرق التجار، والموانئ، والقنوات البحرية التي قد تُشعل حربا أو تخمد أخرى، وكل ما ذكر تقريبا هنا في دارفور، أرض الإبل والنزاعات التي لا تخمد.

إقليم «دارفور» يقع في غرب السودان وتبلغ مساحته قرابة (510ألف كم) أي مقدار مساحة فرنسا. ويحتل تقريبا ٪20 من مساحة «السودان»، وهو متاخم لحدود

دولية متنوعة. إذ يحدّه من الشمال الغربي دولة ليبيا، ومن الغرب جمهورية التشاد، ومن الجنوب الغربي إفريقيا الوسطى. ولو توجّهنا نحو شمال الإقليم، قليلا نجد له حدودا مشتركة مع «مصر». عدد سكان الإقليم الإجمالي يبلغ قرابة (7.6مليون نسمة)؛ وهو يعادل ٪21.9 من إجمالي عدد سكان السودان[1] ويضم تقريبا 195 قبيلة مختلفة.[2]

كل هذه الحقائق الجغرافية تقول أنّ فرص حدوث الصراع والعنف ستكون نادرة؛ فأي صراع يمكن أن ينشأ مع مساحة كبيرة، وعدد سكان قليل، وحدود دولية

(1) محمد زباري مونس. (2015). مشكلة دارفور-دراسة في الجغرافية السياسية. مجلة أبحاث ميسان. (22) ١١، 256-231

(2) عبده مختار موسي. (2009). دارفور من أزمة دولة إلى صراع القوى العظمى. مركز الجزيرة للدراسات

ممتدة، وموارد زراعية ضخمة؟ كل المُعطيات تؤدي لأن نتصور إقليما غنيا، يملك حركة تجارية واقتصادية واسعة تدرّ موارد هائلة، ووفرة اقتصادية على أهالي الإقليم وقبائله. لكن، أين الأزمة إذن؟ لماذا تتفجر كل هذه الصراعات العنيفة في هذا الإقليم المترامي جغرافيا والقليل سكانيا والمملوء بالموارد؟

للإجابة على هذا السؤال، لابد أن ألجأ للجناح الثاني للجغرافيا وهو «**التاريخ**». فالتاريخ -كما يقول الدكتور جمال حمدان: «ما هو إلا جغرافية متحركة»[1]. فالصراعات والعلاقات المتشابكة الناتجة بفعل الجغرافيا اليوم، هي في الأصل تجسيد لكل السرديات التاريخية القديمة.

المحطة التاريخية

منطقة «دار فور» ذات تاريخ ضارب في القِدم، إذ كانت لها علاقات مع «الدولة المصرية» في العهد الفرعوني، وكانت منطقة ذات دولة وسيادة؛ وتُعدّ وفق أقوال العديد من المؤرخين بمثابة أقدم المناطق الإفريقية التي كان لها كيان إداري ومالي مستقل. وقد بدأت رحلة أهالي دارفور مع الإسلام مبكرا، إذ وصلت بشائر الإسلام إلى السودان في عام 31 للهجرة عن طريق اتفاقية البقط بين عبد الله بن أبي سرح وعظيم النوبة في دنقلة. وخلال 300 عام من هذه الاتفاقية، تغلغل الإسلام رويدًا رويدًا إلى دارفور، حيث نشأت أول سلطنة إسلامية في هذه المنطقة في القرن الثالث الهجري، وهي سلطنة «الدايو» والتي طبقت أحكام الشريعة الإسلامية فيها نظامها القضائي القبَلي. وفي عام 1445م، تأسست مملكة الفور الإسلامية في دارفور أيضا والتي اهتمت ببناء المساجد وتعمير الخلاوي (وهي مدارس قرآنية أشبه بالكتاتيب في مصر).

(1) جمال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الشروق

ومن المهم تاريخيا معرفة أن دارفور لم تكن ضمن دولة السودان رسميا حتى العقد الثاني من بدايات القرن العشرين، ففي الحرب العالمية الثانية دعَّم السلطان «علي دينار» أحد سلاطين دارفور الدولة العثمانية ضد الإنجليز، فتخلّص الإنجليز منه بقتله[1]. وقد وافق الإنجليز على انضمام دارفور إلى دولة السودان، مقابل رفع العلم المصري والإنجليزي في منطقة «الفاشر» وأن تؤدى سلطة دارفور (500 جُنيه) كضريبة للإنجليز، وكان ذلك تحديدا في العام 1917.

وينبغي ألا يظن ظان أننا قصدنا بعبارة «ضم» دارفور إلى السودان أنها لم تكن جزءا من السودان أو أنها غريبة عن نسيجه وتكوينه التاريخي. فمن المعروف أن الإطار الجغرافي للسودان الحديث كان قد تأسّس على إرث سلطنتي الفونج (1504–1821) والفور (1650–1916)، وأن دارفور لعبت دورا طليعيا مع بقية أقاليم السودان في إنجاح الثورة المهديّة، ولاحقا في مقاومة الاستعمار البريطاني حتى نال السودان استقلاله عام 1956. هذه التواريخ والأحداث المفصلية من تاريخ دارفور تؤكد على عمق ومساهمة دارفور في تأسيس السودان الحالي.

وبعد الإطلالة على إقليم دارفور من بوابة التاريخ والجغرافيا، يتضح لنا أن فرص الصراع بينها وبين الحكومة المركزية بالسودان ضئيلة بالمنطق والمعطيات المطروحة، إلّا أنه قد حدث العكس؛ فالدين المُتّبع في شمال السودان وفي دارفور هو الإسلام، والمذهب السائد فيهما هو المذهب المالكي، ونمط التدين في معظم السودان التصوف. وهو نمط قائم على العيش في سلام مع العالم ومع الآخرين، واحترام التعددية والتنوع. فلماذا يتفجّر الصراع هناك، طالما أن المذهب واحد، ونمط التدين واحد، والجغرافية تكاد تكون متشابهة؟

(1) صبي. (1) إخضـــاع دارفور للحكم الثنائي وموقف السلطان علي دينار من الغزو عام 1916م. (2018).

جوهر النزاع[1]

يرجع السبب الجوهري للنزاع في دارفور إلى تهميش المركز لهذا الإقليم، وعدم وصول التنمية إليه بشكل حقيقي. ومع موجات الجفاف المتتالية التي كانت (ولا تزال) تحدث للإقليم، كان ينشأ حينها صراع بين قبائل المزارعين المستقرين في القرى وقبائل الرعاة التي تعمل بالرعي وتتحرك على صفحة الإقليم ذهابا وإيابا، وأحيانا يذهبون إلى الدول المجاورة مثل تشاد، وجمهورية إفريقيا الوسطى. فحين بدأت تقلّ المياه وتجفّ الآبار، بدأت قطعان الإبل وقطعان الأبقار وقطعان الماشية تشُن هجمات على قرى وحقول المزارعين بحثا عن الماء والطعام. وطبعا وفق ما هو معروف، حجم القطعان الموجودة في الإقليم شيءٌ مَهُول. نحن نتكلّم عن مئات الآلاف من رؤوس الإبل والأغنام والأبقار. ومع اتساع نطاق هجوم الرعاة على قرى المزارعين وسقوط ضحايا من الطرفين، بدأ مسلسل العنف يزداد بشكل كبير. وهنا، ونظرا لعوامل متعددة، تدخّلت الحكومة المركزية بالخرطوم، ودعمت طرفا على حساب طرف آخر؛ إذ ساندت قبائل الرعاة وهم غالبا من أصول عربية ضد قبائل المزارعين الذين هم من أصول إفريقية. ونتج عن هذا الصراع (انظر نموذج شجرة النزاع)[2] سقوط عدد كبير من القتلى، وتدمير وإجلاء القرى، وتصاعد أزمة اللاجئين، واضطراب الأمن وتعطّل الحياة وقطع الطرق. وظلّ النزاع في قلب دارفور على هذا الحال لسنوات طويلة، وتدخّل المجتمع الأفريقي والدولي لحل النزاعات عدة مرات، لكن كانت هذه التدخلات تبوء بالفشل في كل مرّة، بفعل عوامل مختلفة.

(1) سامي إبراهيم الخزندار، إدارة الصراعات وفض المنازعات إطار نظري، 2014 مركز الجزيرة للدراسات ص209

(2) من تصميم المؤلف

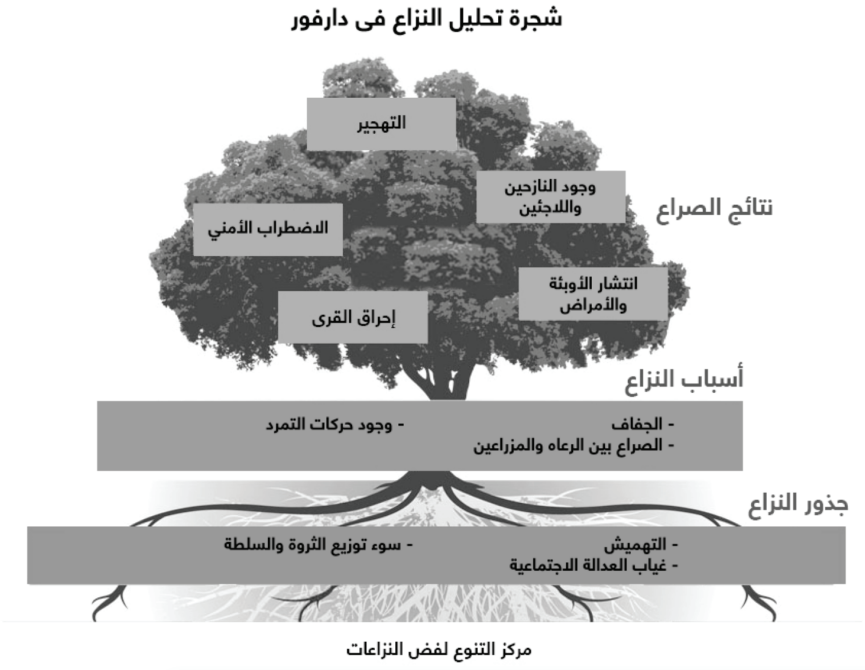

⋆ اتفاقية الدوحة 2011

بذل المجتمع الإفريقي جهودا معتبرة لإقرار السلام في الإقليم. وهو الأمر الذي أّدى في النهاية لأن توقّع كلّ من الحكومة وحركات المعارضة والتمرد على قرابة 8 أو9 اتفاقيات منها «اتفاق نيفاشا» و«اتفاق أبوجا» و«اتفاق أسمرا» و«اتفاق القاهرة» و«اتفاق إنجمينا» و«اتفاق أبشي»[1]، لكن كل الاتفاقيات فشلت تقريبا لأسباب مختلفة، ما بين التعنت من جانب الحكومة السودانية في بعض الحالات، وعدم ثقة المتمردين في التزام الحكومة بالاتفاقيات المتوقعة. كذلك، لاقت الاتفاقيات

(1) عبده مختار موسى. (2009). دارفور من أزمة دولة إلى صراع القوى العظمى. مركز الجزيرة للدراسات ص189

الموقعة عدم قبول في الأغلب من بعض الحركات المتمردة، وهو ما أدى إلى حالة من عدم الثقة بين الجانبين، وتبادل الاتهامات بانتهاك بنود الاتفاقيات الموقَّعة. وهذا القصور هو ما سعت إلى تجنّبه اتفاقية الدوحة للسلام الموقعة في 14 يوليو/ تموز 2011، بين الحكومة السودانية وحركة التحرير والعدالة؛ إذ احتوت الوثيقة التي وقّع عليها الطرفان على سبعة فصول، تطرّقت إلى جوانب قضية دارفور المختلفة. وتمثلت فصول الوثيقة في إرساء حقوق الإنسان والحريات الأساسية، وتقاسم السلطة والوضع الإداري لدارفور، وتقاسم الثروة والموارد القومية، ودفع التعويضات، وعودة النازحين واللاجئين، والعدالة والمصالحة، ووقف إطلاق النار الدائم. وكان من ثمار نجاح هذه الاتفاقية أن بدأ العديد من النازحين واللاجئين في العودة الطوعية إلى قراهم ومساكنهم التي تركوها جراء الحرب خاصة في منطقة غرب دارفور، إذ أقرّت الاتفاقية منح الأسر العائدة إلى مساكنها القديمة منحةً مالية تُقدّر بنحو 250 دولار.[1]

لا يهدف المؤلف إلى تقييم اتفاقية الدوحة للسلام، وإنما يسعى إلى عرض تجربة بناء السلام بعد النزاع في قرية أرارا.

مشروع الوئام المجتمعي في دارفور

كان من نتائج نجاح اتفاقية الدوحة أن بدأت مؤسسة الهلال الأحمر القطري في تنفيذ مشاريع ميدانية تهدف لمساعدة العائدين إلى قراهم في استئناف حياتهم الطبيعية بعد إقرار السلام. وقد مدّني العزيز عز الدين جلال، المسؤول المباشر عن المشروع وأحد مصممميه، بهذه الوثيقة التفصيلية التي أكتفي بنقلها كما وردت من المصدر:

(1) للراغبين فى مزيد من التفاصيل حول اتفاقية الدوحة يمكن مطالعة الرابط المرفق. شُوهد في يوم 16/ 10/ 2018 http://www.darfurconference.com/sites/default/files/files/DDPD%20English.pdf

القطر	– جمهورية السودان
المنطقة الجغرافية	– ولاية غرب دارفور / محلية بيضة/ قرية أرارا
اسم المشروع	– الوئام الاجتماعي
الفئات المستفيدة	المستفيدون مباشرة من المشروع: 500 من أسر النازحين والعائدين شديدة الفقر والمتأثّرين بالنزاع المسلح. المستفيدون غير المباشرون: جميع سكان منطقة أرارا والبالغ عددهم 28115 نسمة.
هدف المشروع	الإسهام في تنمية التعايش الاجتماعي والديني والثقافي بين المجموعات القبلية والإثنية في أرارا من خلال نشر ثقافة السلام وتنمية قدرات الإدارات الأهلية وتحسين سبل المعيشة.
زمن المشروع	– ثمانية عشر شهرا (18 شهرا)
تاريخ بداية المشروع	– 1 مايو 2013م
تاريخ نهاية المشروع	– 30 أكتوبر 2014م
الجهة المنفذة للمشروع	– الهلال الأحمر القطري
الجهات المتعاونة في تنفيذ المشروع	– جمعية الهلال الأحمر السوداني – برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. – مفوضية العون الإنساني – جامعة زالنجي بالجنينة – مركز دراسات السلام – السلطات المحلية – المجتمع المحلي
تكلفة المشروع	499.929 دولار أمريكي 2.499.646 جنيه سوداني (1 دولار = 5 جنيه)

ملخص المشروع

بعد قراءة وثيقة المشروع قبل السفر إلى دارفور، وجدت أنّها صيغت بشكل جيد بناء على معلومات تم الحصول عليها من خلال التواجد الميداني. وأنا أقرأ بنود المشروع، كان حاضرا في ذهني مسألة «المنهجية الأدق» التي يمكن من خلالها التقييم، بحيث نستطيع الكشف عن نقاط القوة والضعف؛ فكان السؤال المهم فيها: كيف تُقيّم مشروعات الوئام وبناء السلام في المجتمعات؟ هل نقيّم المشروع وفق التقييم الشائع للمشاريع، وغالبا هذه التقييمات يهمها بالأساس تقييم وجود المرافق الأساسية وعددها، وتوزيعها، كمعرفة عدد المستشفيات والخدمات الصحية والتعليمية، ونغضّ الطرف عن طبيعة العلاقات الاجتماعية التي تغيرت نتيجة تنفيذ الأنشطة، وهي الأولى هنا بالتقييم؟ وبما أن مشروعنا محل التقييم يحاول تجاوز هذه الفئة من المشاريع، أو يحاول بالفعل من خلال الأنشطة التي يقدمها إرساء دعائم السلم المجتمعي، ونزع العنف، ووضع نواة تنمية حقيقية، فهو يحتاج إذن إلى طرق قياس مُختلفة.

استشرت مجموعة من المهتمين، من بينهم الصديق الباحث «إسماعيل الإسكندراني» الذي كان رأيه أن يتم تقييم هذه المشروعات عبر مستويين. المستوى الأول يتعلق بتحقيق أهداف الخطة المكتوبة، كمثال: حدوث مصالحة بين مجموعة ما من القبائل في منطقة جغرافية بعينها في درافور. وحينها يكون التقييم هو الإجابة على هذين السؤالين: هل فعلا حدثت مصالحة بين هذه القبائل؟ وكم نِسبتها العددية؟ والمستوى الثاني يعتمد على التأكد من تحقيق الأهداف المُسجلة في خطة المشروع مسبقا، والتأكد من أن كل نشاط موجود في التقارير اليومية والدورية للمشروع قد تحقق في الواقع. وبعد هذا النقاش مع إسماعيل، قررت الدمج بين المستوين للتقييم والمتابعة. بمعنى أنني سأقوم بالتأكد من تحقيق ما تم من أهداف للمشروع وفق

الخطة الموضوعة من قبل الهلال الأحمر، مضافا إليها تحليل آراء الناس في المنطقة الجغرافية المذكورة في المشروع، وحجم الاستفادة التي تحققت لهم.

بدأت فعلا بتصميم استمارة تقييم، بناء على المعطيات السابق ذكرها. وبينما كنت أعمل على تجهيزها، تفاجأتُ بخبر جديد من بعض الزملاء العاملين بالهلال الأحمر في دارفور. حيث أخبروني بأن استطلاعات الرأي الميدانية، تكاد تكون مُجرّمة قانونيا هناك، وممنوعة بشكل نهائي من قبل الحكومة، فليس متاحا لك أن تقوم باستبيان، أو تسأل الناس لأن الجهات الرسمية، قد تظن أن هذه الاستبيانات قد تستخدم ضدها في المحاكمات الدولية، وخاصة بعدما أصدرت المحكمة الجنائية الدولية يوم 4 مارس 2009م قرارًا بإلقاء القبض على الرئيس السوداني عمر البشير، وذلك بتهمة ارتكاب «جرائم حرب» و«جرائم ضد الإنسانية». فقد اعتبرت المحكمة البشير مسؤولا جنائيًا، باعتباره مرتكبًا غير مباشر أو شريكًا غير مباشر، عن تعمّد توجيه هجمات ضد عدد كبير من السكان المدنيين في إقليم دارفور.

أصابني الخبر باضطراب شديد. ها أنا ذي أقف من جديد، أمام مشكلة عويصة تقلّل بشكل كبير من النتيجة التي نحاول أن نصل إليها. فكيف يمكن تقييم الرضا عن المشروع من قبل الأهالي، بدون معرفة رأي أكبر عدد ممكن من المستفيدين منهم؟ ولعدم تعقيد المسائل، قررت البحث عن حل لهذه المشكلة عندما أصل إلى عين المشروع في قرية أرارا، وألتقي بفريق الهلال الأحمر هناك.

ملخص الفصل الأول

* الشراكة بين مؤسسات العمل الإنساني ومراكز بناء السلام يُضاعف نتائج الأعمال.
* عمل إغاثي ـ رؤية لبناء السلام = ارتفاع فرص تجدد الصراع.
* معرفة جوهر النزاع وأسبابه أمر رئيس للراغبين في العمل بمناطق النزاعات.
* فهم الأبعاد الجغرافية للصراعات يجعل نجاح جهود بناء السلام ممكنة[1].
* إدراك الأبعاد الجغرافية للنزاع + معرفة الذاكرة التاريخية للنزاع = فهم عميق للنزاع[2].
* الإعداد الجيد للمهام الميدانية يجعل العائد منها كبيرا.
* تبادل الخبرات الإنسانية في مجال بناء السلام على كافة المستويات يُساعد في حل النزاعات[3].
* إيمان القائمين على بناء السلام برسالتهم يجعل لهم مصداقية عند كافة أطراف النزاع[4].

(1) روبرت د. كابلان، انتقام الجغرافيا، عالم المعرفة، 2015، العدد 420، ص 43
(2) المرجع السابق
(3) يوهان غالتونغ، جاك لينش، التغطية الإعلامية للنزاعات، ترجمة رشيد زياتي شريف، مؤسسة قرطبة، 2010، ص 60
(4) سوزان كولن ماركس، مراقبة الريح حل النزاعات خلال انتقال جنوب إفريقيا إلى الديمقراطية، عمان، الأهلية 2008

الفصل الثاني

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾

سورة النساء الآية 114

على الطائـــــــرة

ألقيت نظرة الوداع على أسرتي، ثم حملت حقيبتي ونزلت من منزلي إلى السيارة التي ستحملني إلى المطار. دقات قلبي تزيد بشدة، وكأني مقبل على امتحان مهم، أو مقابلة ستحدد مصيري. لمْ أدرِ لمَ تداعت في عقلي كل تلك الأفكار عن شكل البشر الذين يمكن أن أقابلهم في دارفور، عن الناس الذين يحملون أسلحة، عن نومي وحيدا في خيمة أو مقر سكني منعزل وسط صحراء أو غابة بعيدا عن أسرتي وسط صمت شديد سرمدي، غير منتهٍ. صور أمام ناظريَّ لأطفال فقراء، وأمهات يحملن رضعا على أكتافهن، وأخريات يضعن جرار مياه جئن بها من آبار بعيدة نوعا ما وسط القرية. أدغال إفريقيا العبقة برائحة أشجار كثيفة طويلة تهيمن على أنفي كأني أشمّها وأنا بعيد عنها بآلاف الأميال. كصياد يتحرك، يدفعه شوقه لاقتناص تجربة ما، أو اصطياد درس ما يساعدني ويساعد غيري في الإلمام بفكرة أن الحروب أسوأ اختراعات البشرية، وأنّ النزاعات مهلكة، وأن القتل لعنة متى حلّت أقبل الظلام فملأ الأماكن والشوارع والطرقات بحزن ممتد، وأن نشر السلام بين عيال الله في الأرض من أفضل القربات وأجل الأعمال وأصلحها. حملت حقيبتي، راجيا في سعيي هذا، مقترنا بسعي مئات من الزملاء غيري سبقوني هناك للميدان، أن نساهم في عودة السعادة لأم فرحت بعودة ولدها من ساحات الحرب سالما، أو بزغرودة زوجة علمت أن زوجها لم يمت في المعركة، وأنه في طريقه إليها في صفقة تبادل الأسرى بين المحاربين، أو عودة

الابتسامة لأسرة بعد أن وجدت أرضها القاحلة تدب فيها الحياة مرة أخرى، بعد أن كانت مسرحا لضرب رؤوس المُقاتلين بالسيوف.

دعوت الله في سري وأنا متجه إلى مطار الدوحة أن تبقى الأمور هادئة، ليس لفترة قصيرة وقت إقامتي، وإنما إلى الأبد، حتى نأنس ويأنس غيرنا بالسلام أخيرا، وأن تنفتح عليّ المشاهد واحدا تلو الآخر في أرض دافور حتى يمسني نور من فيض المعرفة وعمق التجربة ورصانة الفائدة.

وأخيرا، دخلت صالة المطار، وانتهيت من إجراءات السفر سريعا. واتجهت إلى بوابة السفر، منتظرا فتح باب الطائرة. وحينها، تذكّرت كلمة رجل عجوز، ممن يُعرَفون بالتقوى الظاهرة والباطنة في بلدتي حيث مسقط رأسي، كنت قد قابلته عندما مررت بمشكلة كبيرة، واستشرته حينها، أي أمر يجب أن آخذ به؟ وأي طريق يجب أن أسلكه؟ فقال لي: «يا ابني سأعطيك علامة تعرف بها أن أمورك تسير في الاتجاه الصحيح، وإلا رايحة في السكة الغلط.» فقلت له: «تفضل.» فقال: «آية الإذن التيسير.» فقلت له: «ممكن تشرح لي يا مولانا أكثر؟» فقال: «يعني لما تمشي في موضوع، وتجد أموره سهلة، وخطواته ليّنة، حينها يجب أن تعرف أن الأقدار حليفة لك. ولو حصل يا بني أن تعسّرت الأمور، ووقفت خطوات الموضوع لا قدر الله، ووجدت في نفسك قدرا من الكره لها، أو حائلا نفسيا لا تدري أسبابه، حينها لا تحزن إن انتهى الموضوع بلا انجاز. هذا إن أخذت بالأسباب، وارتكنت قبلها إلى بذل الجهد ما استطعت.» ومنذ أن سمعت هذه النصيحة من هذا العارف، وأنا حريص دائما على اختبارها في الواقع. وعلى مدار عقدين من الزمان، ظلت هذه العلامة قادرة على العمل معي. فقلت: «ما المانع أن نعتمدها أيضا في هذه المهمة كمؤشر يُنير لنا الطريق؟» وبينما أنا غارق في هذه الفكرة والذكرى التي عادت بي إلى محاضن الشباب، بدأ ركاب الرحلة في الدخول إلى الطائرة. فأسرعت إليهم، ألتحق بهم، مسجلا أول علامات التيسير؛ وهو انضباط موعد إقلاع الطائرة.

محاسن الصُدف

بينما أنا أضع حقيبة اليد التي معي في الدولاب العلوي للطائرة، حتى آخذ مقعدي وأربط حزام الأمان، سمعت صوتا يُنادي علي: «يا أستاذ ياسر!» فقلت ربما شخص آخر معنا على الطائرة اسمه ياسر غيري، ولم انتبه للنداء الأول، ولكن لما سمعت اسمي يتكرر للمرة الثانية، وبلهجة مصرية هذه المرة، قلت إذن أنا المقصود. التفت إلى مصدر الصوت فإذا به الزميل «وليد عبد الله الذي كان يعمل في مؤسسة قطر الخيرية» حتى العام 2008. سُررت للغاية لرؤيته لأنه صديق عزيز، وفرصة جيدة للغاية لاستعادة قصص الزمن الجميل التي عاصرتها في مؤسسة قطر الخيرية، والتي لو تبادلناها سويا، سنجد أنفسنا هابطين في ساحة مطار الخرطوم دون شعور بالوقت.

طرأ على خاطري للمرة الثانية، الشيخ العجوز في قريتي، وكلماته عن التيسير تطرأ في أذنيّ، وأسمعها كأنها تعويذة لفك طلاسم ما. خلال أقل من ساعة، أُرزق برفيق على غير موعد ولا توقع، بعدما حلقت الطائرة مغادرة سماء الدوحة ميمّمةً وجهها شطر الخرطوم عاصمة السودان.

بعدما دردشنا قليلا في ظروف كل واحد منا وأحواله، تحدثت مع زميلي وليد عن طبيعة مهمته في السودان. فقال لي: «أنا مسافر في مهمة خاصة تستهدف دعم قطاع التعليم في السودان. فقد تجاوبت مجموعة من الفتيات القطريات بالمرحلة الثانوية إلى نداء «**قطر الخيرية**» للتبرع من أجل تمكين الطلاب السودانيين من استكمال دراستهم. وقرّرن القيام بترميم إحدى المدارس المتهالكة التي تريد أن تنقض في أحد الأحياء الشعبية في مدينة الخرطوم. فجمعْنَ قرابة مليون ريال قطري، ونسّقن مع «قطر الخيرية»، من أجل البدء في مشروع ترميم المدرسة، وأنا مصاحب لهنّ في هذه الرحلة.» لكني وجدت معهنّ شيخا وقورا يجلس بجوارهن، فعُدت إلى الأستاذ وليد، وسألته: «من هذا الشيخ المسافر معهن؟» فقال: «هذا

أحد الدعاة القطريين. وكان حريصا على الذهاب معهن إلى «السودان» كمرافق. فهو والد الطالبة جواهر إحدى الطالبات الخمس المسافرات معنا.» وطلبت منه أن يعرّفني على هذا الشيخ، وفعلا عرّفني عليه. وقدّمني له بصفتي زميلا سابقا في العمل، فطلب منى الشيخ الجلوس بجواره. وكان من حسن الحظ أني وجدت المعقد المجاور على يمين الشيخ فارغا، فجلست فيه. وأخبرني أنه مهتم جدا بالإنفاق على المشاريع التعليمية الخيرية، لأنها في نظره أكثر فائدةً من فكرة طباعة المصاحف، وحفر الآبار، وقال لي عبارة جميلة وهي: «لابد من بناء الساجد قبل بناء المساجد.» فقد اعتبر الشيخ أن واجب المحسنين اليوم هو ضخ التبرعات لتعليم الإنسان وتثقيفه، والحرص على أن ينال حظه من العلم. فعلى حد قوله، دون وعي حقيقي عند الشخص المسلم المحتاج أو الإنسان، الفقر سوف يتجدد ولن ينتهي. ثم قال لي: «لماذا أنت ذاهب إلى «الخرطوم» يا أستاذ؟» فقلت له: «أنا ذاهب لـلخرطوم في مهمة تتعلق بتقييم أحد مشاريع بناء السلام وإعادة التماسك الاجتماعي في إحدى القرى المتضررة من الحرب في غرب دارفور.» المهم، دار النقاش بيننا، ولكني وجدت أن تفاعله مع ما أقوله لا يسير بالشكل المُتوقع مني! لوهلة، لا أدري هل كانت مصطلحاتي مُعقّدة، أم أنّ المشروع لم يكن على هوى الرجل. فعلمت أنني استخدمت كلمات مثل «بناء السلام» و«إدارة الصراع» و«فض النزاع»، وهي كلمات مفهومة عند المتخصصين والمهتمين، ولكنها عند غير المهتمين تبدو غريبة. وهذا ما لم أنتبه إليه أثناء حديثي مع الشيخ. ولذلك، حاولت أكثر، تقريب المصطلحات إلى المرجعية التي يفهمها. وحينها سألني: «تقصد أنّ ما تفعلونه هو إصلاح بين الناس؟» فقلت له: «طبعا، هذا العمل في نهاية الأمر والمطاف قائم على فكرة الإصلاح بين الناس، تصديقا لقول الله سبحانه وتعالى «لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ.» هنا، عند هذه اللحظة ومع تلاوتي لهذه الآية، تهلل وجهه وضحك وانفرجت أساريرُهُ، وقال: «الآن فهمتك. فلماذا لم تقل لي من قبل، أنّ كلّ ما تقوم به يندرج

في هذه الآية، ﴿أو إصلاح بين الناس﴾.» ثمّ انتقل الحوار بيننا إلى مساحة أكثر فاعلية، قائلا: «وهل تقبلون تبرعات أو دعما من أجل هذه المهام؟» قلت: «أجل.» وساعتها، طلب منّي عنوان مركز التنوع. وشدّد عليّ بإرسال إيميل بكافة أنشطتنا، حتى يساعدنا بالتعريف بجهود المركز وسط المجتمع القطري. فخرجت من القصة بعبرة مُهمة. وهي: عندما نتحدّث إلى المجتمع ونخبته وشيوخه وقساوسته إلخ، ينبغي أن نستخدم مصطلحات وعبارات وأمثلة من البيئة التي يفهمونها، ويشعرون أنها تلامس وجدانهم ومشاعرهم. فاستيرادُ مصطلحات من خارج الثقافة العربية، وإدخالها فيها دون مراعاة السياقات الثقافية والاجتماعية يؤدى في أحيان كثيرة إلى عدم التجاوب مع الأفكار والمشاريع الإنسانية الواعدة. وهذه الخبرة مع هذا الشيخ فسّرت لي موضوعا كان عصيا على الفهم عندي وعند العديد من الناس. وهو أن هناك أشخاصا أصحاب مشاريع واعدة مثل: «مشروع تعليمي – مشروع بناء سلام – مشروع تثقيفي – مشروع ابتكار جهاز جديد – عمل تطبيق لعرض إنساني على الهواتف المحمولة – أو طباعة كتاب بحثي عميق» لا يجدون تجاوبا كافيا من الممولين لدعم مشاريعهم، وفي المقابل نجد مشاريع مثل: «بناء المساجد، وحفر الآبار، وطباعة المصاحف، وكفالة اليتيم» تحظى بالمرتبة الأولى في قوائم المشاريع المُنفّذة، لما تحظى به من دعم مالي من المحسنين. وفي ضوء خبرتي مع هذا الشيخ، أدركت أنّ الخلل يقع على أصحاب هذه المشاريع وليس على المتبرّعين، لأنّ أصحاب هذه المشاريع إما يتجاهلون طبيعة السياق الثقافي والاجتماعي، أو يستخدمون خطابا معقدا مليئا بالمصطلحات والكلمات التي لا تُلامس وجدان وأفكار الناس بقوة.

استمتعت بمحادثة الرجل، واستأذنت منه لأرجع لمقعدي. وبعد بقليل، انطلق نداء قائد الطائرة للركاب بوجوب الاستعداد للهبوط، فنحن على وشك الوصول لمطار الخرطوم. وبدأ الطيار في عملية الهبوط التدريجي نحو المطار، وهبطت الطائرة أخيرا، ولله الحمد. وبدأنا نتحرّك لنستلم الحقائب.

مع آدم صابون

«المطارات لها رائحة مميزة للغاية؛ الوجوه المتنوعة للرائحين والغادين من ذوي الجنسيات المختلفة، واللغات المحكية المختلفة، والهدوء القاتل للمطارات الصغيرة، والصخب في المطارات المركزية الكبيرة. دقات متسارعة، قلقا من ترقب تجربة جديدة حال لو كان البلد الذي نزور جديدا، أو فرحا بلقاء الأهل والأصدقاء، أو شوقا لرؤية الأماكن والشوارع القديمة لو كنا نزور البلد مرّة أخرى.»

انتهيت من أخذ الحقائب، واتجهت إلى بوابة الخروج التي كانت مكتظة بالأهالي الذين ينتظرون ذويهم العائدين إلى أرض الوطن. فوجئت بالأستاذ نصر الدين مدير بعثة الهلال الأحمر القطري في الخرطوم يلوّح لي. لقد تعرّف عليّ الرجل، فور خروجي من بوابة المطار. عانقني مبتسما وهو يربت على كتفي، ويحمد الله. وتحركنا سويا نحو موقف السيارات حتى وصلنا السيارة. وفور اقترابنا منها، خرج منها سائقها فارع الطول، أسمر البشرة، عريض المنكبين، ذو الجسم القوي، مفتول العضلات. يُخيّل إليك من فرط طوله أنه راكب وسط قوم جلوس. وعندما وقعت عيني عليه، انطبع في ذهني أنه قريب العهد والصلة بسيدنا آدم عليه السلام، أو أنه أحد أبناءه المباشرين. قابلني مبتسما كعادة الإخوة السودانيين الذين أعرفهم، ثم رحّب بي وأخذ منى الحقائب ووضعها داخل السيارة بخفة وسرعة. ثم قال لنا تفضلوا، فركبنا السيارة جميعا وتحرّكنا صوب أحياء الخرطوم العامرة. وبعد أن سرنا عدة كيلومترات، أخبرني الأستاذ نصر بأن سائقنا العملاق من إقليم غرب دارفور. حينها، قفزت إلى ذهني صفات سكان الإقليم الجسمانية التي تعرفت عليها خلال بحثي عن سكان المنطقة، وأهلها، وصفاتهم، وموارد رزقهم، وسكنهم. فقلت لنصر الدين: «يبدو أن آدم من قبيلة الفور؟» فقال لي: «صحيح، ولكن كيف عرفت؟!» فقلت له أنّ الصفات التي فيه، هي صفات قبيلة الفور، كما جاءت في المراجع والكتب. فكانت

هذه المرة الأولى التي أُقابل فيها شخصا من أهل دافور في الخرطوم. واقترح علينا الأستاذ نصر الدين مقترحا لم أفهمه في أول الأمر، بل كان غريبا على مسامعي إذ قال للسائق: «اتجه يا آدم إلى سوق قندهار!» فقلت: «يا أستاذ نصر! أعرف أنّ قندهار في أفغانستان، أ توجد هنا في الخرطوم قندهار أخرى؟» فقال لي ضاحكا: «لا تستعجل ولا تقلق.» وبعد برهة من الزمن، توقّف السائق أمام سوق كبير، على ناصيته مجموعة واسعة من محلات الجزارة التي تعرض شتّى أصناف اللحوم الطازجة المذبوحة للتو. فقال لي: «تفضّل، سوف نتغدى سويا هنا.» وسألني: «أيّ أنواع اللحوم تفضّل؟» فقلت له: «لحم الضأن.» فقال: «تعال معي، واختر بنفسك اللحم الطازج الذي تحب أولا.» كانت فكرة السوق قائمة على أن يشتري الشخص بنفسه اللحوم الطازجة من محل الجزارة. ثم بعد ذلك، يذهب بها إلى أحد المطاعم الملاصقة للمكان، ليقوم المطعم بطهوها، ثم تقديمها لك على الطريقة السودانية التقليدية. فالسوق والمكان وطريقة التقديم والجو العام يجعلك غارقا في الأجواء السودانية التقليدية الجميلة. جلسنا في إحدى الغرف التقليدية المُعدَّة من حيث الأساس والأدوات على النمط السوداني البسيط. وعلى الرغم من أنّ المكان يمُوج بالغادين والرائحين من الإخوة السودانيين، إلا أن المكان تغشاه السكينةُ والهدوء. فالناس يمتازون بالوقار والاحترام، ويأخذون أماكنهم في المطاعم بدون ضجيج ولا صخب.

سوق قندهار

أثناء الغداء سألت الأستاذ نصر الدين: «لماذا أطلقتم على هذا السوق اسم قندهار؟» فقال لي: «السودانيون لهم طريقة مميزة في التفاعل مع الأحداث السياسية التي تخصّ العالم العربي والإسلامي. فعندما يقع حدث معيّن في منطقة ما بعينها، ويرتبط بالحادث سقوط ضحايا أو أمر لا يحمد عقباه، يطلقون اسم هذا المكان على سوق من الأسواق أو ساحة من الساحات تعاطفا مع المنطقة المنكوبة، تخليدا لها،

وتفاعلا ودعما لأهلها، على الأقل ما استطاعوا. وهو أمر قليل في نظر السودانيين، لكن على الأقل يشعرون بأنهم تضامنوا، وأبقوا ذكر الحادثة والمنطقة في أذهانهم، حتى لا ينسوا. واسم قندهار جاء في هذا السياق، فقد تعرضت قندهار في فترة ما لحادثة، ووقع من أهلها من وقَع ضحايا وقتلى، فأطلق أهل السودان اسم قندهار على هذا السوق تذكيرا بالواقعة، وترحما على ضحايا، رحمهم الله.» استغربت الأمر، ودار في خلدي ما سمعته عن عطف وكرم وإنسانية أهل السودان. وخلال هذه الفترة الوجيزة التي قضيتها مع الأستاذ نصر الدين والسائق آدم صابون على الغداء، لمست فيهما حبهما لعملهما، وقدرتهما على التواصل مع محيطهما الاجتماعي، وقناعتهما بما يقومان به من عمل إنساني في الخرطوم، بحكم أنهما من أبناء البلد، ويعرفان أعرافها وثقافتها ومعالمها. وهذا يُعدّ، في نظري، من نقاط قوة الهلال الأحمر القطري العامل في السودان؛ أنّه اعتمد في تشكيل فريقه الميداني هناك على الإخوة السودانيين.

بعدما انتهينا من وجبة الغذاء، تحرك بنا الأستاذ نصر الدين محجوب في جولة سريعة في العاصمة الخرطوم. كانت هذه أول مرة أزور السودان، وكان في ذهني طوال الوقت فكرة رؤية الجزء الثاني من النيل، مقارنة النيلين الكبيرين، نيل مصر ونيل السودان، بل حتى مقارنة السودان وأرضها بمصر. أفكّر ماذا لو كانا القطران غير منفصلين، أحببت الفكرة بالطبع، وابتسمت حينما جالت بخاطري.

أوّل ما خرجنا من الشارع بالسيارة إلى كورنيش النيل، فوجئت بمنظر نيل مختلف إلى حد كبير عن النيل بالقاهرة. فعندما مررنا بجوار النيل الأزرق في الخرطوم، وجدته هدّارا ذا موج متلاطم، وماءه بُنيّ اللون مملوء بالطمي. تكثر به الجزر، وعلى جانبيه المزارع والحقول، وعلى صفحته تسير المراكب والبواخر. كانت هذه أوّل مرة أرى النيل بوجه آخر غير الذي عهدته وعرفته بمصر من حيث الهدوء والصفاء، فطلبت من

السائق آدم أن يقف على يمين الطريق. ويختار لنا مقهى يُطلّ على النيل، نجلس فيه نشرب كوبا من الشاي. وفعلا، نزلنا وجلسنا على المقهى الذي يتّخد من بضع نخلات صغيرة نابتة على ضفاف النيل مظلة لرواد المكان. تناولنا الشاي السوداني الغارق في مكعبات السكر المتراكمة، والسابح وسط وريقات النعناع الأخضر الجميلة. كنت في احتياج شديد له، بعد يوم مرهق طويل، عدّل مزاجي للغاية. أحسست بخدر شديد يتسلل إلى جسدي، وحنين لنوم جارف. حينها، كانت الشمس قد أوت إلى مضجعها، وأرخى الليل سدوله على أحياء الخرطوم الطيبة، وعاد الناس إلى بيوتهم أفواجا. فكان لزاما علينا أن نشارك أهل الخرطوم نشاطهم، ومحياهم، ونومهم. فاتّجه العم آدم صابون بنا، صوب الفندق الذي سأُقيم فيه في الخرطوم. ومن جميل الأقدار وحسن الطالع، أن الفندق كان طرازه من الطرز المعمارية القديمة الجميلة المتوافقة مع البيئة. مبنى معماري هادئ مريح للنفس، ويشرح الصدر. يُطل بنوافذه الكبيرة المُشرعة على النيل الأزرق المتدفق بجواره مباشرة. كان اسم الفندق جراند هولي داي فيلا. وهو فندق وجدت فيه إقبالا وحركة دائبة من الناس، تكاد تقترب من درجة الازدحام، بحكم أنه من الفنادق القليلة ذات السمعة الجيدة في الخرطوم التي تُعاني من شح الفنادق الموثوق فيها من قبل الزائرين. وعند وصولنا إلى الفندق، قام مرافقي آدم بعمل كافة الإجراءات الخاصة بدخولي، ثم توجهت نحو غرفتي، وأنا مسرور من نتائج اليوم الأول المُبشّرة.

كان الاتفاق مع الأستاذ نصر الدين، أن رفيق الطريق الطيب آدم صابون، سيأتي إليّ حتى يصحبني إلى مقر بعثة الهلال الأحمر القطري في العاصمة الخرطوم. وفعلا قضيت الحمد لله ليلة جميلة وأخذت قسطا كافيا من الراحة.

وفي صباح اليوم التالي على الساعة «الثامنة» صباحا، وصل العم آدم إلى الفندق، ليصطحبني إلى لقاء مع كامل فريق بعثة الهلال الأحمر القطري في الخرطوم. وأثناء

السير معه نحو مقر الهلال، دار نقاش بيني وبين آدم يمكن وصفه بالمهم. طبعا فمثل لقائي بآدم فرصة، لأنه إنسان دارفوري ويعيش داخل الأزمة ورحمها. فأحببت أن أتأكّد من معلوماتي السابقة عن موضوع وجود الحمى وطبيعة الوضع الميداني. دار النقاش مع آدم حول ما تقدّم من مواضيع، وتركته يتحدّث بأريحية ووفق ما يحب حتى وإن بدت المواضيع التي يتكلّم فيها لا تمسّ ما أريد مباشرة، لكنها كانت من جهة أخرى مفيدة في تعميق الفهم والإدراك والتحقق مما عرفته في الدوحة. وهذا ما رفع من مستوى الطمأنينة والاطمئنان لدي بأن المكان ليس بالخطورة المتوهمة أو المتخيلة. وحكى لي قصصا وحكايات عن أجواء الصراع، وعن طبيعة المشاكل الموجودة في المنطقة. فوجود مرافق لي في الرحلة من أهل دارفور، كان علامة مُبشّرة بالتيسير في المهمة، أستشف بها التوفيق والسداد. فوجود هذا السائق المؤمن برسالته في الهلال الأحمر القطري والمنحاز لفكرة السلام والوئام، والكاره لفكرة الحرب والصراع، والقريب من نبض الشارع والناس البسطاء، وفّر لي كنزا ثريا للمعارف والمعلومات قبل الولوج إلى بطن دارفور وشوارعها.

وعند وصولنا إلى مقر بعثة الهلال الأحمر بالخرطوم، استقبلنا الأستاذ نصر الدين، وعرّفني على الفريق الموجود في البعثة. وهو فريق قليل العدد، ولكن من احتكاكي بهم لاحقا وجدت أن أداءهم جيد للغاية في الميدان. وبعد الترحيب والاستقبال، كان الإفطار السوداني في الانتظار. تناولت الإفطار، ودار نقاش بعده، إذ قال الأستاذ محمد جمال وهو مسؤول قسم الإمدادات بالهلال: «هذا المشروع أشبه بقمة عربية مُصغّرة؛ فالداعمون والمؤسسون من الهلال الأحمر من قطر، والمنفّذون من السودان، والشخص الذي جاء لتقييم المشروع مصري!»

كان اللقاء الأول لطيفا للغاية. سررت بما تمّ، وبالتواصل الجيد بيني وبين الفريق القائم على المشروع، أخذنا استراحة قليلة، ثم استمر الحوار والنقاش في مقر بعثة

الهلال حتى جاء موعد صلاة العصر. وبعدها، طلب مني نصر الدين استكمال الأوراق الرسمية الخاصة بي، من صورة لجواز السفر وخلافه، حتّى يتمكّن من إصدار تصريح دخولي إلى غرب دارفور. فلابد من الحصول على موافقة مفوضية العمل الانساني، وجهاز المخابرات السوداني قبل السفر إلى دارفور. قلت له: «أنا قدم من الهلال الاحمر القطري، وبالتنسيق مع بعثته في الخرطوم هنا في السودان، فلماذا كل هذه الموافقات؟» قال لي: «أتفهّم ضيقك من فكرة التصريح. لكن صراحة، السفر إلى دارفور يخضع لإجراءات مشددة؛ لأن السودان طرد كل المؤسسات الغربية العاملة في مجال حقوق الإنسان أو الإغاثة هناك، فبعضها -من وجهة نظر الحكومة السودانية في الخرطوم بالطبع واعتبارا للتقارير الميدانية التي ترسلها لمقراتها المركزية، بمثابة أدلة تدينه أو على الأقل تساعد في تقديم شكاوى ضد السودان في محكمة الجنايات الدولية، فأصبح السفر لدارفور (سواء كان الشخص أجنبيا أو سودانيا من غير أهل دارفور) يستدعي الحصول على الموافقات الرسمية أولا، فمطلوب منك يا ياسر صورة جواز سفرك، و عليه ختم الدخول من مطار الخرطوم.» وشرح لي كامل الإجراءات التي سوف يقوم بها، وهذا الأمر أصابني ببعض التوتر لأمرين: الأول هو أنني مصري، وللأسف في هذه الفترة -تحديدا في أواخر عام 2015 -كانت هناك أزمة سياسية بين مصر والسودان، وكانت تلك الأزمة مؤثرة على حركة أي مصري يسافر إلى دولة السودان. والأمر الثاني، أنّني لست موظّفا في الهلال الاحمر، ولكني متطوع فقط. في نهاية المطاف، لم يكن أمامي سوى الانتظار، وتقديم الأوراق، واستخدام طريقة علامات التيسير التي علمني إيّاها الشيخ العارف بالله في مسقط رأسي، بأن «علامة الإذن تيسير الأمور». وقد طمأنني نصر الدين خيرا، عندما أخبرني بأن له خبرات مُسبقة في هذا الباب، وأنه قد نجح في استخراج تصاريح سابقا تتعلق بالسفر إلى دارفور؛ وبحكم الثقة المتبادلة بين الهلال الأحمر ومفوضية العمل الإنساني في الخرطوم في مكان يُسمَّى مجمع الإجراءات الموحد،

وقال لي: «إن شاء الله الأمر لن يستغرق سوى يوم أو اثنين، ونحصل على الموافقة. ثم نتحرّك مباشرة إلى إقليم غرب دارفور. وبذلك الأمل يكون قد انتهى يومنا الثاني في العاصمة الخرطوم، وجاء دور رفيقي النجيب آدم صابون المُحبّ لمصر والمهتم بأحداثها، ليذهب بي من مقر البعثة إلى الفندق.

«أن تمارس الفضيلة في الحياة، وأن تكون نافعا للمجتمع، خير من أن تلوذ بصومعة لتحمي نفسك من الحاجة إلى العمل»

فيودور دوستوفيسكي، رواية الإخوة كارامازوف

في انتظار التحرك

بدأت تباشيرُ صباح اليوم الثالث تهلُّ علي، وأنا لا أزال موجودا هنا في العاصمة الخرطوم، مقيما في الفندق منتظرا إصدار الموافقة الأمنية؛ حتى يتسنّى لي تحقيق الأمل المرجوِّ بالمشاركة في تنفيذ المهمة المأمولة. كان حصولي على تصريح السفر من السلطات السّودانية أمرا بالغ الأهمية بالنسبة لي. أوّلا على المستوى النفسي، لأني أعتقد أن الموافقة ستكون إشارة من الله على تيسير الأمور، وكذلك لرغبتي الشديدة في التعرف على تجربة ثرية لها هذا قدر كبير من الأهمية الإنسانية والمجتمعية، والثاني لأني كنت معنيا تمامًا بمراعاة اللوائح والقوانين عند تأدية مهام في مثل هذه المناطق، والتي لها طبيعة خاصة، وتصريح مثل هذا بالتأكيد سيُقلل كثيرا من المخاطر والمضايقات لي في السفر والطريق.

نزلت من غرفتي إلى مطعم لأتناول طعام الإفطار. ثم عدتُ بعدها إلى غرفتي منتظرا على أحرّ من الجمر، سماع رنين الهاتف القادم من بعثة الهلال الأحمر. حاملا خبر الموافقة بالسفر، أو الرفض، وبالتالي ضياع المشاركة في المهمة. كنت أجلس مترقبا، يحسب عقلي الفرضيات المختلفة التي قد تؤدي إلى سيناريو الموافقة أو الرفض. كان الأمر أقرب إلى انتظار نتيجة سنتي الأخيرة بالجامعة. وبعد قرابة

ساعتين من جلوسي في غرفتي، تحديدًا في قرابة الساعة العاشرة صباحا، رنّ هاتف الغرفة، فعدوت إليه سريعا، فإذا على الخط «نصر الدين» يخبرني أن التصريح لم يصدر حتّى الآن، وأنه بحاجة إلى مزيدٍ من الوقت للبحث والسؤال عن سبب تأخره! ثم طلب مني التحلي بالصبر، والانتظار ليوم آخر حتى يتسنّى له الحصول عليه. فبدون التصريح، لا يمكننا السفر إلى دارفور. وإن تحرّكنا، فهي مغامرةٌ ومقامرة كبيرة. انتظرت حتى انتهى من كلامه. سكت لوهلة، قبل أن أجيبه قائلا: «خُذْ راحتكَ يا أستاذ نصر، فما يهمني هو سلامة الجميع، والتزام المسار القانوني في السفر، ومن ثم إتمام مهمّتي، والعودة بالسلامة إلى وطني وأسرتي.» صراحة، أزعجني الأمر قليلا. وضعت السماعة، وقد دبّ فيّ قدر صغير من الإحباط، لكن سرعان ما حادثت نفسي بأنّ هذه الأمور تأخذ في الغالب وقتا طويلا؛ إمّا بسبب صعوبة الإجراءات الإدارية، وإمّا بسبب طبيعة المهمة الحسّاسة التي وكلنا بها. في النهاية، تقبّلت نصيحة صديقي، والتزمت بالصبر، حتى يأتي الفرج.

الصمت والهدوء يلفان الفندق الذي أجلس فيه؛ لذا بعد أن مرّت ساعة من الزمن، هيمنت عليّ حالة من الملل لجلوسي هكذا في الفندق دون رفيق ولا جليس، خصوصا وأنا غريب تماما، رغم حسن معشر الناس بالفندق، والود الذي يظهر باديا في حديثهم ووجوههم. الانتظار صعب للغاية، لابد من إنجاز شيءٍ ما في فترة الانتظار، قبل أن يقتلني التوتر والقلق من انتظار الموافقة على السفر. تحركت من مكاني ببهو الفندق، وانطلقت لأتصل بنصر الدين مرة أخرى. واقترحت عليه أن يرسل سائقنا الهُمام آدم حتى يحملني إلى مقر بعثة الهلال الأحمر، كي أُراجعَ بعض وثائق المشروع ومراحله مع الأستاذ محمد جمال في مقر البعثة. وفي حدود الساعة الثانية عشر، وصل إلى باب الفندق «آدم صابون» الذي استقبلني بودّ شديد. وبعدما تصادقنا سويا، كنت أمزح معه بخصوص اسمه الأخير، ونتضاحك كثيرا، حتى صرنا صديقيْ السفر والترحال. وكان لي خير صديق حتّى بعد أن سافرت من السودان.

إلى مقر بعثة الهلال الأحمر

أخذني «آدم» وذهبنا إلى مقر بعثة الهلال الأحمر، وظللتُ في السيارة مفكرا في مسألة الموافقة. ثم ارتأيت أن أنشغل قليلا بقراءة الملف الخاص بمشروع «**الوئام وبناء السلام**»، على المقعد الخلفي بالسيارة. أخرجت شنطتي البنية الكبيرة التي تحمل كل الأوراق والوثائق التي استلمتها من الهلال الأحمر بالدوحة، كما أخرجت خريطة كبيرة لدولة السودان الشقيقة.

تجوّلت عيناي على النقاط المهمة بالخريطة، خصوصا منطقة غرب دافور، ودقّقت كثيرا في النقاط الجغرافية التي تحويها المنطقة. ثم قلّبت أوراق المشروع، والصور المتعلقة بها. وأثناء التفكير، داهمني سؤال مهمّ لم أجد له إجابةً واضحةً. كان السؤال هو: لماذا اختار المشروع قرية نائية وبعيدة في غرب «دار فور»، وعلى الحدود مع جمهورية «تشاد» دون غيرها من القرى الأخرى؟ ولماذا هذه القرية بالذات؟ هل لها علاقة بصراع دار يوما ما في هذه البقعة؟ هل لتكويناتها المجتمعية والقبلية شأن مختلف عن بقية القرى؟ وما هو المعيار الموضوعي لاختيار القرى كي يتم تضمينها في مبادرة الإعمار والتنمية بعد «اتفاقية الدوحة» التي وُقّعَتْ بين الجهات المتنازعة والحكومة، في العام ٢٠١١ بمبادرة «قطر لتنمية وإعمار دار فور»؟

ظللت أحاول الوصول إلى إجابة واضحة عن هذه الأمر، بوضع تعليلات وتفسيرات مختلفة ومتنوعة لعلي أصل إلى إجابة؛ مستغلا الوقت في السيارة في التفكير: هل تم اختيار القرى بحكم وجود معرفة بالمكان، أم لأهميتها الاستراتيجية، أم لاعتبارات أخرى رآها فريق الهلال الأحمر؟ وقلتُ في نفسي: «الوصول لإجابة عن السؤال مهمّ. فبحكم خبرتي المتراكمة في العمل الخيري والإنساني، وجدت أن عدم الشفافية في وضع معايير واضحة تحدد الأماكن والأشخاص المعنيين بالمساعدات يقود حتما إلى فسادٍ كبير. فقد تجد موظفا أو مسؤولا ميدانيا في مؤسسة خيرية يجعل

همَّه الأول ذهابَ المساعدات إلى المنطقة التي يعيش فيها أو التي تنتمي إليها قبيلته وخاصةً في البلاد الإفريقية والآسيوية. فموضوع الولاء للقبيلة يتقّدم في أحيان كثيرة على الولاء للدولة والوطن!»

أقلقتني واقعة مشهورة حدثت في مجال العمل الإغاثي مفادها أن مؤسسة تُعنى برعاية الأيتام في قارة إفريقيا رصدت من خلال تقاريرها التقييمية أنّ أغلب كفالات الأيتام التي تخرج من المؤسسة تذهب إلى دولةٍ محددة، هي «بوركينا فاسو». ولم يتوقف الأمر عند هذا وحسب، بل ووجدوا أنّ المساعدات تتركز تحديدا في جنوب دولة «بوركينا فاسو» دون باقي الجهات الجغرافية الأخرى! ثم وجدوا مفاجأةً أخطر، وهي أن المساعدات تذهبُ كلها إلى محافظة محددة في جنوب «بوركينا فاسو». ولما دققوا أكثر، وجدوا أن التبرعات تذهب إلى مركزٍ إداري بعينه في المحافظة! ومع الفحص المتتابع، اكتشفوا أنّ كل الأيتام الذين توجَّه لهم كل تلك المساعدات ينتمون إلى قبيلة واحدة فقط، وأسقط في أيديهم. فأطنان من المساعدات وصلت لقبيلة واحدة، في دولة واحدة، رغم وجود قبائل كثيرةٍ في هذه المنطقة الفقيرة من العالم، في أمسّ الحاجة وفي غاية الفقر والعوز.

قامت المؤسسة بإنشاء لجنة للمتابعة والمحاسبة، اكتشفت بدورها أنّ سبب الواقعة الأخيرة يعود لأن الموظفين الذين يرفعون أسماءَ الأيتام الذين يستحقون المساعدة للمؤسسة، ينتمون إلى نفس القبيلة المذكورة. وقبيلتهم بينها خلافات مع القبائل الأخرى، فوجّهوا المساعدات كلها إلى أبناء قبيلتهم، وحرموا بقية القبائل من تلقّي المساعدات والدعم. فأعادت المؤسسة الإغاثية، بناء على التقييم السابق، شكل المسارات التي يجب أن تتبعها لتوصيل المساعدات والإغاثات.

وأنا أتذكر القصة السابق ذكرها، ورد في مخيلتي حجم الأعداد من الفقراء والأطفال المعوزين الذين لن تصلهم المساعدات إما بسبب فساد، أو بسبب جهل

القائمين على عملية الإغاثة ذاتها، والاستعانة بأفراد ليسوا محلّ ثقة، أو بسبب عيب في المنظومة الإدارية التي تغيب عنها معايير توظيف محدّدة تراعي التنوع القبلي والعرقي في المنطقة، بالإضافة إلى غياب معايير تحدد فئات الأطفال الأيتام التي تستحق المساعدة، وأخيرا عدم وجود قواعد تحدّد شكل الانتشار والعمل الجغرافي ميدانيا.

لو سار الأمر على هذا الطريق قد يصبح وبالا وكارثة، ليس على من حُرموا من المساعدات بسبب هذه الأخطاء، وإنما يجعل غياب المعايير والشفافية في العمل الإغاثي والخيري المحسنين والمتبرعين يفقدون الثقة في مؤسسات العمل الإنساني، ويجعل أهالي المناطق المنكوبة محل النزاع تتشكك في مصداقية وحيادية هذه الجهود الإنسانية التي جاءت لمساعدتهم. ولخطورة هذه المسألة، كنت متلهفا لمعرفة كيف اختار «الهلال الأحمر القطري» وحدد القرى التي تستحق الدعم وبناء السلام دون غيرها، من مئات القرى المترامية المنتشرة في أرجاء دارفور ونواحيها.

لم أشعر بالوقت، وأنا أفكر في هذا السؤال والأزمات الناتجة عنه، ونحن نسير بالسيارة، حتى انتبهت أنّنا قد وصلنا إلى مقر البعثة.

الوصول إلى مقر بعثة الهلال الأحمر

فور وصولنا إلى مقر بعثة الهلال الأحمر، استقبلنا الأستاذ «نصر الدين» بحفاوة شديدة، وأخبرنا أننا تأخرنا عليه. لم نفهم سبب التأخير الذي تحدث عنه، وقد وصلنا في الموعد المحدد بالضبط، إلا حينما دخلنا قاعة بمقر البعثة لنتفاجأ بأنّ الرجل -من واسع كرمه وفضله-كان قد أعد لنا غداء سودانيا شهيا، وخشي أن يبرد الطعام ويفقد مذاقه ونكهته. فتناولنا الغداء سويًّا، مع كامل أعضاء الفريق.

كانت لفتة طيبة للغاية من الأستاذ «نصر الدين»، فالرجل استقبلني وكأننا على

تواصل منذ فترة طويلة. أحببت للغاية الجو الحميمي، وهذه الروح الجماعية الكبيرة، والتآلف بين العاملين الذي يظهر بوضوح في مقر البعثة بين كل أعضاء فريقه بداية من السائق وانتهاءً بمدير البعثة. وإذا كان التآلف والاندماج بين العاملين في المؤسسات التجارية مهما، فهو في مؤسسات العمل الإنساني بالغ الأهمية؛ إذ أنه من الصعوبة الشديدة على فريق غير مُنسجم، أو لا تظهر بينه أعضائه الروح الجماعية وهو يعمل في العمل الإنساني، أن يقدم الرحمة والبر للمتضررين والمعوزين، وهو فاقد لها.

بعد تناول الغداء وشرب الشاي السوداني -الذي يُقدم عادة وسط مكعبات سكر بعضها فوق بعض، ذكّرتني بعلب «سكر المكعبات» الذي كنا نستخدمه في بيوتنا المصرية بثمانينات القرن العشرين. انتقلت إلى مكتب نصر الدين الذي كان يُوليني اهتماما كبيرا رغم ضغوط العمل عليه؛ فقد كان يُجيب على أسئلتي بكل ترحاب واهتمام. وكان سؤالي الرئيسي في هذا اليوم هو: وفق أي معيار قد تمّ اختيار القرى التي تخضع لمشروع «بناء السلام والوئام؟» فابتسم وقال مازحا: «أنت بتشكك في شغلنا يا أستاذ ياسر؟!» فقلت له: «معاذ الله. إنما نحن نتعلم منكم، وما جئت هنا إلا لنقل خبرة تجربتكم.» فأردف قائلا: «سؤالك مهمٌ وذكيٌ جدا. ويبدو أن لديك تقييما جيدا للمشاريع».

وبدأ نصر الدين يجيب فقال: «سأخبرك القصة من البداية. الحقيقة أن اختيار القرى المستحقة لتلقي الدعم وبناء السلام فعلا شكّل لنا تحديا كبيرا. فبعد توقيع اتفاقية السلام مع الحركات المتمردة والمعارضة التي وافقت على التوقيع، تم إطلاق مبادرة تعمير القرى في إطار الاتفاقية. وكما تعرف، كل حركة تمرد لها نطاق تواجد جغرافي تستمد منه الدعم الشعبي والمادي من سكان القرى والمدن التي يسيطرون عليها؛ حيث تمثل لهم القرى رافدا من الأفراد والمساعدات التي لا تنقطع، رغم تضييق القوات الحكومية على أهالي القرى الداعمين للحركات المسلحة. ومع

توقيع اتفاقية السلام، أصبح أهالي هذه القرى ينتظرون رد الجميل من الحركات التي وقفوا معها أيام النضال والكفاح. كل قرية تضغط على قادة الحركات، ليكون لها السبق والنصيب الأكبر من المساعدات، ويتم تسجيلها في قوائم القرى التي تشملها مشاريع إعادة الإعمار، والتزود بالخدمات بعد عقد من الزمن من الحرمان والتشريد وهلاك الزرع والنسل. ولأن الأمر أشبه بلعبة الدومينو، فكلّما زاد ضغط الأهالي على الحركات، زاد ضغط قادة الحركات على فريق الهلال الأحمر والمؤسسات الخيرية القطرية الأخرى التي تشارك في دعم المبادرة حتى يُدخِلوا قراهم سريعا في مشروع بناء السلام. فالحركات المتمردة تسعى لكسب مصداقية سياسية لدى أنصارها وحصد نتائج اجتماعية من الاتفاقية. والسياسيون الذين وقّعوا على الاتفاقية يحتاجون ليثبتوا لأنصارهم أن التوقيع على الاتفاقية والانحياز للسلام أتى بنتائج جيدة. ونتج عن ذلك أنّ كل قائد حركة سياسية صار يضغط على مديري الهيئات القطرية الخيرية العاملة في الميدان، بحكم أن دولة «قطر» هي الراعية للاتفاقية، والحريصة على نجاحها. والهيئات الخيرية القطرية بالطبع على تواصل مع الحكومة القطرية والحكومة السودانية في الخرطوم. وكما قلت لك سابقا أن إقليم «غرب دار فور» إقليمٌ واسع، وكل مناطقه حريصةٌ جدا على أن تستفيدَ من مساعدات تعمير القرى المنكوبة. وهكذا أصبحَتْ عملية توقيع «اتفاقية السلام» والبدء في التنمية تمثل نقطة انقسامٍ وبداية صراع جديدة – والحديث هنا للأستاذ نصر الدين – إذا لم يتوافق الجميع على وضع معايير مُقنعة يرضى بها كل الشركاء والأهالي وزعماء الحركات والقادة السياسيون الموقعون على الاتفاقية. وإذا أعطيتَ قريةً أو حركةً دون الأخرى الأولوية في التعمير وبناء السلام، فمن الممكن أن تنسحبَ الحركات الأخرى من الاتفاقية. وقد تشكّلُ أزمة للاتفاقية وتهدد مستقبلها، وتتّهِمُ القائمين بعدم الشفافية ومحاباة قبيلة على أخرى أو قرية على أخرى، خاصةً إذا علمَتْ أنه هناك قبائل من الرعاة العرب أو المزارعين الإفريقيين.»

هذا الأمر يجعلك تدرك كيف كانت عملية إدارة توزيع المساعدات، واختيار القرى، عملية مركبة وشديدة التعقيد، ما لم تعالج بقدر من الحكمة والخبرة، وبوضع معايير شفافة تضمن سير المشروع بجدية وبنزاهة.

حل مشكلة اختيار القرى

كنت منتبها للغاية لحديث «نصر الدين». بعدها، بادرته قائلا في حماسة شديدة، أملا في الاستماع لبقية الحكاية، عن الكيفية التي توصلوا بها لحل المعضلة السابقة: «إذا ماذا فعلتم؟ وكيف عالجتم هذه المشكلة؟»

سكت نصر الدين لبرهة، وسرح للحظات. ثم ابتسم ابتسامة قصيرة، تخيلت حينها أنه يتذكر الخطوات الأولى في المشروع، ثم عقّب قائلا: «عقدنا اجتماعات تشاورية متكررة؛ أولا، مع مديري الهيئات القطرية المساندة للاتفاقية والمشاركة في إعادة إعمار القرى، للتفكير في حل جذري للمشكلة. وبالفعل، في يوم الاثنين بتاريخ ٢٢ / ٦ / ٢٠١٥ كان اجتماعنا الثالث والحاسم. إذ جمعنا كل رؤساء ومدراء المؤسسات والمنظمات القطرية العاملة في مشروعات تنمية «دارفور» في مكتب «الهلال الأحمر القطري» الموجود في الخرطوم. وتناول النقاش عمل ورشات عمل من أجل وضع معايير شفافة تحكم قواعد اختيار القرى التي تستحق التعمير ودخول مشاريع بناء السلام.» وقد حضر هذا الاجتماع المهم أربعة أفراد، هم الأستاذ نصر الدين من الهلال الأحمر القطري، والأستاذ حسين كرماش من جمعية قطر الخيرية، والأستاذ مجاد محمد منصور من مؤسسة عيد الخيرية، والطيب عبد العظيم الطيب مسؤول مكتب «الفاشر» لمنظمة «راف» بـالسودان.

وسبب اختيار هؤلاء الأشخاص تحديدا، أنهم جميعًا قدموا من جمعيات لها سابق خبرة في العمل بغرب دار فور. وبالفعل تم الاتفاق خلال هذا الاجتماع على

قائمة معايير محددة سوف تراعيها المؤسسات القطرية عندما تشرع في عملها بهذه المنطقة. تمثلت هذه المعايير أو البنود في الآتي: **أولا**، أن يتوفر في القرية الأمن الدائم، وتكون مؤشرات استدامته عالية، وتكون القرية أو المنطقة موقعة على اتفاقية السلام. **وثانيا**، توفر الوصول الآمن للقرية، وهي نقطة إجرائية شديدة الأهمية، فربما نختار منطقة آمنة، ولكن الوصول لها غير متاح بسهولة، وتحتوي على طرق بها مخاطر تهدد حياة العاملين بالمشروع بالخطر، مثل وجود حركات تمرد غير موقعة على الاتفاقية أو حقول ألغام لم يتم تطهيرها بعد. وبدا من حديث نصر الدين في النقطتين الأولى والثانية، حرص القائمين على المشروع من توفّر قدر كبير من الأمان يسمح للمشروع بأن يستمر، وتوفّر مسارات آمنة تسمح بدخول المؤن ومواد البناء والتعمير والمساعدات، ثم، وهو الأهم هنا، توفر بيئة عمل آمنة تسمح للعاملين أن لا يشعروا بأي خطر يهدد حياتهم. بدون النقطة الأخيرة بالذات، لا يمكن استمرار أي مشروع.

ثم تطرق «نصر الدين» إلى بقية المحاور، حيث اتفق الفريق على **بند ثالث**. والحقيقة أني لما سمعته منه أدركت مدى الفطنة التي تحلى بها القائمون على المشروع. فالبند اشترط كي تدخل القرية في مشروع «الوئام والسلام» أن «**يكون النسيج الاجتماعي بالمنطقة قابلا للعمل في أوساطها**»، بمعنى أنه من الممكن أن تكون القرية أو المنطقة قد وقعت بالفعل على «اتفاقية السلام»، لكن القبائل المحلية فيها مازالت متصارعة ومتحاربة، أو لا تزال مقتنعة بخيار العنف، ويستبطن بعضها الانتقام من البعض الآخر. وهذا أمر لا يُصعّب العمل الميداني الإنساني وحسب، وإنما يهدد بنسف السلام من أصله. وكان هذا المحور عامل حسم لاحقا في تهدئة الصراعات المتبقية، أو أعمال الثأر التي كانت لا تزال باقية عند بعض القبائل، أو بعض أفرادها، وهو ما سيتم شرحه لاحقا.

أسهب «نصر الدين» بعدها في شرح بقية بنود المعايير التي سيتم اختيار القرى

المستهدفة من المشروع، فتحدث عن البند الرابع الذي أعطى أولوية لوجود كثافةٍ سكانيةٍ معتبرةٍ بالقرية، بحيث يتم الاستفادة من الخدمات. والحد الأدنى للسكان للتواجد السُكاني المُعتبر به في القرية هو 15 **ألف نسمة**، فمن الممكن أن نجد مدينةً أو منطقةً مستحقة، ولكنها تحوى عددا قليلا من السكان قد لا يحتاجون مستشفى بل يحتاجون إلى عيادةٍ طيبة صغيرة، أو فصلٍ دراسي لا مدرسة، فالحد الأدنى لقبول أي مدينة أو قرية تدخل مشروع «الإعمار وبناء السلام» أن تحوي حدا أدنى من الكثافة السكانية لا يقل عن 15 ألف نسمة.

وكان **البند الخامس** هو أن يكون غالبية المستفيدين من المتضررين من النزاعات، أي أنّ المدن التي لم تتضرّر من النزاعات، ولم تشارك فيها على الأقل بشكلٍ مباشر، ولم يحصل فيها خسارة كبيرة على مستوى الأفراد والمنشآت سيتأخر دخولها في برامج السلام، من أجل سرعة تقديم المساعدات للقرى الأشد تضررا واحتياجا.

ثم تطرق نصر الدين **للبند السادس**، وهو احتياج القرية أو المنطقة للخدمات الأساسية بشكل عاجل، أما إذا كان بها مستشفى ومخفر للشرطة يعمل ودار للأيتام، فهذه القرية سيأتي دخولها في برامج الإعمار لاحقا بعد الانتهاء من تعمير القرى المنكوبة والتي تنعدم بها الخدمات بشكل كامل. **البند السابع**، وهو بند سعى فيه القائمون على المشروع للتأكد من وجود مشروعية قانونية لا تعيق عملهم لاحقا، حيث اشترط هذا البند امتلاك أهالي القرية أوراقا ووثائقا تثبت ملكيتهم للأراضي التي سوف تقام عليها الخدمات المقترحة مثل المستشفى أو المسجد أو المدارس إلخ، بمعنى آخر، أنه يجب أن يتم التأكد من أنّ هذه القرى بها مساحات ملكية عامة من المباني أو الأراضي يصلح البناء عليها، أو استخدامها لاحقا كمرفق من مرافق المشروع التي تخدم أهالي القرية أو المنطقة، وهذه الأراضي ليس عليها نزاع مع السلطة المحلية أو القبائل الموجودة، وكلما كانت القرية المستهدف دخولها

بالمشروع وإعادة إعمارها تملك وثائق ملكية للأراضي، كلما كانت في أعلى قائمة القرى المُرشحة للإعمار والبناء والسلام. أخيرا تحدث نصر الدين عن **البند الثامن** والأخير، وهو الخاص باستعداد المجتمع المحّلي والسلطات المحلية في القرية للتعاون من أجل نجاح المشروع، أي أن تكون الحركة الموقعة للاتفاقية أو السلطة الإقليمية أو المعتمدة التابعة للحكومة في هذه المنطقة، مرحّبة بالعمل وإلا سندخل في الصراع مع الفقر وصراع مع الأهالي الموجودين في هذه المنطقة.

معايير اختيار القرى

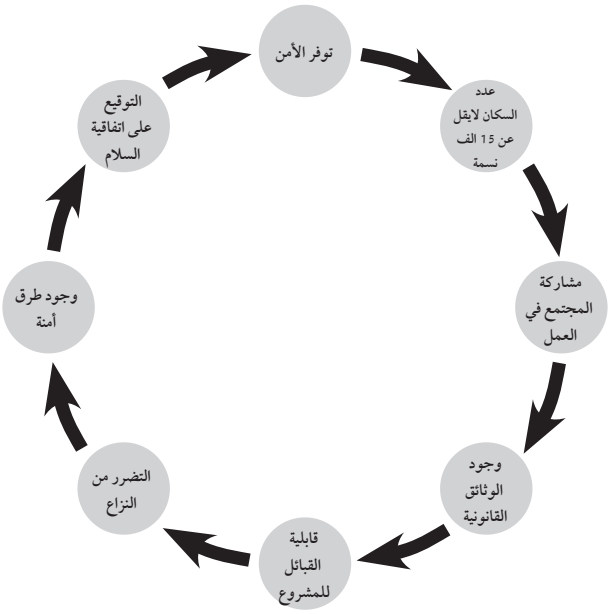

دور القادة المحليين

كنت أستمع إلى نصر الدين بشغف، وفجأة وبعد أن انتهى من حديثه عن البنود، ابتسم لي وهو يقول: «يبدو أن لديك سؤالا لي؟» ضحكت بصوتٍ عالٍ، ثم اقتربت

منه وأنا أشير للخارطة الموجودة أمامي على الطاولة: «بالطبع لدي سؤال، لقد ذكرت في حديثك أربع مؤسسات وضعت بنود اختيار المناطق للدخول الاتفاقية، فماذا عن زعماء القبائل والمناطق، أين موقعهم من هذه المعايير؟ أنا مستغرب قليلا، فمن وضع هذه المعايير هي مؤسسات غريبة عن المنطقة في النهاية، كيف يتم وضع بنود تخص أهالي منطقة بدون الرجوع إلى من يدير شؤونهم.»

هنا أوضح نصر الدين أن هذه المعايير قد وضعت بالتشاور مع الحركات الموقعة لاتفاقية السلام أي تم الاتفاق وقدمت من «الفريق القطري» ثم للحركات التي ستستفيد من هذه الخدمة لكي يكون هناك اتفاق واضح يوافق عليه من الجميع، وبالتالي ساهمت عملية إشراك قادة المجتمع المحلي في اتخاذ القرار وفق معايير شفافة سهّلت لاحقا عملية الإعمار ذاتها. فالحركات وقادة القبائل عبر إشراكهم في النقاشات الخاصة بالمعايير أصبحت هي التي تطبّقها على القرى الواقعة تحت نفوذها وسيطرتها. كما ساعدونا أيضا في إعداد قوائم القرى الأولية المُرشحة للتعمير قبل رفعها إلى الهيئات الخيرية القطرية.

أردف نصر الدين شرحا مهما خاصا بالنقطة الأخيرة، قائلا: «الأمر سار بشكل براجماتي للغاية، زعماء القبائل والمناطق حينما وضعوا معنا المعايير للقرى المؤهلة للدخول في المشروع، قاموا بتسهيل التنفيذ لأن عدم وجود قرى مؤهلة أو لا تحمل الصفات المطلوبة، كان معناه بالضرورة استبعاد هذه القرية من خير كبير سيأتي لها ولأهلها، هذا الأمر ألقى على الأهالي مهمة الحرص على الأمن واستقراره؛ لأنهم علموا أنه لن تُقبل أي قرية في مشاريع الإعمار إلا إذا كان فيها تعاون وتناغم بين القبائل القائمة فيها، وتوفر للحد الأدنى من الأمن والطرق الآمنة للوصول إليها والخروج منها، لذلك أصبحت القرى تتنافس في تحقق المعايير و تستجيبَ لها لكي تأخذ دورها في البرنامج المرصود للتنمية.»

لقرابة الساعة ونصف كنت أدون وراء «نصر الدين» خلاصة تجربة رائعة بلورت عدة دروس مهمة عن كيفية وضع معايير لاختيار مناطق عن غيرها كي تدعم إنسانيا وإغاثيا. كذلك أعطتني التجربة السابقة تأكيدا عن أهمية إشراك القيادات المجتمعية والمحلية في إدارة مشاريع ترتبط بمناطقهم ومجتمعاتهم، وهو الأمر الذي يعزز نجاح أي مشروع مجتمعي أو خدمي أو حتى سياسي بشكل كبير.

ساهمت هذه الإدارة الذكية -بدون الحاجة لاستخدام ضغوط تقليدية-في جعل الحركات وزعماء القبائل المحليين حريصين تماما على توفير الشروط المطلوبة من كل قرية أو منطقة، وتحقيق القدر الأعلى من الأمن والسلام وتحقيق السلم الاجتماعي، حتى تكون قراهم مؤهلة وقابلة للدخول تحت مظلة مشروع الإعمار والسلام.

المعايير الثمانية

قبل انصرافي عرفت من الحديث مع الأستاذين «نصر الدين» و«محمد جمال» نقطة هامة للغاية ساعدت بشكل كبير تسيير الأمور في المشروع، وهي أنهم أضافوا شق العمل الميداني، ولم يكتفوا بالبيانات التي يقدمها من خلال قادة الحركات المحلية وزعماء القبائل عن القرى. فقام القائمون على المشروع بتأسيس فريقَ مسح ميداني للقرى المراد تعميرها، وهذا الفريق يتحرك ويجوب القرى المقترحة للتأكد من وجود المعايير المطلوبة سواء من حيث وجود الحد الأدنى لعدد السكان المستهدف، أو توافر الحد الأدنى للخدمات، ووجود الأمن والسلام في القرية.

وبالفعل بدأ فريق الاستطلاع والمسح بإخراج منتج نهائي ساعد على حسم القرارات المتعلقة بالاختيار بين القرى، فقاموا على سبيل المثال بوضع صور استبيان عن الطرق، كما قاموا بكتابة تقارير تتحدث عن توفر الأمن في مناطق بعينها من

عدمه، كما قدموا تقارير أنثربولوجية وديمغرافية عن توزيعات السكان وعدد أفرادها، وهل هو مجتمع مستقر أم مجتمع رُحّل أم شبه رُحّل، إلخ.

وفعلا من خلال الأوراق والوثائق التي تحصلت عليها – وأشكر كل من ساعدني على توفيرها، حيث ساعدتني بشكل كبير للغاية في فهم المشروع – أدركت أنه تم عمل مسح لكل القرى، بشكل شفاف ونزيه، ومن خلال مشاركة الأهالي تم حصر الأصول الموجودة في كل قرية، وتدوين أصولها، وكذلك وضع بيانات عن مصادر الآبار وعدد القطعان الماشية، وطبيعة النازحين واللاجئين الموجودين فيها.

استطاعت قرى أن تحقق المعايير المطلوبة، وأخرى لم تستطع أن تنجح في تحقيق كل البنود، فطُلِب من قادتها تحقيق الأجندة المطلوبة قدر الإمكان حتى يتم إلحاقهم سريعا في مشروع الإعمار.

تركت نصر الدين ليستريح، ولكنه قبل أن يُودّعني تركني في استراحة أحببت طابعها المعماري للغاية، توقع أن أنام، لكن الحقيقة أن التجربة الثرية التي حكاها لي جعلتني أكثر شغفا وإقبالا على توثيق التجربة، ومشاهدتها عن قرب، ثم فتحت كشكول الملاحظات مرة أخرى، لأعيد كتابة بعض الملاحظات، وتلخيصها.

العودة إلى فندق

أخيرا، وبعد انتهاء قصة المعايير يكون قد حان وقت مصاحبة ومرافقة العم الطيب «آدم صابون» للعودة إلى فندقنا العزيز على النيل الأزرق لنبدأ في تكرار سيناريو الأمس، وهو انتظار جرس الهاتف القادم من مقر بعثة الهلال بالخرطوم لمعرفة أحوال التصريح الأمني المنشود. هل خرجت الموافقة، أم مازال الأمر تحت المداولة والنقاش في الدوائر الحكومية، أم حصل الرفض!

وفعلا عدْتُ مع صديقنا العزيز «آدم صابون» ونحن في الطريق اختار أن يعود

بنا إلى الفندق من طريق غير الطريق الذي ذهبنا من باب التغيير، وإتاحة الفرصة أمامي لمشاهدة بعض المعالم المعمارية الموجودة في «الخرطوم»، فأوقفني أمام بيت «الريِّ المصري» وهو مقرّ كان يستخدمه المهندسون المصريون للإشراف على مشاريع الريِّ الموجودة في السودان، و دخل بي منطقة تسمى «السوق العربي» في العاصمة الخرطوم، وأشار إليّ ونحن فيها إلى مئذنة مسجد مرتفعة عالية، مبنية بطراز رفيع، ذكرني بمآذن القاهرة القديمة، أو قاهرة الفسطاط فقال لي: «هذا مسجد الملك فاروق.» فقلت له: «أي فاروق تقصد؟» فقال لي مبتسما: «أهناك غيره يا رجل، الملك فاروق حاكم مصر والسودان سابقا.» فسعدت جدا لحديث آدم عن مصر، وعن العلاقة التي كانت تجمع بين مصر والسودان كدولة واحدة يوما ما، صورة عديدة من تلك الفترة تداعت إلى ذاكرتي أثناء حديث آدم عن فاروق والسودان ومصر، أخيرا، وصلنا إلى الفندق، فدخلت وتناولت العشاءَ سريعا، وذهبتُ إلى غرفتي، وبدأت في النوم منتظرا بإذن الله إشراقةَ شمسٍ جديدةٍ مع خبرة واستفادة تالية.

اليوم الرابع في «الخرطوم»

«مايزال لدينا خيار اليوم: إما التعايش السلمي، أو إفناء بعضنا بعضا بشكل عنيف. علينا أن نغير ترددنا في الماضي إلى فعل.»

(القس الأمريكي وأبرز رموز حركة التحرر ضد العنصرية مارتن لوثر كينج)

لم أنم بسبب قلقي كعادة بعض البشر عندما يغيرون أماكن نومهم، وأقلقتني فكرة التفكير في مسألة الموافقة على سفري لغرب دارفور، والأهم أقلقني التفكير في المهمة ونجاحها. استيقظتُ في اليوم الرابع في الخرطوم مبكرا قبل آذان الفجر بنصف ساعة حسب التوقيت المحلي للخرطوم، وقررت الذهاب إلى صلاة الفجر خارج الفندق في أي مسجد قريب من الفندق؛ فتوضأت ونزلت إلى استقبال الفندق

لسؤالهم عن أقرب مسجد بجوارهم يمكنني الصلاة فيه، كنت أود أن أتمشى قليلا لأفكر بعيدا عن هواجس القلق التي داهمتني، أن أتنشق أيضا من هواء الخرطوم في نسمات الصباح الأولى، منيّت نفسي كذلك بالاقتراب أكثر من وجوه الناس، خارج دائرة الفنادق، وصالات الاجتماع، أحببت ما جرى في السوق، وجلستي مع آدم في «نصبة الشاي» فأحببت تكرار الأمر.

في قريتي، كان يسعدني للغاية رؤية الناس الذاهبين لأعمالهم، والطلاب السائرين لمدراسهم زُمرا وفرادى بزيهم المدرسي المُنمق والبسيط، كما كان يسعدني مراقبة تجمعات الباعة الجائلين، وهم يعدون بضاعتهم قبل الانطلاق بين الناس في الأسواق.

فمن أسعد من بائع متجول يصلي الفجر في المسجد؟ ثم يخرج مسرعا نحو بضاعته بحماس وأمل، ويرفع يده إلى السماء في خشوع ورجاء، سائلا المولى واسع الرزق والبركة. فمن أجل هذا اللقطات الجميلة ربما أظل أطوف في الشوارع والأزقة ساعات وساعات. ذهبتُ إلى صلاة الفجر في المسجد القريب من الفندق، الذي أرشدني إليه موظف الاستقبال، ثم بعد الصلاة بدأت في أخذ جولة في المكان، فوجدتُ مبنىً كبيرا وضخما على أحد الشوارع الرئيسة في المكان، ولما سألت عنه قالوا أنه مبنى الصداقة الصينية السودانية، وأنه بُني بمنحتين ماليتين من الصين من الحكومة الصينية من أجل دعمها في عملية استخراج البترول من جنوب السودان، بعد ما خرجت الشركات الأمريكية من السودان تنفيذا للعقوبات الأمريكية المفروضة على السودان.

الصين تطأ بقدميها الأماكن التي يخرج منها الأمريكان والأوروبيون، الصينيون يضعون اليوم درهما، ليكسبوا غدا دينارا، وسائل متنوعة للاستثمار، واستغلال ثروات البلاد التي لا تجيد إدارة ثرواتها بشكل جيد، بالتفاوض تارة، وبالقوة الناعمة

تارة أخرى؛ يأتي الصينيون إلى بلداننا عبر آلاف الكيلومترات، وعلى بعد مئات الكيلومترات أشخاص من نفس اللون والبشرة والعرق والدين في احتياج للتشارك أو تطوير هذه الثروات، لكن العاجز عالة، أينما توجهه لا يأتِ بخير.

الخبير الياباني وسلطان الكراهية

انتهيت من غرض مشيي، وقرابة الساعة الثامنة صباحا عدتُ إلى الفندق، لكي أتناول الإفطار في الفندق، وأثناء تناولي لوجبه الإفطار لفتَ انتباهي أن هناك شخصا يجلس على الطاولة المُقابلة لي، يحمل ملامح شرق آسيا، خمنت أنه قد يكون صينيا على الأرجح، لأن للصينيين كما ذكرت مشاريع استثمارية في نواح عديدة بالسودان وإفريقيا، كما خمنت أيضا أنه نزيل جديد في الفندق لأن معظم الذين شاهدتهم سابقا في باحة الفندق كانوا من أقاليم السودان الواسعة الذين جاؤوا طلبا للعلاج والدواء، فالسودان دولة مترامية الأطراف، والخدمات الصحية الكبيرة فيها إذا توفرت بها تكون غالبا في العاصمة الخرطوم، ومن ثم يأتي الناس للعلاج بالخرطوم من كل الأطراف فيها، كان واضحا جدا غرابة منظر وجود شخص يحمل هذه الملامح الآسيوية البارزة وسط هذه الملامح السودانية الخالصة التي تملأ المكان، انتهيت من تناول الإفطار، وبدأت أشعر بغربة الشخص الآسيوي عن المكان، لعله يشعر فعلا بالوحدة والغربة، ولا يجد من يحادثه، غربة مضاعفة، غربة الوجه واللسان، حينها قلت في نفسي هذه فرصة للتعارف والتواصل، طالما أنني مقيم في الفندق كالأسير الذي ينتظر صفقة للإفراج عنه، فلماذا لا أجعل وقت إقامتي أكثر فائدة، فاقتربت منه، وألقيتُ عليه تحية الصباح، فبادلني التحية، وطلبتُ منه الإذن بالجلوس فوافق مشكورا، وأومأ برأسه بالموافقة، وعرفني على نفسه، واتضح أنه ليس صينيا، بل يابانيا من طوكيو، وأنه خبير زراعي جاء إلى الخرطوم للاطلاع على البحوث الزراعية، وتطور الزراعة فيها، ونقل بعض الخبرات وتبادلها ما بين السودان واليابان، فاستغربت من مهمته فعلى الرغم

من تقدم اليابان في التكنولوجيا والزراعة والصناعة، لكن الرجل يتكلم ويبحث عن ما يمكن الاستفادة منه من محاصيل أو طرق زراعة يمارسها أهل السودان من أجل تطوير الزراعة في اليابان، أي طرق حديثة في الزراعة أتى اليابانيون لتعلمها هنا في آخر الدنيا، لذلك قلت له ماذا تقصد تحديدا بكونك جاءت متعلما هنا في الخرطوم؟ فقال: جئت للتعرف على الخريطة الزراعية للمحاصيل في «السودان» وفق شراكة بين وزارة الزراعة السودانية و وزارة التجارة والصناعة والاستثمار في «اليابان»، إذا أطلقت طوكيو مبادرة اقتصادية جديدة وخاصة بقارة إفريقيا، قائمة على أن أي قرية في «إفريقيا» لها منتج محلي محدد تتميز به، أو صناعة تقليدية ما، وتحتاج إلى دعم فـني وتقني لرفع كفاءتها في إنتاج وتسويق هذا المنتج، ستقوم الحكومة اليابانية بتقديم الدعم لها، في مقابل أن يكون لها الحق في توزيع منتجات هذه القرى في العالم، فاليابان أنشأت هذه المبادرة لكل القرى في إفريقيا، وتشمل كل منتجات القرى صناعات تقليدية كانت، أو منتجات محلية من منتجات الزراعة، أو الأشغال اليدوية وغيرها، ثم تابع الضيف الياباني شرح المبادرة قائلا: لو وجدنا قرية مشهورة بإنتاج عسل النحل الطبيعي، أو مشهورة بإنتاج نبتة معينة، أو زهرة محددة، فليس لدينا مانع من الشراكة معهم في تسويق بضاعتهم عالميا! وقد زاد من دهشتي أنه أخبرني أنهم قد بدأوا مع بعض القرى الإفريقية والقبائل تعاونا وشراكة في مجال الطب الشعبي؛ إذ أخذوا بعض الوصفات العلاجية المُتبعة في بعض القبائل والتي لها نتائج جيدة على المرضى، وقاموا بدراستها واختبارها، ثم حولوها لمنتج دوائي حديث قابل للتداول في المجال الطبي. طبعا تستفيد الدولة الإفريقية من الحصول على هذا المنتج في صورته النهائية، وجزء كبير من الأرباح، مقابل أن تحصل اليابان على جزء من الملكية الفكرية لهذه المنتجات. وبعدما شرح لي مهمته التي بدت لي ملهمة وواعدة، ولما وجدت منه انفتاحا ورغبة في الحديث معي بأريحيه وتدفق فاستأذنتُ منه كي أسأل سؤالا آخر مهما بالنسبة لي، ومرتبطا بمجال عملي ودراستي

(إدارة الصراع، وفض النزاعات)، كنت أحاول حقيقة أن أستفيد من خبرة التجربة اليابانية المرتبطة بإعادة بناء الدولة، وتفكيك حالة الاحتقان والتوتر التي تلت الحرب العالمية الثانية، فاليابان كانت إمبراطورية مُقاتلة وشرسة قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية، وخاضت حروبا ضخمةً في جنوب شرق آسيا، فاحتلت ماليزيا، وأجزاء من كوريا، و جزءا كبيرا من الصين، وقامت بمذابح بشعة جدا في مدن صينية في منتصف ثلاثينيات القرن الماضي، ولا يزال كثير من الصينيين يكرهون اليابان الآن بسبب المذابح التي ارتكبها الجيش الياباني في حق السكان الصينيين في الحرب، لكن بعد تعرض اليابان للهزيمة إثر سقوط قنبلتين ذريتين على مدينتي «هيروشيما» و«ناجازاكي»، بدأت اليابان بمساعدة أمريكية بالخصوص، ومساعدات غربية أخرى في تحويل مسارها إلى بلد شبه محايد سياسيا، من جهة، وبلد متقدم للغاية صناعيا وتقنيا، لذا استغللت وجود الرجل لأسأله: «كيف تجاوزتم كل تلك الكراهية التي وضعها الحزب القومي الياباني قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية؟ وكيف تجاوزتم مسألة الانتقام من الولايات المتحدة الأمريكية التي قتلت مئات الآلاف في هيروشيما وناجازاكي؟ لقد سقط من هاتين المدينتين في أيام ما يسقط من استعمار كامل لدولة محتلة في عشرات الأعوام، وربما أزيد. إذ هناك دول أخرى لم يتعرض لها الأمريكيون بالإهانة والقسوة، مثل ما حدث في اليابان لكنها مازالت تنتقم من الأمريكان وتستهدف مصالحهم الاقتصادية، وسفاراتهم في نواحي عديدة بالعالم؟ فلماذا لم يسع الشعب الياباني للانتقام؟»

وبعد طرحي لهذه المجموعة من الأسئلة، مؤملا منه في التعرف على تجربة تجاوز اليابان لأكبر أزمة في تاريخها الحديث، وربما حتى في تاريخها كلها، أزمة تمثلت في مجموعة معاتيه مستبدين قادوها إلى الهلاك، وأودوا بحياة مئات الآلاف من الشعوب المجاورة للموت، وساهموا في قتل ما يربو عن المليون من شعبهم بعناد حاد، حتى استيقظوا يوما ما ومدينتان كبيرتان مصهورتان بفعل قنبلتين نوويتين،

روح كراهية كانت تسري في الأمة اليابانية، وجو يبعث على العداء والانتقام، ودم مئات الآلاف من الضحايا ينتظر «الثأر»، ينتظر أن تدخل اليابان في عدة حروب ضروس صغيرة أخرى، لكن الغريب وفق السردية العامة للصراع أنها لم تدخل هذه الملحمة العنيفة، أنها أدركت كما قال لي الخبير الياباني أنهم -أي اليابانيون ومن تبقى من قادتهم العقلاء حينها- أن الدم سيتولد عنه دم أكثر، وأن الكراهية باب مفتوح للاستنزاف والقتل والهلاك ودمار الحرب والنسل، ثم فوجئت أن الرجل يتواضع بتجربتهم الكبيرة في نظرنا، معتبرا إياها ليست سابقة، وإنما هناك من فعلوا مثلهم قائلا بهدوء بالغ : «لسنا وحدنا من قرر أن يتجه إلى المستقبل، ويصنع السلام بعيدا عن الحرب، وإنما هناك أمم أفضل منا فعلت ذلك مثل فيتنام!»

صراحة إجابته هذه كانت صدمة بالنسبة لي، فعلى الرغم من انبهار العالم بالتجربة اليابانية، إلا أن الرجل يعتبر ما قامت به اليابان ليس جديدا ولا غريبا وإنما هناك أُناس أخرون قاموا به! فقلت في نفسي دعني أجعله يكمل قصته، يبدو اليوم هو يوم الدرس الياباني الذي لا ينتهي، وأن ما سأتحصل عليه من الرجل ربما لا أجده في بطون الكتب.

قلت له: «طيب وماذا فعلت فيتنام؟» فقال: «فيتنام تعرضت إلى العدوان الفرنسي والأمريكي، وفقدت ثلاثة مليون شهيد، ودُمِرت تماما، ولو رأيتها في أفلام الحرب، ستجد دولة مليئة بالمستنقعات، تحكمها العصابات، لا تمتلك أي بنية تحتية، غاباتها موحية بالقفر والخوف، لكن انظر إليها الآن، فيتنام الآن هي الرابعة عالميا في جودة مناهج التعليم، خاصة في مواد الرياضيات والعلوم، ونجحت في القضاء على الأمية، واقتصادها الأسرع نموا في العالم بعد الصين، فلسنا وحدنا من استطاع تجاوز مسألة الحرب والصراع مع العالم.»

إجابته هذه أذهلتني. ربما لأنها كانت مغموسة في التواضع المستفز، فهو لم

يبدأ خطابه بالتأكيد على عظمة الشعب الياباني وأنهم أحفاد جيش الساموراي، كما نتحدث نحن العرب عن تجربتنا أو بلادنا بلغة ممزوجة بخطاب وطني أقرب للشوفيني، ولكن الرجل بتواضع اعتبر التجربة اليابانية تجربة مثلها مثل تجارب أخرى من شعوب العالم قريبة منها، كفيتنام، أو بعيدة عنها كألمانيا، ولم يكونوا في ذلك بدعا من الأمم! فقلت له: «موافق يا سيدي أن لليابان تجربتها مثل تجارب دول أخرى، لكني أريد بعضا من التفاصيل لو تتكرم».

بمزيد من الكرم والتواضع، قام الرجل ونسيت أن أذكر اسمه حيث يدعى «ريويتشي» أن اليابان، وبعد الهزيمة في الحرب العالمية الثانية، وما شهدته من خسائر بشرية واقتصادية، قررت النخبة الثقافية والسياسية والعسكرية اليابانية تغيير فلسفتها ورؤيتها للعالم وللشأن الداخلي. فقلت له: «كيف؟» فأجاب: «أولا قررنا أن نتحرك مباشرة نحو تجاوز الماضي بعنفه وآلامه، ونتجه مباشرة للغد، وما يمكن أن نفعله للأجيال الجديدة ولأطفالنا، وأن لا نضيع الوقت بالتفكير في الانتقام ممن دمرونا، حقيقة عندما نظرنا للأمر بنظرة حيادية مدققة بدون تحيز، وجدنا أننا ساهمنا نحن أنفسنا أثناء الحرب في تدمير بلاد أخرى، وأن ما حدث جزء من أفعال قادتنا، بالطبع لن أقول أننا نستحق كارثتي هيروشيما وناجازاكي، لأنها أكبر بكثير مما يمكن تسميته رد الفعل أو الانتقام، ومات ناس أبرياء لم يشاركوا في الجرائم التي ارتكبها قادة الحرب، لكن الحرب كانت ضد الجميع، وطالت آثارها الجميع، وعلينا أن نتجاوزها وكفي! لذا فقد نقلنا غضبنا من صناعة المدافع إلى تصنيع الآلات والبضائع، فنحن لم ننسحب من المعركة، لكننا قررنا أن ندافع عن اليابان بشكل آخر، فبدلا من الغضب، والتورط في أعمال تدمر المستقبل والحاضر، نقلنا الغضب الياباني من العدوان الأمريكي علينا، إلى مضمار التنافس الحضاري في ساحات التنافس العلمي والتكنولوجي.

الأمر الثاني صديقي، كان تصوّرنا في اليابان قبل وأثناء الحرب، أننا بلد صغير وعدد سكانه ضخم؛ اعتقدنا- بفعل التأثر بأقوال وخطابات فاشية- أننا لن نستطيع العيش إلا بالاعتماد على موارد الآخرين، لذا حاولنا الاستيلاء على خيرات الدول الأخرى المجاورة، لكن تجربة الحرب علمتنا -ولو بعد فوات الأوان- أن هذه الاستراتيجية فاشلة وعقيمة.

بعد الحرب، انتهجنا مسارا آخر، يقوم على تنمية الثروات المحلية الموجودة بما يكفي الشعب الياباني. وقد ترافق هذا مع تغيير ثقافي جديد، وكان تغييرا راديكاليا في حينها. فقد قررنا تحويل الإمبراطور الحاكم من إله إلى نصف إله فقط! (قالها وهو يبتسم في وداعة) كان الأمر مهما للغاية، فقبل هذا القرار كان الإمبراطور طاعته واجبة، فهو إله، وليس فوقه شيء، لكن الآن الإمبراطور محل تقديس واحترام، لكن لدينا نظام ديمقراطي، يرأسه رئيس وزراء قراراته تخضع للتعديل والتصويب والنقض والنقد، وقد نتج عن هذا دخول النظام الديمقراطي في «اليابان» عبر وجود انتخابات، وبرلمان منتخب يُسائل الحكومة عن قراراتها، الديمقراطية عزيزي مصححة ومصوبة، شئنا أم أبينا، خسارة قصيرة مع الديمقراطية في بدايتها، خير من خير جم مع الاستبداد، لأن الاستبداد لا يصلح حالا، ولا يقيم مجتمعا صالحا، قد يقيم دولة قوية، لكنها قد تتأسس على أكتاف شعب خائف مرتعب، سيأتي يوم وينفجر هذا الشعب بحكم صيرورة التاريخ.»[1]

في خاطري صرخت: «يا للروعة، أي مقادير ألقت بك في طريقي، الرجل ليس خبيرا في الزراعة فقط، وإنما هو مثقف مُدرك لرؤية عمل بلده، وخطتها».

عقبت على حديثه قائلا: «كل ما تفضلت بذكره من إصلاحات وقرارات جاءت

(1) هزيمة الكراهية.. تجربة اليابان في الانحياز للمستقبل - http://www.tanaowa.org/site/?p=1438 16/10/2018

من أعلى السلطة، ومن قيادات النخب التي تقود البلاد حينها، وهذا ممتاز، لكن كيف اقتنع الشعب الياباني بهذه القرارات والإصلاحات؟».

فأجاب: «أبدا، الموضوع لم يكن بسيطا، لكن لم يكن مستحيلا، قمنا بتغيير المناهج الدراسية، وتمت كتابته على مسألة الدعوة للسلام، والتعايش المشترك، ونبذ العنف والكراهية، وتجاوز الآلام والجراحات التاريخية، وركزنا على قيم مثل إتقان العمل والقيم الوطنية، وبدأنا في تحويل مجال عمل قيم الساموراي من المجال العسكري إلى الفضاء المدني؛ بهدف تحويل اهتمامات الشباب الياباني نحو التنافس الحضاري، وعدم الدخول في دوامات من الانتقام والكراهية، حتى لا نكرر أخطاء الماضي.»

فور انتهاء ضيفي الياباني من عرض النقطة الأخيرة، جاءه اتصال على هاتفه الجوال، من ثم طلب مني الإذن لأن سائقه الذي سيحمله إلى إحدى الوزارات، قد وصل أمام الفندق، فشكرته على وقته وكرمه، وعلى ما تفضل به من معارف ومعلومات جعلت رغبتي تزداد أكثر في مطالعة التجربة اليابانية في تجاوز الصراع والكراهية بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، الأقدار تلعب معي لمرة ثانية، ها أنا ذا جالس في قلب إفريقيا على ضفاف النيل الأزرق، وفجأة أبحر في تجربة مختلفة تماما، هناك في شرق الأرض حيث اليابان، وطوكيو، وهيروشيما، وناجازاكي، حيث تعرفت على أهم تجارب التاريخ الإنساني الحديث المتجاوزة للعنف والكراهية، لم أكن أتوقعها سهلة جزلة، كما رأيتها هكذا من الخبير الزراعي الياباني، والأهم بكل تواضع وحكمة.

أي فارق بين التجربة الآسيوية والتجربة العربية-الإفريقية؟

«أسوأ فكرة خطرت للإنسان: أن يكون بطلا في الحرب، وهناك ألف مكان آخر

يمكن أن يكون فيها بطلا حقيقيا. أما ما أحلم به، فهو أن تكونوا أبطالا كلكم بعد هذا الحصار. فالبطولة في أن تبنوا بلادكم بأمان، وأن تزرعوا أشجاركم بأمان، وألا تخافوا على أطفالكم، لأنهم محاطون بالأمان. سيصبح كل رجل بطلا حين يتجول في الطرقات، كما شاء، دون أن يعترض طريقه أحد، أو ينال من كرامته أحد، أو يسرق قوت عياله أحد، أو يعبث بحياته أحد، أو يقيد حريته أحد. وتكون البطولة، حين تسير امرأة بمفردها فيهابها الجميع، لأنها بطلة على جانبيها أطياف مئات البطلات والأبطال. أريد شعبا كاملا من الأبطال، لا شعبا من الخائفين بين هذين البحرين: بحر الجليل وبحر عكا. البطولة الحقيقية في أن تكونوا آمنين إلى ذلك الحد الذي لا تحتاجون فيه لأي بطولة أخرى».

(إبراهيم نصر الله، قناديل ملك الجليل)

رغم عدم حصولي بعد على تصريح السفر إلى دارفور، لكني أعتبر حصاد اليوم الرابع وافرا للغاية، كأن الله عوضني عن التأخير، كأن القدر يسوق لي المعرفة حيثما حللت، لمجرد سعيي من الدوحة إلى هنا، وكأنني أسعى للتعلم من تجربة، فيسوق الله لي تجربة أخرى تماما، فوائد السفر والسعي لا تحصى.

ولكن هذا الحوار السريع والعميق مع صديقنا الياباني جعلني أنظر للتجربة العربية بشكل مختلف وبتصور جديد، فنحن العرب نشكو مع كل طلعة شمس من ظلم المؤامرات الأمريكية والغربية التي نعتبرها السبب في تخلفنا وفقرنا، وسوء حالة التنمية في دولنا العربية والإسلامية!

بالطبع «جزء» من الأزمة التي نعانيها في عالمنا العربي والأفريقي هي الحالة التي تركنا الاستعمار عليها، هي الموارد التي تم نهبها، والشعوب التي تم تجهيلها عمدا، لكن لن ننكر أن هذه الأزمة حدثت منذ عقود، وأن هناك دولا تجاوزتها، وأن هناك دولا لم يتم استعمارها من الأساس، أو تم استعمارها واحتلالها من أجل مكانها

الجغرافي، حيث لم تكن مواردها ظهرت بعد-كبعض دول الخليج- لكن الأزمة الحقيقية هي في أمراض تم خلقها خلقا بأيدي هذه المجتمعات، أو ساهمت على الأقل في تكريسها، كأمراض الاستبداد والجهل والطائفية، بمعنى أين عراق اليوم من عراق الثمانينيات؟ وأين ليبيا اليوم من ليبيا التسعينيات؟ وما هي مقدرات دول أوروبية متوسطة بمقدرات دول مثل المملكة العربية السعودية مثلا؟

لا أنكر أن العالم العربي هو أيضا تعرض لظلم فادح من خلال الاحتلال البرتغالي والفرنسي والإنجليزي والأمريكي، والاحتلال الاستيطاني الإسرائيلي لفلسطين، وأيضا العالم العربي فقد الكثير من الضحايا في محاربته للاستعمار، ولكن للإنصاف والدقة حجم الضحايا العرب في مواجهة المحتل الخارجي يبدو متواضعا مقارنة بعدد الضحايا في «الفيتنام» أثناء الاحتلال الأمريكي، وعدد الضحايا في كوريا والصين أثناء العدوان الياباني عليهما، وهنا كان سؤالي لماذا تجاوزت شعوب الدنيا شرقا وغربا مرحلة الاستعمار، والحروب، وانتقلت إلى ساحة التنمية والتقدم والتسامح وظلت منطقتنا العربية عالقة في شباك التخلف والانقسام والكراهية ؟

دونت هذا السؤال على هاتفي الجوال حتى لا أنساه، وتحركت نحو غرفتي في الفندق لأخذ قسط من الراحة بعد هذه الجولة الطويلة في شوارع الخرطوم وباحات الفندق، ومازال شعار إقامتي في الخرطوم، هو التحلي بالصبر الجميل، انتظارا للتصريح الأمني المُرتقب الذي طال انتظاره من الجهات السودانية المختصة حتى يسمحوا لنا بالسفر إلى منطقة دارفور. فها هو اليوم الرابع قد انتصف، ولم أتلق أي خبر من نصر الدين مدير بعثة الهلال في الخرطوم، حول وصول التصريح من عدمه، فما كان منى إلا أنا بادرت واتصلت به، وسألته عن المستجدات في الموضوع، فقال لي: «للأسف الأمر أصبح مُعقدا، لأن اللواء الذي كنا ننسق معه سابقا في الجهة المسؤولة عن إصدار التصاريح قد تغير، واللواء الجديد المُعين مكانه معرفته بنا

وبعملنا في الهلال الأحمر متواضعة. لذلك سنحتاج لمزيد من الوقت حتى تتضح له الأمور ويوافق على إصدار التصريح!» فقلت له: «متى تتوقع أن يصدر التصريح؟» فقال: «من المؤكد ليس اليوم، ربما لو كنا محظوظين سيصدر التصريح نهاية يوم غد.» فقلت له: «خيرا إن شاء الله.» ونفسي يعتريها الإحباط وبعض الضيق بسبب بطء وثقل الإجراءات، ولكن ليس أمامي سبيل سوى الانتظار، وعدم التعجل في أخذ قرار إلغاء المهمة.

جلست في غرفتي أفكر في الوقت المتاح لي، وفي التصريح المرتقب، وفي ماذا يمكن أن أفعل حتى وقت الذهاب لغرب دارفور، هذا إن سُمِح لي بالذهاب أصلا.

قلت لنفسي لابد من اللجوء إلى سيناريو بديل يملأ الوقت بالنفع والفائدة، ففتحت هاتفي الجوال، وأخرجت السؤال الذي كنت قد دونته مسبقا حول المقارنة بين التجربة العربية والتجربة اليابانية في تجاوز الكراهية والاتجاه نحو البناء والتنمية، وقلت لنفسي لماذا لا أقوم بالبحث والدراسة عن هذا السؤال، قضيت حوالي ثماني ساعات كاملة في القراءة، وكل فترة يظهر في ذهني صورة هذا الصديق الياباني، وتجربة بلاده التي ألقاها عليّ، كنت ملما بشكل ما بتجارب آسيوية وغيرها، ومنها اليابانية، وتجاوز كل منها لظروف الحرب وأزماته، ودخولها في تجربة تعايش سلميّ، وكأني أقرأ عن التجربة اليابانية من جديد، من خلال المنظور الذي أعطاني إياه هذا الصديق الياباني الطيب، في النهاية وبعد بحث دؤوب، عرضت ما وصلت إليه في خطوط عريضة دونتها في دفتري على طاولة غرفتي بالفندق، وجدت أن النجاح الياباني والآسيوي بشكل عام في هذا الملف والفشل العربي الظاهر في ذات القضية (التنمية وتجاوز الماضي المؤلم) يرجع إلى ستة أمور هي :

1- النخب الآسيوية وخاصة اليابانية خيالها السياسي والفلسفي مُتقدم بمراحل كبيرة عن نظرائهم العرب؛ فمعظم النخب الآسيوية التي حاربت الاستعمار

الغربي في قارة آسيا، وانتصرت عليه كانت لديها رؤية وفلسفة واطلاع أكاديمي، وفلسفي كبير مُتصل بفروع العلوم الإنسانية والسياسية، وما يتصل بها من ثقافة دستورية وقانونية مثل القائد غاندي في الهند، والجنرال جياب في فيتنام وقادة الحزب الشيوعي في الصين، والزعيم نهرو الهندي إلخ، بينما معظم النخب العربية التي جاءت بعد انتهاء الاستعمار والاحتلال ذات خلفية عسكرية، لم تنل حظا من الانفتاح الثقافي والمعرفي، وإنما كانت تمتلك كما هائلا من الشجاعة والمغامرة، لكن رصيدها في صناعة الفلسفة والرؤية القومية التي تقدر على حشد طاقات الشعوب والمجتمع نحو التساند والبناء، وتجاوز أوجاع الماضي الاستعماري كان ضعيفا جدا؛ لذلك كان خطاب النخب العربية بعد الاستقلال قائما على فكرة تربص العدو الخارجي، والمؤامرات الغربية، واستمرار المعارك وليس تجاوزها.

2- النجاح الياباني والآسيوي في تجاوز تجربة الهزيمة والانكسار في الحروب والمعارك، كان مرده إلى قدرة النخبة والمجتمعات هناك على المراجعة، وتجاوز الأخطاء، والترحيب بالنقد والمراجعة، وهذا غير متوفر بدرجة كبيرة في الحالة العربية، سواء في السياق السياسي أو الثقافي.

3- النخب اليابانية والآسيوية لم تستسلم لواقع وألم الاستعمار الذي ألم بهم يوما، ولكنها نقلت ساحة التدافع والتنافس إلى ميادين أخرى، وهي التنافس الحضاري عبر العلم، ثم خطت خطوة أخرى إلى التصنيع، ثم إنتاج التكنولوجيا، ثم تطوير مناهج التعليم، بمعنى أنهم لم يخرجوا من المعركة مع الغرب، ولكنهم غيروا وسائل التدافع لتكون مفيدة لهم وللعالم، بمعنى أنهم فتحوا مسارات أخرى إيجابية للحشد القومي الداخلي. وهنا لم تقم النخب والقيادات السياسية العربية سوى بتبني لغة التدافع، ولغة السلاح، والحشد

الخطابي دونما إنجاز مشاريع تعليمية، أو فنية، أو ثقافية تقوم على التنافس الحضاري في مجالات العلم والاختراعات، وتحسن وضع المجتمع الصحي والاجتماعي.

4- تبنت المجتمعات الآسيوية الاستراتيجيات القائمة على فكرة التنافس الحضاري بجودة الإنتاج، وبذل العرق في المزارع والمصانع والمختبرات، عبر تغيير ثقافي عميق شمل الإصلاح الديني كما حدث في فيتنام، وتغيير المناهج التعليمية كما حكى لنا صديقنا في اليابان، بينما الحالة العربية اكتفت أحيانا بتغيير الخطاب السياسي، دونما بذل جهد في نشر ثقافة العمل، ونسيان الجراحات، والتواصل مع الشعوب الأخرى، والانفتاح على تجاربها في النهضة والتقدم.

5- أدركت الشعوب الآسيوية حجم الخسائر التي وقعت عليها بفعل السياسات الاستعمارية، التي انتهجتها يوما ما، (ضرب اليابان بالقنبلة الذرية على سبيل المثال). ومن هنا أدركت واقعيا نتائج تبني الأفكار القاتلة القائمة على الكراهية والبغضاء، فقررت ألا تكرر أخطاءها مرة أخرى. فهل تواضع التضحيات العربية مقارنة بالحالة اليابانية والفيتنامية يقف عائقا أمام تكرار نفس التجربة؟

6- النخب الآسيوية واليابانية عرفت الفرق الواضح ما بين فكرة الانتصار ومبدأ الانتقام؛ فالانتقام من الجاني أو من الجلاد ربما يساوي في بعض المراحل تبني خيار شمشون وهو هدم المعبد على الجميع، لكن الانتصار يعني تحقيق النصر والتقدم حتى لو لم أنتقم من خصومي؛ إذ هدف المنتصر ليس تحطيم الخصم، وإنما استغلاله ومنع ظلمه وعدوانه فقط وتحويله من عدو إلى صديق أو حليف، ولكن يبدو أن الكثير من نخبنا العربية يسعى إلى انتقام، لا

الانتصار في معاركنا الداخلية والخارجية. فنحن نريد لمجتمعاتنا أن تنتصر ولا نريدها أن تنتقم، نريدها أن تنتصر بمعدلات التنمية، بالتعليم، وبوجود منظومة أمن قومي قوية، ووجود حريات وشعور الناس بالكرامة والمساواة أننا نريد أن ننتصر على الخصم لا أن انتقم منهم.

وبعد انتهائي من تدوين هذه النقاط الست ومع حلول الليل، قفز في ذهني مرة أخرى وجه الخبير الزراعي الياباني، الذي فتح لي صفحة التعرف على تجربة مهمة للغاية في تجاوز آلام الماضي ومحنه، في محاولة لبناء مجتمعات أكثر استقرارا وآمنا.

اليوم الخامس في الخرطوم

المثابرة تغلب الذكاء، والصبر يغلب الحظ. والعبرة دائمًا بالنتيجة.

(أنيس منصور).

تتوالى الساعات تلو الساعات، والقلق يضغطني في انتظار التصريح الأمني الذي أصبح بمثابة الروح لجسد المهمة، فلو لم نحصل عليه لتحولت جهودنا التي ادّخرناها للرحلة إلى لا شيء تقريبا؛ كيف يمكن تقييم مشروع ما بدون رؤيته على الأرض؟ سأرجع الدوحة كما جئت، خالي الوفاض. لذا استقبلت يومي الخامس وأنا يحدوني الأمل أن تُيسّر الأمور، وأن يأتي الفرج وتتجلى لي علامة التوفيق، التي جعلت مؤشرها الحصول على الموافقة الأمنية من الجهات السودانية، فأصبح انتباهي زائدا، وقلبي أكثر توترا، وعيناي تدوران كالذي ينتظر إشارة انطلاق السباق، التي ستأتي عبر رنين الهاتف سواء الجوال أو الأرضي. وكما أخبرني نصر الدين ليلة أمس أن التصريح دخل مساره الإجرائي، وهناك احتمال كبير أن نحصل عليه غدا، وفور حصولنا عليه سنتحرك صوب المطار للتوجه للميدان فورا، لذلك طلب مني أن أكون على أُهبة الاستعداد للسفر؛ فوضعتُ أغراضي في حقيبة السفر، وجهزت جواز

سفري، وطويت جهاز الكمبيوتر المحمول في الصباح الباكر كما طُلب مني؛ لأنه من المتوقع بنسبه ٪90 أن نتحرك أو نسافر في هذا اليوم، واستعدادا لذلك قام الأستاذ محمد جمال مسؤول الخدمات في بعثة الهلال الأحمر بحجز تذاكر السفر الداخلية من «الخرطوم» إلى إقليم غرب «دارفور».

مر عليّ كثير من الوقت حتى أشارت عقارب الساعة إلى تمام الساعة التاسعة صباحا لم أتلق أيّ اتصال، فذهبتُ وتناولتُ طعام الإفطار، وعدتُ إلى غرفتي بعد ساعة من الزمن، تناولت هاتفي بسرعة في يدي، صارت حركة لا إرادية أفعلها بين الحين والآخر، لم أجد على شاشة هاتفي أي اتصال من الهلال الأحمر أو من غيره، وفي الساعة الحادية عشر سمعت هاتفي الجوال يرن، فتحركت نحوه مسرعا، وقلت في نفسي: «وصل التصريح وجاء الإذن وظهرت علامة التيسير.» وفعلا وجدت أن المتصل هو الأستاذ «نصر الدين» ولكن بدا لي من نبرة صوته أن هناك أنباءً غير سارة، فقد بدأ حديثه بالسلام والاطمئنان ثم قال: «رجال العمل الإنساني لازم يكون عندهم صبر سيدنا أيوب.» فعلمت ساعتها أن التصريح الأمني قد أصابه الضر، ومسّته أفاعيل البيروقراطية بنصْبٍ من التعطيل والعرقلة، وصدق فعلا ما توقعته؛ فقد اعتذر وتأسّفَ كثيرا، لعدم قدرته على انجاز المهمة. قال لي: «لم يتبق أمامنا إلا أن نحاول مرة أخرى وننتظر إلى يوم غد كمحاولة أخيرة، وبعدها نتواصل مع الهلال الأحمر في الدوحة قطر لننظر بماذا ينصحون.»

تملكني الضيق والقلق، وقلت لنفسي: «لقد وضعت علامات لتيسير المهمة، وجعلت الحصول على التصريح الأمني مؤشرا على ذلك، وها هو التصريح يأبى أن يصدر، فماذا تنتظر؟ قم بإلغاء المهمة، وارجع إلى أسرتك وعملك ومركزك، وكفى الله المؤمنين القتال!» تأبى نفسي إلا القبول في الاستمرار بالمهمة، لذا قلت: «لننتظر حتى صباح الغد، فإما سفر بتصريح أو عودة بإحسان. ويكفي شرف المحاولة، كما

سيكفيني ما خرجت به من معارف ومعارف على مدار خمسة أيام.» فقررت التزام مزيد من الصبر، لعل الفرج يأتي قريبا، لكن تأخر التصريح بهذا الشكل جعلني أُفكر في أسباب العرقلة، والمماطلة من قبل السلطات المسؤولة، فما الذي يمنع الحكومة، أو هيئة العمل و»الغوث الإنساني السودانية» أن تمنحني تصريحا وأنا قادم في إطار مؤسسة صديقة تقع في دولة صديقة للسودان وتقيم مشروعا خيريا لبناء السلام؟ والمشروع يعتبر وفق التقرير ناجحا، وسيحسن من صورة الحكومة أيضا، ويعطي شكلا ووجها آخر للسلام في «دارفور». فأصبحتُ لا أجدُ سببا مقنعا يُرضيني، إلا إذا كان التوتر السياسي بين «مصر» و«السودان» قد فعل فعلته، وعكَّر الجو على المهمة بالعُسر وعدم التيسير. فتكلمت مع الأستاذ «نصر الدين» وقال لي فعلا هذا الأمر. فمن الأكيد أنه مأخوذ في الاعتبار لديهم، فالجهات الأمنية تريد أن تتأكد أنك قادم في إطار «الهلال الأحمر القطري» فقط، وليس لك مآرب أخرى، وليس لك علاقة بأيِّ عمل سياسي قد يكون له صلة بالخلاف بين «مصر» و«السودان». فأكدتُ له أنني جئتُ في هذا الإطار بدعوى من «الهلال الأحمر القطري»، فقال لي: «لست في حاجة للشرح لي، فنحن في نفس المركب، وأعرف طبيعة مهمتك التي هي جزء في النهاية من عملنا، لأنك تتبعنا الآن، ولكن الجهات الأمنية لا تتعامل مع النوايا والنيات، وإنما مع الشواهد والدلالات، لذلك طلبوا منا في الهلال الانتظار حتى الغد.» وهكذا بات في حكم المؤكد أنني سأقيمُ لليوم الخامس على التوالي في أحضان الخرطوم، وبين أهلها الطيبين لعلي تمسني نفحة من رقة قلوب أهل السودان ورحمتهم، وهنا وقعت في تحد جديد، وهو كيف أملأ الفراغ في هذا اليوم الطويل ليكون به نفع واستفادة؛ فكان أن قررت الخروج من الفندق، لأشاهد الحركة في العاصمة، وممارسة عادتي في التجول، ورؤية الشوارع ووجوه الناس؛ فخرجتُ من بوابة الفندق الرئيسية، واتجهتُ جهةَ اليمين، وسألتُ عن أقرب مكان للتسوق، فأخبروني عن سوقٍ يسمى «السوق العربي» في «الخرطوم» على بعد (١ أو ١.٥ كم)

مشيا على الأقدام من فندق «غراند هوليداي فيلا»، فخرجتُ وذهبتُ قاصدا ذلك السوق، ووجدته منطقة تجارية مركزية لتجميع البضائع في الخرطوم، قبل توزيعها على أقاليم البلد المترامية، فهو يشبه أسواق العتبة والعبور في القاهرة، ولكن السوق بدا لي متواضعا، وليس كما تخيلت من حيث السعة، وتنوع البضائع، أرجعت الأمر في نفسي إلى العقوبات الاقتصادية التي تفرضها الولايات المتحدة الأمريكية على النظام السوداني.

قضيتُ قرابة ساعتين من الزمن أتسكع في السوق، أسير هنا ذات اليمين وذات الشمال، حتى سمعت آذان صلاة الظهر، وأنا أتمشى في السوق، فسألتُ عن المسجد فقيل لي أمامك هناك، وعلى يسارك يوجد مسجد الملك الفاروق، والذي عرفني عليه سابقا سائقنا الجميل آدم صابون، فدخلت المسجد وصليت ركعتي السنة القبلية، ثم قبل الظهر صليت ركعتين إضافيتين، ولكني وجدت الناس في المسجد، بعضهم متمدد، وبعضهم نائمٌ، وآخرون متكئون على جدران المسجد في استرخاء يبعث على النوم والاستجمام، فقلت في نفسي: «فصبرا جميلا، فاليوم الخامس كله يا عم ياسر أنت جعلت عنوانه الصبر وجميل الانتظار فمش هتفرق كثيرا.» فقلتُ أنتظرُ قليلا، ثم أمسكتُ المصحف، وبدأتُ أقرأ بعضا من القرآن حتى أستفيد من الوقت، لكن طالت المدة، ولم أرى ما يُشير إلى قرب إقامة الصلاة، ووقوف الناس صفوفا متراصة بين يدى الله، فتعجبت من هذا الوضع الغريب، خاصة وأن المسجد يقع في قلب سوق مركزي للبيع والشراء، من المفترض أن يهرع الناس للصلاة سريعا، حتى يعودوا إلى أشغالهم وأعمالهم، فقلت في نفسي: «قم أنت وصلّ، ودع الناس في راحتهم، ومساجدهم يعبدون الله وفق ما يريدون ويرغبون.» ولكن قررت أن أنتظر وأصلي معهم، وأخوض التجربة كاملة مع أهل هذا المسجد، فلست في عجلة من أمري، وأنا منتظر إقامة الصلاة. فكرت في أمر هذا الهدوء الذي يظلل بغمامته على الناس في هذه المنطقة، إذ بدا لي أن نمط الحياة في السودان قائمٌ على الهدوء لا

على السرعة، مُؤسس على الصبر لا على العجلة؛ فالأمور الإدارية في المصالح الحكومية، ساعتها فقط فهمت جانبا من جوانب تأخر استخراج التصريح وهى عادة المجتمع السوداني من التأني في الأمور وعدم الاستعجال، وهذا ناتج في رأيي عن كون السودان مجتمعا غير مرتبط بعجلة الاقتصاد الرأسمالية العالمية منذ زمن طويل قبل مجيء حكومة الإنقاذ، وأيضا بعدما جاءت ونتيجة لفرض العقوبات الاقتصادية طويلة الأجل عليها حُرمت السودان من الدخول في آليات السوق الحر.

جلستُ أنتظرُ حتى أُقيمت الصلاة وانتهيت من أداءها مع المصلين، بعدما أخذت درسا في تعلم الصبر وطول البال، وقلتُ سأذهب للغداء في أي مطعم سوداني قريب من السوق، ثم أعُود بعد ذلك إلى الفندق مرةً أخرى، ففُوجِئتُ بأن شخصا قد قام من مقامه في الصف الأول، وبدأ بإلقاء درسٍ أو خطبةٍ بعد صلاة الظهر وهذا بالنسبة إليَّ أمرٌ غريب، فالمعروفُ عادة الدروس المسجدية تكون بعد صلاة المغرب أو صلاة العشاء، لكن وجود شيخ يخطب بعد صلاة الظهر في منطقة يفترض أنها تعجُّ بالتجارة والأعمال وتصليح المكائن، أمر يستحق التفسير والدراسة فقلت في نفسي: «ليس أمامك سوى الانتظار والاستماع.» وصبرّتُ نفسي بقول الله تعالى «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ»، فالمسافرُ مثلي غالبا ما يكون لديه تمددٌ في الزمن وتمددٌ في المكان، فجلستُ أستمعُ إليه، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أستمعُ بها إلى شيخٍ سودانيٍّ في داخل السودان، وأثناء استماعي وقع أمران لفتا انتباهي هما: كثافة حضور المصلين لدرس الشيخ داخل المسجد، مع حرص على الاستماع والانصات، حيث بدوا وكأن على رؤوسهم الطير، فمن المُتعارف عليه أن الدروس والخطب التي تكون بين الصلوات عدا خطبة الجمعة يكون حظها من حضور الناس قليلا، ولكن في مسجد الملك فاروق بالخرطوم حطم المصلون هذه الفكرة؛ فقد حضر درس الشيخ غالب المصلين، ويبدو أن هذا الحضور ألهب حماسة الشيخ فارتفع صوته، وعلت نبرته، واستمر في درسه قرابة نصف ساعة من

الزمن، وأعتقد لو جلس ساعة كاملة ما انفض الناس عنه! فقلت في نفسي ربما يكون هذا الشيخ مشهورا في السودان، فسألت الشخص الذي بجواري فقال لي: «لا هذا الشيخ من أهل المنطقة، وليس شيخا مشهورا على مستوى السودان، ويلقى الدرس هنا كل يوم سبت بعد الظهر. فتعجبت بأن درس الظهر في هذا المسجد ليس خطبة عارضة، وإنما درس ثابت كل أسبوع!»

اليوم السادس في الخرطوم، وأخيرا.

بتُّ الليلة على خلاف كل ليلة غير قلق، متفائلا على غير العادة، موقنا في نفسي إما أن الأمر سيسير على كل خير وأحصل على التصريح، وإما لا، وحينها لن أحزن كثيرا، فقد بذلت كل ما في وسعي، وتبقى الكلمة الأخيرة لعداد القدر غدا، فلأهنأ الليلة بنوم عميق.

في تمام الساعة الثامنة صباحا، استيقظت على رنة الهاتف الأرضي، قفزت من سريري إلى الهاتف، وأنا موقن أن الأمر مختلف هذه المرة، التقطتُ السمّاعة فإذا بي أسمع صوت «نصر الدين» على الخط مبتهجا ومسرورا، وكانت نبرةِ صوته تبعث على التفاؤل، وتبشر بخبر سار، لقد تم الأمر، وخرج التصريح من رحم الانتظار أخيرا، وصار ماثلا للعيان، وها هو صار بأيدينا والحمد لله، فاعتبرت أن علامة الإذن الكبرى بالسفر قد وقعت، وأن الأقدار أخيرا قد ابتسمت لنا، فكان خبرا سعيدا ومفرحا بدّدَ توتري، وبعث فيّ العزيمة والحماسة من جديد، فقد أتى الصبر أُكله في النهاية، وكلل اللهُ صبرنا وتعب فريق الهلال الأحمر بالسودان خيرا.

قلت للأستاذ نصر الدين: «هل أنزل الآن بحقيبة سفري وننطلق إلى المطار سريعا؟» فضحك منى، وقال: «أنت ما صدقت يا عم ياسر! انتظر للغد لأننا سنقوم بتعديل تذكرة الطيران؛ لأننا نتيجة كثرة تغيير مواعيد السفر، والتأخر في إصدار

التصريح قررنا أن نحجز للسفر، ونؤكد موعد الطيران عندما نمسك التصريح في أيدينا، فغدا صباحا تُسافر لغرب دارفور بحول الله تعالى.» من فرط تعجلي واستعدادي للسفر قلت له هل من الممكن أسافر برا أو بالقطار بدل الطيران حتى نكسب الوقت من ناحية ثانية تكون فرصة لأتحرك في طول السودان وعرضها من الشمال إلى الغرب حتى أُشاهد مزيدا من الأماكن والناس، ولكني فوجئت بمعلومة غريبة من الزملاء في «الهلال الأحمر» أنه لا يوجد طريق برّي مُمهد أو خط سكة حديد يربط ما بين «الخرطوم» وإقليم «دارفور»! فتعجبت من الأمر، فإقليم دارفور ووفق الحقائق الجغرافية كنز للثروة الحيوانية، وخاصة الأغنام والأبقار والإبل وهو ما يفتقده سكان شمال السودان بشدة؛ إذ لا تتوفر لديهم المراعي والمزارع الضخمة مثل باقي أرجاء السودان، فلماذا لا يتم ربط الحركة الاقتصادية بين منابع الثروة في السودان، وأماكن الاحتياج والاستهلاك بما يضمن مصلحة المنتج والمُشتري معا؟ إذا غياب هذا الربط بين أقاليم السودان، هو جزء من عملية التهميش التي تعتبر أحد أبرز الأسباب العميقة للصراع في أطراف السودان.

المهم بعد معرفتي بغياب وسائل تواصل برية بين الخرطوم ودارفور أصبح خيار السفر بالطائرة إجباريا، وعندما أرسل لي الأستاذ محمد جمال صورة تذكرة الطيران اكتشفت أن سعر الطيران الداخلي مرتفع، وليس في مقدور المواطن الدارفوري المسكين تدبّره بأي حال من الأحوال للأسف، فسرت حينها لماذا حركة السكان من «دارفور» إلى الشمال والأقاليم الأخرى تكاد تكون ضعيفة أو معدومة، إذ لا طرق برية ممهدة، ولا خط قطار موجود، والتنقل بالطائرة مُكلف جدا للناس، فيبدو لي أن هذا الإقليم قد تكالبت عليه أدواء التاريخ، ومصائب الجغرافية، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

وهنا ضغط على رأسي سؤال هام، وهو لماذا لم تشيد الحكومة طرقا برية بين

العاصمة الخرطوم و مدينة الفاشر في دارفور؟ وتوجهت بالسؤال إلى الأستاذ نصر الدين عندما قابلته، فقال لي: «إن المتمردين وحركات المقاومة حاولت أكثر من مرة مهاجمة العاصمة الخرطوم، وكان من أبرز المحاولات ذلك الهجوم الذي وقع على منطقة أم درمان في شهر سنه 2008 بقيادة الزعيم خليل إبراهيم، وهو أحد أبرز قادة حركة العدل والمساواة في دارفور؛ إذ نجح المتمردون القادمون من دارفور على بعد نحو ألف كيلو متر إلى الغرب من العاصمة، من مهاجمة أحد أحياء الخرطوم، كان الهجوم بعشرات السيارات رُباعية الدفع، والتي حملت القوات المهاجمة إلى داخل مدينة أم درمان، قبل أن تصطدم هذه القوات بقوات الأمن السودانية وتتغلب عليها؛ لذلك فالحكومات المُتعاقبة على حكم السودان ما بعد الاستقلال تخشى من بناء شبكة طرق سريعة، ربما يستخدمها الغاضبون في الأقاليم من الزحف نحو العاصمة!»

بعدما وضح نصر الدين وجهة نظره حول موانع الجهات الرسمية في إنشاء شبكة طرق بين الأقاليم السودانية؛ تبين لي حجم التشابك بين الصراعات من حيث الدوافع والبواعث، وتضافرها مع ملفات التنمية والعدالة الاجتماعية؛ فمع أجواء التشاحن والكراهية، وانتشار الخوف والشك بين مكونات الوطن الواحد؛ تُصبحُ القرارات السياسية سواء من الحكومة أو المعارضة قائمة على الكيد السياسي، والطفولة الحزبية، وتتسم بعد العقلانية والاتزان، إذ يُصبحُ مثلا إنشاء طريق بري، أو مد شبكة مياه نظيفة مسألة تحتاج إلى دراسة عسكرية وأمنية تجعل قرار تدشينها، بمثابة تأسيس جسر نقل عسكري، أو تطهير حقل الغام من خط الجبهة استعدادا لعبور الجيوش.

ومع انعدام الطرق وقلة مؤسسات التعليم، وتفشي المجموعات المتطرفة التي تجد ملاذا وأمنا وسط المجتمع الغاضب على الدولة التي تركته وحده في العراء يقاسي الحاجة، وعدم توفر الموارد؛ تشتعل الحروب الأهلية ومعارك الإقصاء والكراهية؛ فالإرهاب لا يولد بين يوم وليلة، وإنما تولده ظروف متشابكة منبعها

بالأساس انعدام العدالة الاجتماعية، انعدام التوزيع العادل للثروات بين أبناء الدولة الواحدة، عدم تكافؤ الفرص في التعليم والصحة، الإرهاب يولد مع الجهل، والجهل يأتي من الحرمان[1]، ومن افتقاد مؤسسات تعليمية تغذي مواطني الأمة والدولة بالمعرفة والوعي.

وبما أن سفري قد تأجل إلى صباح الغد، وبما أني أمتلك وقتا قليلا طيلة اليوم السادس لي في الخرطوم، فقررت ملء هذا بشيء نافع، فتواصلت مع صديق عزيز، وهو من الشباب السوداني الواعد والنبيه الذي تعرفت عليه في الدوحة، فاتفقنا على اللقاء. ومن وافر كرمه وفضله اقترح لي ترتيب مقابلة مع مجموعة من الشباب السودانيين المهتمين بالثقافة وبناء الوعي في المجتمع، فرحبتُ جدا بمقترح صديقي عبد الحليم، واعتبرت هذا اللقاء فرصة ممتازة لسماع وجهات نظر سودانية محلية حول كوامن وخبايا الصراع في دارفور، وغيره من مناطق السودان لأنه من المعروف أن الصراع في السودان ليس محصورا في «دارفور» فقط، فهناك توترات في «كردفان»، وفي ولاية «النيل الأزرق»، وفي منطقة «جنوب السودان»، التي انفصلت عن جمهورية السودان سابقا، وهناك بعض المناوشات في منطقة «البجا» بشرق السودان، وهناك مشاكل في مناطق الشمال، فالخرطوم تكاد تكون محاصرة بدائرة من النار والغضب، تكاد تعصف بها.

و مع تخلي الشمس عن مكانها في كبد السماء، وحلول عصر اليوم جاءني الأستاذ «عبد الحليم» إلى الفندق، وتحركنا سويا للقاء في أحد مقاهي الخرطوم، فوصلنا في موعدنا المُحدد، ورحب بنا الشباب كثيرا، وبعدها قدمني «عبد الحليم» للشباب، وحدّثهم عن مجالات اهتمامي، وعما سأقومُ به في السودان. وهنا بدأتْ ترتسم ملامح الدهشة والاستغراب على وجوه بعض الحضور، وخاصة عندما عَلِمَوا أني

(1) تيد روبرتغير، لماذا يتمرد البشر، ترجمة مركز الخليج للأبحاث، 2004، ص86

حصلتُ على التصريح الأمني بالموافقة على السفر من الجهات السودانية المسؤولة إلى غرب «دار فور»، فقلت لهم: «لماذا أرى على بعضكم علامات الدهشة؟»

فقال لي الشاب مُدثر صلاح الدين: «تخيل أنا كمواطن سوداني غير مُيسّرٌ لي الحصول على تصريح مثل الذي حصلتَ عليه. فهناك صعوبةٌ بالغة جدا في أن أحصلَ على تصريح مثلك يا ياسر!» ساعتها شعرت بشعورين متناقضين، الأول، حزني لهؤلاء السودانيين الذين لا يستطيعون التواصل مع جزء من وطنهم، ثم شعوري بالسعادة والإنجاز لحصولي على هذا التصريح، وكنت أبدو كما لو أني متهم في قضية قد حصل فيها على براءة، بينما بقي باقي المهتمين معه ينتظرون معرفة مصيرهم! ثم تابع مُدثر حديثه قائلا: أنت محظوظٌ جدا يا ياسر، فقلت له لماذا فقال: «لولا أنك في شراكة مع الهلال الأحمر القطري، والعلاقات جيدة بين دولة قطر والحكومة السودانية، لما تمكنت من أن تطأ بقدمك تراب دارفور، ولا أن ترى الناس فيها!»

واستمر حديثي مسترسلا وجميلا مع هذه الثلة الواعدة من الشباب حول قضايا النزاعات في السودان، حتى وصل إلى نقطة مزعجة بالنسبة إلي، عندما حذرني شاب عرّف نفسه بأنه باحث في الدراسات الأمنية والاستراتيجية من خطر داهم، ربما يُصيبني في هذه المهمة، إذ قال لي: «كن حذرا ومنتبها، ولا تعتقد أن وجود تصريحٍ أمني في جيبك يعني أنك مُؤَمَّن، وفي حماية الحكومة، وآمنٌ مائة في المائة!» فقلت له: «هذا التصريح هدفه أن تتأكد السلطات من سلامة وضعي القانوني، وتُيسر لي الحماية وسهولة العمل.» فتبسم ضاحكا من قولي هذا ثم عقب قائلا: «كلامك صحيح لو كنت تتعامل مع الحكومة الكندية يا عم ياسر، أنت هنا في إفريقيا بأدغالها، وأحراشها، ووحوشها، وقبائلها، والتي أحيانا لا تستطيع الحكومات أن تبسط سيطرتها على العديد من المناطق فيها، ففي إقليم دارفور هناك مليشيات عربية

تتصارع مع قبائل ذات أصول إفريقية. وهذه القبائل إذ وجدَتْ أنك تقوم بشيء ربما يُدينهم سيُقدمون على قتلك بدم باردٍ! ولن تكون لك دية لا عندهم ولا عند غيرهم.» وعندما نطق بالعبارة أحسستُ بالضيق الشديد، ها هي معضلة جديدة تظهر لي من حيث لا أدري، فأنا كلما أغلقت بابا للخطر فُتح شباك للقلق من جهة أخرى!

تماثل تجربتي قطر والنرويج

قطر هي التي صنعت السلام والاستقرار في دارفور، وأسهمت في إنفاذ مشروعات تنموية كبرى من خلال مبادرتها إعمار وتنمية دارفور، والتي شملت في المرحلة الأولى 5 قرى نموذجية، فيما ستشهد الفترة القادمة البدء في المرحلة الثانية، والتي تشمل ١٥ قرى نموذجية، والمشروعات القطرية أسهمت بصورة كبيرة في عودة الكثير من النازحين واللاجئين إلى قراهم، و لقد ارتبط السلام في دارفور باسم الشقيقة دولة قطر التي صنعت السلام في دارفور، فلو لا قطر لما تمكن أهل دارفور من إنجاز ما تم إنجازه الآن، ولو لا دعم قطر لما استطاع المجتمع الإقليمي والدولي أن يجتمع في الدوحة لمناقشة قضايا إعادة الإعمار والتنمية في دارفور . قطر هي الآلية التي تدفع بقوة نحو إعادة إعمار دارفور، وتحقيق الأمن والاستقرار في إقليم دارفور ونشكر قطر على هذا الجهد.

(الدكتور التيجاني السيسي رئيس السلطة الإقليمية لدارفور في حوار صحفي حول «وثيقة الدوحة» وملحقاتها- يوليو 2016).

صراحة بعد معرفتي بهذا الخطر الجديد من الشاب بدا عليَّ التوتر وأنا جالس مع الشباب ولكني أكملت اللقاء، وتواصل اللقاء مع الشباب، إذ تكلمت عائشة نور الدين عن رأيها في تجربة دولة قطر في بناء السلام فقالت: «إن قطر تسير على خطى النرويج.» فقلت لها: «ماذا تقصدين بذلك؟» فأضافت: «أقصد أن قطر تسير على خط

النرويج في السياسة الخارجية، فعندما حصلتْ في «النرويج» طفرة بترولية، ونتج عنها وفرة مالية، قررت النرويج استثمار هذه الثروة في التحرك في دعم الوساطات، وبناء السلام، للدرجة التي أصبحت فيها النرويج أحد أهم العواصم العالمية الراعية لمنظمات نشر السلام في العالم. فيبدو أن هناك نقاط تقاطع بين التجربة القطرية كمجتمع حصلت فيه طفرة وثروة، وما يبذله من جهد على الصعيد الدولي في قضايا الوساطة وبناء السلام، وهذه الخبرة مكنتها لاحقا من النجاح في دفع حركات التمرد والحكومة السودانية على توقيع اتفاقية الدولة لبناء السلام في دارفور عام 2011، والتي نجحت بدرجة كبيرة مقارنة بالعشر اتفاقيات سلام سابقة، والتي وقّعت بين الحكومة والمتمردين في إقليم «دارفور» ولم يلتزم بها أحد.»

مملكة الكراهية

لا يوجد إنسان ولد يكره إنسانا آخر بسبب لون بشرته أو أصله أو دينه، الناس تعلمت الكراهية، وإذا كان بالإمكان تعليمهم الكراهية. إذا بإمكاننا تعليمهم الحب، خاصة أن الحب أقرب لقلب الإنسان من الكراهية.

(نيلسون مانديلا- أول رئيس لجنوب إفريقيا بعد انتهاء فترة التمييز العنصري)

ثم عاد الحديث بيني وبين الشباب مرة أخرى لإقليم دارفور، إذ طرحت عليهم سؤالا مفتوحا فقلت لهم: «كما ترون الآن السودان تقريبا مُقسمٌ إلى أربعة مناطق، ووضع السودان-كما يقولون عندنا في مصر-لا يسر عدوا ولا حبيبا، فما هو السبب الرئيسي الذي يقف خلف تفجر كل هذه الأزمات؟»

فتكلم شاب من الحضور اسمه مختار قائلا: «أولا أستاذ ياسر عدم وجود حياة ديمقراطية في السودان أولا هو السبب ثم يليه في الأسباب أن النخبة الحاكمة في المركز، أي في شمال السودان، ترى نفسها، وللأسف، فوق المكونات السودانية

الأخرى، وخاصة الهويات الفرعية ذات الأصول الإفريقية، وعندما سألته: «ماذا تقصد يا مختار بالنخبة الحاكمة؟ هل حكومة الإنقاذ؟» فقال: «إن الموضوع لا علاقة له بمن يحكم، ولا بشكل الحاكم، أو بطبيعته الإيديولوجية سواء كانت إسلامية أو قومية، ولكن المسألة هي وجود فكرة عميقة وعقيمة في ذات الوقت، ساكنة في التكوين الوجداني للنخبة الشمالية في السودان، هذه الفكرة تجعلهم يعتبرون أنفسهم الأفضل، والأجدر لحكم السودان، دونا عن غيرهم من باقي المكونات الموجودة في البلد، بمعنى أن هناك نَفَسا استعلائيّا عند النخبة الشمالية ضد الآخرين، وهذه الفكرة البائسة كان لها تداعياتها و تأثيراتها سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية؛ إذ جعلت الحكومات في الشمال تُهمل تنمية الأقاليم على مر السنوات الماضية، منذ الاستقلال تقريبا، تخيل!»

ثم ذكر مختار أنه من نتائج هذه الفكرة الاستعلائية أن كل الذين حكموا السودان- إحدى عشرة حكومة متعاقبة- لم يكن بها أي شخص من خارج الشمال! فأزمة الصراعات العميقة في السودان كما ترى، هي في الأساس أزمة في التصورات تتحول لاحقا لنزاعات سياسية، لذلك يرى مختار أن حل نزاعات السودان كافة يبدأ من تغير العقلية في الشمال، وذلك بأن تُراعي النخبة الهويات السودانية الأخرى، بما فيها الإفريقية واللغات المحلية، وأن يفتخر السودان بتنوعه الثقافي والإثني والعرقي، فنحن السودانيون في أزمة كبيرة جدا- وفق مختار- لابد من حلها جذريا عبر التراكم الثقافي البناء؛ لأن الأزمات قد تَسْكُن حينا من الوقت، لكن سكونها لا يعني انتهاءها. وأنه لا أمل في حل مشاكل السودان، إلا عندما يقتنع الجميع بفكرة المساواة والمواطنة، بمسألة العدل الاجتماعي الذي يضمن مشاركة مجتمعية واسعة بغض النظر عن اللون والعرق والدين والطائفة، بأن تقتنع السلطة الحاكمة والجماعات المعارضة بفكرة الهويات المتراكمة الجامعة، والتي تقبل بكل الهويات الفرعية في السودان سواء اللغوية أو الدينية أو العرقية بحيث يجمعنا سودان واحد يفخر الجميع بالانتماء إليه.

وبعد انتهاء الحديث مع الشاب المُثقف مختار حان وقت العشاء إذ تحرك بنا صديقي «عبد الحليم» إلى أحد المطاعم الواقع في منطقة اسمها «أوزون» لتناول العشاء، فكانت فرصة أخرى لمزيد من التعارف على اهتمامات الشباب عموما والزميل عبد الحليم، إذ اكتشفت أن صديقي يجمع بين حبه للثقافة، وعشقه للتجارة؛ جعله دائم الترحال، وسأتوقف معكم سريعا عند بعض ما خرجت به من حديثه عن زيارته لليابان، والتي وافقت إلى حد كبير رواية الخبير الزراعي الياباني الذي قابلته في باحة الفندق.

إذ قال لي الرفيق عبد الحليم أنه وجد في زيارته لليابان أن حالة السِّلم المجتمعي والتناغم مرتفعة للغاية، وقد لمس ذلك عند زيارته لمدينتي «هيروشيما» و«ناجازاكي»، وهما المدينتان اللتان قصفتا بالقنبلتين الذريتين، وتحدث مع بعض أهالي المنكوبين والضحايا، صدم لأول وهلة بأن الأهالي، لم يتجاوزوا الحادثة إنسانيا ومعنويا، فالضحايا صورهم تملأ ساحات، وهناك أماكن مخصوصة لتذكر النكبة التي ألمت بهم، ولا تزال آلامها وذكرياتها المفجعة ماثلة في الضمير الياباني، لكن الغريب كما يقول عبد الحليم أن روح الانتقام غير حاضرة إطلاقا في أحاديث اليابانيين، ومجمل أحاديثهم تدور حول فداحة الخسارة الإنسانية التي أصابتهم بسبب ممارسات الكراهية، والعنف، ومحاولة استغلال موارد الآخرين التي تورط فيها الجميع، وأن الضحايا، بغض النظر عن عددهم ونسبتهم، سقطوا من كل الأطراف، وأنهم -أي اليابانيون- يدركون أن الوقوف عند حادثتي هيروشيما وناجازاكي سيسبب مزيدا من الألم والمعاناة، وأن الفلسفة المتبناة هناك قائمة على فكرة كيف ينبغي لنا أن لا نكرر الأوجاع مرة أخرى، وأن نحمي الإنسانية من شر السلاح النووي، وأن ندرك أن بناء أمة يابانية أقوى ليس بالسلاح والقهر، والتسلط على مقدرات الأمم كما حدث من قبل القيادة اليابانية في الحرب العالمية الثانية، وإنما بناء أمة قوية يأتي بمسار العلم والتنمية، يدرك اليابانيون اليوم -كما يقول عبد الحليم- أن زرع خطاب الكراهية في

نفوس الصغار والأجيال الجديدة، معناه بالضرورة تنمية روح الانتقام والعنف، وهو الأمر الذي سيعود وبالا على اليابان وشعبها.

انتهى عبد الحليم من كلامه، فوافق بشكل كبير ما حدثني به الخبير الزراعي الياباني، وساعتها عزمت فور رجوعي من دارفور أن أقوم بدراسة التجربة اليابانية، وأن أعكف عليهما قراءةً واطلاعا، وعند المحطة اليابانية يكون يومنا السادس في الخرطوم قد لفظ أنفاسه، وحان وقت العودة إلى ضفاف النيل الأزرق لأستقر في الفندق، استعدادا للسفر.

نمت مبكرا. وفي الصباح الباكر، كنت أنتظر «آدم صابون» لينقلني إلى مطار «الخرطوم» وأستقلّ الطائرة إلى غرب «دارفور». وصل آدم صابون في موعده، وتحركتُ معه إلى المطار، وبدأ أخونا «آدم» في إدخال الحقائب على الميزان، وودعته وكلِّي أملٌ إن شاء الله أن أنتهي من زيارة «دارفور» وأعود مرة أخرى ليستقبلني في الخرطوم.

وقد حاول آدم أن يعطيني شحنة من السكينة، ولعله لمس توتري بعض الشيء، فقال لي يا أستاذ ياسر: إن أهل «دارفور» طيبون، ولا تأخذ بكلام الإعلام، وستجد منهم كل خير إن شاء الله. وبعدما أتممت إجراءات الدخول إلى الطائرة، وردني اتصال من صابون قائلا: «يا أستاذ ياسر ستجد معاك على نفس الرحلة طبيبة سودانية وأخرى أيرلندية ذاهبتان إلى غرب «دارفور»، وهما من بعثة الهلال الأحمر السوداني، وقد أعطيت رقم هاتفك لدكتورة عائشة، ستتصل بك حالما تصل إلى صالة الانتظار، لو احتجت شيئا، فيمكنها أن تساعدك.» شكرت له مساعدته، وحسن صنيعه، وأثنيت على كرم أخلاقه، وبالفعل بعدما انتهيت من المكالمة معه، اتصلت بي الدكتورة عائشة، فذهبت إليها، واعتبرت وجودي معها من علامات التيسير، وقالت أنها ذاهبة مع دكتورة تدعى كاثرين، للمشاركة في حملة طبية لتطعيم الأطفال في دارفور، ضد

مرض شلل الأطفال والحصبة، فسمح تعارفي بها فسحةً من الأمل والتفاؤل. وقلت في نفسي: «الحمد لله، وجود الدكتورة كاثرين معنا مفيد فأنا مواطن عربي وجوازي مصري، ولا قدّر الله، عند حصول أي مكروه، كاختطاف أو محاولة تهديد. فاستجابة حكومتنا لآلام المواطنين ليست بالسرعة المطلوبة، ولكن وجود مواطنة أُوروبية معنا لو حصل لنا مكروهٌ، حينها سنجدُ دولةً تطالب بالإفراج عن الرهائن والمحبوسين مع هذه الطبيبة.» ثم صعدنا إلى الطائرة، وبعد ساعتين من التحليق هبطنا بحمد الله تعالى في مطار «الجنينة» بغرب دارفور، والمسمى باسم مطار الشهيد «صبيرة».

ميزةُ هذا المطار أن مبناه بسيط، إذ به صالة واحدة للوصول، وأخرى للإقلاع، ومَدْرَج الطائرات به يقع وسط حشائش لسافانا، فأخذتُ أغراضي وتحركتُ إلى قاعة الوصول، وكان في استقبالي وفد من بعثة «الهلال الأحمر»، وعلى رأسهم «الشيخ حسن» مسؤول البعثة، ومعه الأستاذ أبو بكر علي صالح، منسق مشروع «الوئام وبناء السلام» وأيضا كان معهم المهندس «آدم إبراهيم الشيخ». وهذا له قصة كبيرة سأرويها لاحقا، ولا أنسى السائق المرافق علي محمد سليمان، وكان معهم مسؤول الخدمات والإمداد الحاج محمد الطيب، وبتمام الوصول لمدينة الجنينة نكون قد قطعنا سويا الشوط الأول في المهمة المُرتقبة وعلى وعد باللقاء بكم على صفحات الفصل التالي لنعيش سويا خطوة بخطوة أجواء التجربة في عين العاصفة.

الزرافات الهاربة والنمور المُهاجرة

أول ما وقعت عيني على معالم وملامح مدينة «الجنينة» انتقلت بي ذاكرتي إلى قاعات قسم الجغرافيا بكلية الآداب حيث درست في مادة المُناخ تفاصيل الأقاليم المُناخية في القارة السمراء[1]، والتي تنتمي إليها مدينة الجنينة التي تقع وفق ما درست

(1) شرف عبد العزيز طريح. «الجغرافيا المناخية والنباتية مع التطبيق على مناخ إفريقيا ومناخ العالم العربي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة

في إقليم «السافانا المداري». و«السافانا» هي أحد أنواع الحشائش الطويلة المنتشرة في إفريقيا، والتي يتراوح طولها من متر إلى خمسة أمتار، ويتفاوت طولها حسب كثافة المطر وخصوبة التربة، وتعتبر حشائش السافانا بيئة مُلائمة لحياة العديد من الحيوانات البرية، مثل الزرافات، والأسود، والنمور، والخنزير البري، والأبقار. لذلك توقعت وفق الدراسة والمشاهدة للحشائش في أرضية المطار وأنا في طريقي إلى مقر بعثة الهلال في الجنينة أن أُشاهد مجموعات من الزرافات، أو ألتقي بنمر ضل طريقه وسط الحشائش، ووصل إلى الطريق التُرابي الذي نسير عليه، ولكن خابت توقعاتي وتبددت آمالي، فقلت ربما ما تعلمته في قسم الجغرافيا غير صحيح! أو أن منطقة الجنينة نتيجة للتغير المناخي الحاصل في العالم قد تحركت نحو نمط مناخي مختلف، فهمست في الشيخ حسن رئيس البعثة الذي كان على يميني، وقلت له هل منطقة الجنينة ليس بها حيوانات برية؟ فقال لي: «المنطقة كانت تموج بشتى أنواع الحيوانات البرية، وخاصة الغزلان، والأبقار، والزرافات، حتى أن الناس في المنطقة عندما كانوا يحتاجون لأكل اللحوم كانوا يقومون باصطياد الغزلان لوفرتها، وسهولة الوصول إليها! كما كانت هناك مواسم لصيد الحيوانات يخرج فيها شباب كل قبيلة وفق طقوس وأفراح تقليدية قديمة، ويكفي أن تعلم أن أهالي منطقة دارفور سابقا كانوا يعانون من مرض النقرس الناتج عن كثرة تناول اللحوم. فتعجبت من كلام الشيخ حسن هذا خاصة مع ما علمته من تحول حال القبائل في الإقليم من أناس يعيشون في الخير والوفرة، إلى جماعات تتناحر ويضربها الجوع والخوف!» فقلت للشيخ حسن: «إذا وأين ذهبت هذه الحيوانات اليوم؟» فقال: «مع نشوب الحرب والصراع في المنطقة، ونتيجة استخدام السلاح والمدافع والقنابل والطيران في المعارك بين الأطراف المتصارعة، اضطربت حياة الحيوانات، ولم تستطع العيش وسط لهيب المعارك، وانفجارات القنابل، وأزيز الطائرات المُقاتلة، فقررت الهجرة الجماعية صوب منطقة جنوب السودان حيث الكلأ والماء، وعدم الإزعاج من بني

البشر المجانين الذين يقتل بعضهم بعضا، فقلت في نفسي يبدو أن تأثيرات النزاع لا تقف فقط عند حدود بني البشر بل يمتد أثرها إلى عالم الحيوان!»

وبعدما غادرنا المطار وتحركنا صوب مدينة الجنية واقتربنا من معالمها لاحظت أن منازلها تقليدية تنتمي للطراز الإفريقي وارتفاعها لا يتجاوز الدور الواحد، فقلَّما تجد عمارات مرتفعة إذ لم أُشاهد في رحلتي كلها عمارة واحدة متعددة الطوابق في المدينة، فالجنينة ليس لها نصيب من الحداثة إلا في مظهر واحد وهو وجود شبكة «الإنترنت»، فهي تبعد (١٢٠٠ كم) عن العاصمة الخرطوم، لذلك تاريخها متواصل مع إقليم غرب دارفور و دولة التشاد المجاورة لها، والتي تبعد عنها ٤٥ دقيقة بالسيارة، وبالتالي فهي متواصلة مع التشاد أكثر من شمال السودان، لذلك الحركة التجارية بها والتواصل الاجتماعي، والصلات الاقتصادية غالبا ما تكون متجهة مع الحدود الشرقية لدولة «تشاد» وليس «الخرطوم»، لبعد المسافة، وعدم وجود طرق مُعبّدة. ووفق ما قرأت، فمدينة «الجنينة» كان لها دور مشهود في مواجهة الاستعمار والاحتلال، حيث تعدّ الجنينة من السلطنات القديمة التي لم تُستعمر في «إفريقيا»، وتتمتع بتراتُبيةً إدارية ومالية قديمة قبل نشوء دولة «السودان» القُطْريّة والقومية، وهنا تتكشّفُ لنا قضية خطيرة جدا لابدّ من معرفتها عندما نتعامل مع النزاعات في «إفريقيا». فالمجتمعات الإفريقية، مجتمعات قَبَليّة لها تقاليد وأعراق، وصِلات كبيرة جدا تسبق وجود الدولة القُطْرية، وغالبا الدول القُطْرية التي نشأت في إفريقيا في مرحلة ما بعد التحرر الوطني، كانت وليدة الاستعمار، فلم يُراعي فيها الاستعمار حينما قام بتقسيمها التواجدَ القبلي المنتشر في القارة. فقد تجد دولة مثل «السودان» على حدودها الغربية قبائل موجودة في جمهورية «تشاد»، وأحد فروعها الكبيرة ساكنة في غرب «دارفور»، فيأتي الاحتلال ويضع هذه الحدود، فيفصل حينها بين أبناء القبيلة الواحدة، ويمنع تواصلها مما يُؤجج لاحقا الصراعات والنزاعات جراء هذا التقسيم السياسي الذي لا يُراعي الخصوصية الثقافية للمجتمعات الإفريقية،

والجانب الآخر المهم هو أن القبائل الإفريقية في معظمها قبائل رعوية تتحرك مع قطعان الأنعام حيث الكلأ والماء. وبالتالي هذه القطعان وهؤلاء الرعاة لا يعرفون لغة الحدود وجوازات السفر، ولا نقاط التفتيش فعندما تُقام الحدود غير المرنة، ولا تُراعى حركة القبائل تصبح نقطة توتر وصراع.

من المهم في هذا الصدد فهم الذاكرة التاريخية المؤسسة للدولة القطرية الإفريقية الجديدة. فقد شاركت العديد من القبائل الأصلية في مجابهة المحتل وتقديم الضحايا والشهداء، ولكن عندما أُقيمت الدولة الوطنية والقطْرية لم تنعم مناطق هذه القبائل بقيمة تنموية مُضافة، بل الأدهى والأسوأ أنّ تأسيس الدولة الوطنية في بعض البلدان الإفريقية كان وبالا على العديد من القبائل من حيث تهميشها، وحرمانها من المناصب والسلطة، والمثال على ذلك ما تعرضت له القبائل في إقليم دارفور؛ إذ كانت القبائل قائمةً قبل وجود الدولة، مستقرة، وبها حركة تنمية تتناسب مع احتياجاتها البسيطة، وكان بها نظام دفاع استطاع الصمود في وجه المحتل، ومع انضمام قبائل دارفور وإقليمها للدولة السودانية الوطنية إذ بها لا تجد تمثيلا ديموقراطيا حقيقيا، ولا تجدُ طرقا ولا خدماتٍ ومستشفياتٍ، وبالتالي يبدأ السؤال الكبير: «لماذا ننضم للدولة ونظل في هذا الجسم الذي لا يقدم لنا أي خدمات؟» فإلى الآن كما تعلمون، لا توجد طرق ولا خدمات بالشكل الكافي لبناء انتماء وولاء للدولة.

وفي أثناء سيرنا بالسيارة صوب مقر إقامتي في وسط المدينة، لاحظت وجود مخيمات ومعسكرات محاطة بقوات دولية تابعة «الأمم المتحدة». فسألت الشيخ حسن: «ما قصة هذه المخيمات؟» فقال: «هذه مخيمات اللاجئين والنازحين.» فقلت له: «من أين أتى هؤلاء الناس؟» فأجاب: «لقد جاؤوا مع بدء الصراع في ٢٠٠٣ من الأماكن المحيطة بـ«الجنينة»، ومع ضغط الحروب في أطراف الإقليم هربوا إلى مدينة «الجنينة» بحكم وجود بعض الخدمات، وبعض المستشفيات، وبدأت هذه القبائل

تنتقل وتتركز في أطراف «الجنينة»، ومع تدويل قضية دارفور جاءت «الأمم المتحدة» و«الاتحاد الأفريقي» لتتولى حماية هذه المعسكرات.» وأضاف الشيخ حسن: «بسبب طول أمد الصراع أصبح من الصعب على سكان هذه المعسكرات والمخيمات العودة إلى حياتهم الطبيعة مرة أخرى حتى مع توقف الحرب!» فسألته: «لماذا الناس رغم الهدوء النسبي الحاصل في المنطقة، بعد توقيع اتفاقية الدوحة للسلام لم يعودوا إلى بيوتهم وإلى أماكنهم الأصلية؟» فأخبرني بأن هذه المخيمات والمعسكرات تعيش بها أسر كاملة. ويتم صرف رواتب صغيرة لها من الجهات الراعية، والتي تُوفر لهم أيضا مواد الغذائية الأساسية شهريا بشكل دوري من الزيت، أو السكر، والدقيق والسمن، كما تقدم للنازحين أيضا خدمات صحية أولية، وهذا المستوى من الخدمات المُقدم لا يجده اللاجئ في قريته الأصلية، وبالتالي أصبح الناس مع ضغط الحياة، وعدم وجود الخدمات في قراهم، يفضلون البقاء في المعسكرات والمخيمات، ولا يرغبون في العودة الطوعية إلى الأماكن التي انتهى بها النزاع لعدم توفر سبل العيش الكريم وانقطاع الخدمات عنهم! وهنا تكلم الأستاذ أبو بكر صالح وقال: «لمعالجة هذه المشكلة جعلنا هدفنا المركزي في مشروع «الوئام والسلام» هو إغراء المُقيمين في المخيمات بالعودة إلى قراهم عبر تقديم الخدمات، وتوفير الحد الأدنى من العيش الذي يشجع الناس ويجعلهم يغادرون المخيمات والمعسكرات، ويعودون لحيواتهم الطبيعية، لأن وجود المعسكرات والمخيمات يعد أحد نقاط اشتعال الصراع المتجددة باستمرار.» فقلت له: «لماذا تصبح مخيمات اللاجئين نقاط صراع ونزاع، وهي محمية من قوات الأمم المتحدة؟» فقال: «الناس يفضلون البقاء فيها، ويستفيدون من المساعدات، والحركات المتمردة تستغل تجمعات الناس في المعسكرات لنشر أفكارها الأيديولوجية فيها، وتقوم بتجنيد أشخاص من داخل هذه التجمعات.» وأضاف أبو بكر أيضا بأن هناك قوى دولية من مصلحتها أن يستمر الصراع في دارفور، ومن أجل ذلك لا ترغب في إغلاق المخيمات حتى تظل القضية محل نظر العالم.

فكرت حينها في مدى خطورة تسييس العمل الإنساني، ودخوله في شبكات المصالح السياسية وهو ما يُصعب خطوات تجاوز الصراع وبناء السلم المجتمعي، لذلك فالمجتمعات العاقلة هي التي تسعى إلى حل النزاعات التي تنشأ بين مكوناتها الاجتماعية سريعا. قبل اشتعال المعارك وتدويلها؛ إذ يؤدي تدويل الأزمات والصراعات إلى تعقيد الحلول المطروحة أحيانا، لتداخل وتقاطع المصالح مع الدول الإقليمية والمجتمعات الدولية التي تتدخل في النزاع.

وبعد ساعة من خروجنا من المطار توقف بنا السائق محمد سليمان أمام مبنى من طابق واحد، مُحاط بأسلاك شائكة مرتفعة، ويقف على بابه حارس قوى الشكيمة، مفتول الشوارب عريض المنكبين. فنظرت من نافذة السيارة فوجدت لافتة مكتوب عليها مقر استراحة الهلال الأحمر القطري بالجنينة، وكان مما لفت انتباهي في المبني بوابته الحديدية السوداء، والتي قام الحارس بفتحها لدخول السيارة، وقام بإغلاقها على الفور! مما جعلني مستغربا وقلت في نفسي لولا أني مع وفد الهلال الأحمر في نفس السيارة لظننت أنني شخص مقبوض عليه يدخل مقرا أمنيا ما، فلما نزلنا من السيارة في وسط المبنى الفسيح سألت السائق سليمان: «لماذا كل هذه الأسلاك الشائكة، والبوابة الضخمة؟» فقال لي: «المبنى تعرض في مرات عديدة لاعتداءات مسلحة لسرقته، والسطو على السيارات رباعية الدفع الموجودة به، والاستيلاء على المساعدات الغذائية الموجودة به، وقد حدث هذا الأمر مرارا وتكرارا من قبل أطراف عديدة، لذلك لجأنا إلى تشديد الحراسة عليه، ورفع أسواره تجنيا وخوفا من تكرار هذا الحوادث.» فقلت له: «نسأل الله لنا ولكم السلامة والأمان.»

وبعد إنزال حقيبة سفري من السيارة أخذني الشيخ حسن إلى الغرفة التي سوف أقيم بها، وكانت حجرة مجاورة لحجرته، فدخلت الغرفة، وأخذت حماما دافئا، وقسطا من الراحة، وبعدها بساعة دعاني الشيخ حسن لتناول الغداء في الاستراحة مع

فريق الهلال هناك للتعارف عليهم، والبدء في إعداد برنامج المهمة، والاتفاق على خطة التحرك، ومن خلال التعارف أثناء الغداء، علمت بأن المهندس «آدم إبراهيم الشيخ» الذي كان مع الوفد الذي استقبلني في المطار، ليس من الفريق العامل مع «الهلال الأحمر» في «دارفور»، ولكنه دكتور مهندس متطوع، يقوم بالتدريس في جامعة «نيالا»، وجاء للتطوع وخدمة مشاريع «السلام» في «الهلال الأحمر» في «الجنينة» وأنه سيكون رفيقا لنا في الرحلة إلى مشروع «الوئام»، ليقوم بالدراسات الهندسية الخاصة بالمنشآت التي تتبع مشروع الوئام وبناء السلام بقرية «أرارا»، ثم تعرفت أكثر على الشيخ حسن رئيس بعثة الهلال الأحمر في غرب دارفور. واتضح من كلامه أنه رجل ذو خبرة عالية في العمل الإنسانيّ، وعلى دراية كبيرة بطبيعة العمل في المؤسسات الدولية، وكان يعمل سابقا في منظمة «الفاو» التي كانت معنيةً بتقديم المحاصيل المهمة التي تصلح للزراعة غرب «دار فور» للفقراء، وكانوا يدربون الفلاحين على زراعة هذه المحاصيل، كي توفر لهم مصدرا للعيش والرزق، ثم جاء دور الجندي المجهول في مشروع الوئام وهو الدكتور أبو بكر علي صالح المسؤول المُباشر عن مشروع الوئام في قرية «أرارا»، والحاصل على ماجستير في التعاون الدولي والمساعدات الإنسانية - مركز فروياك وكالو للدراسات الإنسانية والمساعدات الدولية -أسبانيا-2009، وماجستير في دراسات السلام والتنمية من جامعة زالنجي 2013م، والذي يُعد بالنسبة لي كنزا معرفيا في قضايا بناء السلام بعد النزاع على المستوى المعرفي والميداني، وفور انتهائه من تعريفه بنفسه قلت له: «كيف تنظر لمشروع بناء السلام يا دكتور أبو بكر؟» فقال لي: «هذا المشروع-من وجهة نظره-مميز بعض الشيء عن باقي المشاريع الأخرى، بغض النظر عن عمله فيها، لأن المشروع تأسس كي يناسب البيئة المحلية، كما صُنع بأيادٍ عربية أفريقية ليراعي الخصوصية الثقافية للناس في المنطقة، كما أنه تم التخطيط له بشكل جيد وعميق.»

زممت شفتي مسرورا من إجابته، وقلت: «عظيم، وهل هناك إضافة أخرى فيه لم تراها في بقية مشاريع الإغاثة والتنمية، ودعم جهود السلم المجتمعي الأخرى؟»

فأجاب: «تعرف الصورة العامة عن الأعمال العربية في مجال التنمية المجتمعية، ودعم السلم العام للأسف هي غير احترافية، وغير مخطط لها بدقة، وهذا ما لم يحصل في هذا المشروع تحديدا، وسترى حجم التخطيط في الأيام التي ستقضيها معنا. وثانيا، معظم الأعمال التي قامت بها المؤسسات الخيرية الأخرى في الأقاليم، كانت مشاريع جزئية، دون فلسفة وخطة كلية جامعة. كما تقيم مشاريعا غير مستدامة، ولا تؤدي لتطوير حقيقي في حياة الناس ومعيشتهم، مثلما يأتي متبرع يريد أن يحفر بئرا في المنطقة، لكي يسقي الإبل والأنعام، ومن الممكن أن يُردم البئر بعد فترة لعدم وجود الصيانة، أو يتعرض الماء فيه للتلوث فيتحول من مصدر خير وعيش إلى بوابة للوباء! أو قد يأتي متبرع آخر يريد بناء مسجد في مكان ما، وبعد مدة لا يكون به مصلّون نتيجة لوضعه في مكان غير ناسب، وبعيدا عن تجمعات الناس، أو قريبا من مسجد آخر، أو يبني مسجدا بالأساس في مكان يحتاج الناس فيه لأولويات مثل الأكل والشرب والزراعة، فقوت الناس مقدم في النهاية على مسجد تصرف فيه عشرات الآلاف من

الدولارات، ويمكن للناس أن يصلوا أينما أدركتهم الصلاة، كما يقول الحديث. وكل هذه الأعمال المُتناثرة وجدنا أنّ العائد منها على الناس يكون متواضعا؛ لذلك نحن في الهلال الأحمر اعتمادنا على أسلوب تخطيط أكثر سعة ومركزية، مهتما بالكليات العامة، بهدف أن تخضع كل الأنشطة، والأعمال الخيرية، من بناء مساجد، ومدارس، ومستشفيات، وحفر آبار لفكرة بناء السلام، ويكون بينها ترابط وتناغم يؤدي في النهاية إلى بناء قدرة المجتمع على استئناف الحياة الطبيعة، معتمدا في النهاية على نفسه، وبدون انتظار مساعدات خارجية من أحد. فلو بُني مسجد جديد في المنطقة نكون حريصين على أن يؤدي دورا في بناء السلام، وألا يكون منبرا يُؤجج الفتنة بين المجتمع بخطاب غير ديني غير مناسب أو غير مسئول. ويتم ذلك من خلال اختيار الخطيب المناسب من أهل المكان نفسه، وتأهيله وتدريبه على تقديم خطب منحازة للتعايش والسلام والصفح والإحسان للناس أجمعين، وبناء غرف ملحقة بالمسجد لمحو أمّية غير المتعلمين، وتدريب بعض العاملات المتعلمات على تقديم التوعية الصحية والمشورة الأسرية لأبناء قُراهنّ. وهكذا، حفر الآبار لابد أن يخدم بناء السلام.» فسألته: «كيف سيخدم حفر البئر في بناء السلام؟»

فقال لي: «عند لقائك بالناس هناك في قرية أرارا، سترى كيف أن بناء البئر في منطقة ما، إذا لم تراع فيه شروط محددة وواضحة سيكون نقطة لتفجير أزمة جديدة بين الرعاة في المنطقة. وليس أداة تدعم فكرة الاستقرار المجتمعي.» ثم أردف قائلا: «إن البئر إذا بُني في مكان غير مناسب، ووقع بين قبائل متصارعة سيتحول إلى مكان يتجمع فيه المتخاصمون، وتقع بينهم مناوشات يومية بحكم الاحتكاك أثناء سقي القطعان، والحصول على الماء؛ فلابد أن نختار المكان بدقة بحيث يحول بين تقارب القبائل المتصارعة مبدئيا، حتى يُحل النزاع أوّلا، أو نُقنعهم بحل المشاكل بينهم، حتى نحفر لهم بئرا في المنطقة. وساعتها يمكن تحفيز الصلح بينهم من خلال حفر البئر مكافأة لهم على اختيارهم السلم والاستقرار بديلا عن الصراع والنزاع.»ثم أشار

الدكتور إلى نقطة غاية في الأهمية تتعلق بحفر الآبار في منطقة غرب دارفور وهي: عند حفر البئر لابد أن يُراعى أن الصراع في دارفور قائم بين قبائل الرعاة وقبائل المزارعين، وعند حفر بئر داخل قرى المزارعين سوف تأتي قطعان قبائل الرعاة، وتدخل إلى داخل القرية للحصول على الماء أثناء تحركها نحو المراعي. وهذا بحد ذاته يعد سبب لتفجّر النزاع، فدخول قطعان الإبل والأغنام والأبقار إلى تخوم القرية، يعنى أنها سوف تسطو على حقول الفلاحين، وتفسد الزرع فيها والمحاصيل. لذلك يجب حفر الآبار للرعاة خارج القرى، وبعيدا عن الحقول والمزارع، حتى لا نتسبب في مزيد من الأزمات للناس، ونحن نظن أننا نحسن صنعا للأسف.»

أحسن الرجل الإجابة، واستفدت للغاية من أول توجيه وتعليقات حول المشروع «الوئام» بالقرية، نتيجة إيجابية مبدئية على الأقل في اليوم الأول لوجودي مع الهلال الأحمر هنا.

في ختام النقاش مع الدكتور أبو بكر توضحت في ذهني فكرة ضرورة تسخير كل الأنشطة الخيرية والإنسانية التي تُقام في مناطق الأزمات، لصالح إعادة الوئام بين المجموعات المتناحرة، حتى تساعدهم في استرداد السلام المفقود والمنشود. ومع انتهاء الحديث المفيد مع أبي بكر صالح، يكون يومي الأول قد شارف على الانتهاء، هنا في مدينة الجنينة، وبدأ الليل في الحلول، وتحول نشاط الناس في المدينة إلى هدوء؛ فليس بالمنطقة وسائل تدفع الناس إلى السهر، وأنا بدأتُ أستعدُ للدخول إلى غرفتي استعدادا للنوم طلبا للراحة، بعد عناء السفر بالطائرة، وتعب ركوب السيارة في طرق وعرة غير مُمهدة، ويُضاف إلى ذلك عدم شعوري بالأمان التام. فمنذ تحركنا من المطار إلى الاستراحة وجدت أمامي مخيمات للاجئين كلما تلفت ذات اليمين وذات الشمال، وقوات دولية تتحرك، وقوات تابعة للحكومة تحرس المؤسسات الحكومية، وقوات تابعة للاتحاد الأفريقي تجوب أطراف المدينة. كل هذه المظاهر تُشعرك بأن

هذه المنطقة تسكن فيها الكراهية، ويسري بين جدرانها غضب مكتوم، قد ينفجر في أي لحظة. وقبل خلودي إلى النوم، تذكرت وصايا الطبيب لي من ضرورة الابتعاد عن قرصات البعوض تجنبا للإصابة بالملاريا؛ فهرعت إلى رش الغرفة بطارد البعوض، ولبست الجوارب السميكة التي لا يمكن للبعوض اختراقها، ورششت على جسدي الدواء الطارد للحشرات، وتدثرت بالغطاء جيدا، وحاولت أن ألتزم بكل ما أوصاني به «الشيخ حسن» رئيس المكتب بالتزام الهدوء، وعدم الخروج ليلا من المكان تحت أي ظرف إلا بالتنسيق معه ومع الحارس. ودخلت في نوم عميق بعدما بنيت خطوط دفاعي القوية ضد جحافل البعوض المُقاتلة.

الخلاوي المُسبحة

استيقظت على صوت شيخ يُكبر، ويحمد الله تعالى، فقلت في نفسي يبدو أن وقت صلاة الفجر قد حان، فقمتُ وتحركتُ في داخل الاستراحة استعدادا للوضوء والصلاة، فوجدتُ الشيخ حسن لا يزال نائما والحارس واقفا في مكانه، وقال لي: «خيرا يا أستاذ ياسر؛ لماذا تركت غرفتك الآن، وخرجت منها؟» فقلت له: «أريد أن أصلي الفجر.» فقال: «لم يحن ميعاده بعد، فمازال أمامنا ساعتان من الزمن حتى يحين وقت الصلاة!»، فعدتُ إلى غرفتي لأستكمل النوم، وقلت في نفسي ربما توهمت سماع آذان الفجر. وقلت للحارس لو تكرمت عندما يؤذن للصلاة أخبرني فقال: «حاضر.» ودخلت غرفتي لاستكمال النوم، ولكن بعد مرور ساعة سمعت الصوت نفسه مجددا، فقمت من مرقدي، وفتحت باب غرفتي، وقلت للحارس: «لقد سمعت الآذان الآن!» فقال لي: «ما يزال أمامنا ساعة أخرى.» فقلت له: «لقد سمعت الآذان.» فقال لي: «ليس الآذان يا أستاذ، إنه صوت خلاوي القرآن.» فقلت له: «ولماذا يرفعون أصواتهم هكذا في منتصف الليل، ويزعجون الناس؟» فقال لي: «الخلاوي عندنا هنا، يقيم فيها الطلاب مع الشيوخ في مسكن واحد كبير، يسع العديد

من الأطفال من كافة الأعمار، ويبدأ الشيخ في إيقاظ الطلاب لقراءة وحفظ القرآن من الساعة الثانية مساءً أي قبل الفجر بساعتين، من خلال قراءة الأشعار الإسلامية والتواشيح الإسلامية، ثم يصلون صلاة الصبح. بعد ذلك، يكملون دراسة العلوم الإسلامية الأخرى.»

هذه الواقعة جعلتني في حيرة من أمري، فكيف لأُناس بهذه المحافظة على الشعائر والتقاليد الإسلامية، ومحاولة الالتزام بقيم الإسلام أن ينزلقوا إلى الحروب الأهلية، التي يتحول فيها الإنسانَ الطيب الوديع ذي الصلة بالقرآن والعاشق له إلى مقاتل ومحارب يقتل جاره؟ كيف يجتمع هذا مع ذاك؟ ألم يليّن القرآن قلوبهم؟ ألم تجعلهم الشعائر والآداب التي يتعلمونها أكثر قربا من بعضهم؟ غريب!

عدت إلى غرفتي للمرة الثانية وانتظرت حتى مرت ساعة بالتمام والكمال، وسمعت الآذان بشكل واضح، وجاء الحارس إلي، وأخبرني بأن وقت صلاة الصبح قد حان هذه المرة، فتوضأت، وصليت داخل الاستراحة، إذ لا أستطيع أن أخرج منها وفق توصيات رئيس البعثة هناك.

وجلستُ بعد الصلاة أستمع إلى الإذاعات السودانية المحلية، فوجدتُ شيئا جيدا جدا، وهو أن معظم برامج المحطات الإذاعية تركز على فكرة بناء السلام، وعلى نبذ العنف سواء على مستوى المشايخ، أو النشطاء والجمعيات. فاستمعتُ إلى برنامجين، وكان خطابهما جميلا وداعما، ومؤكدا على ضرورة الالتزام بالسلم المجتمعي، ونبذ العنف والصراعات الإثنية والطائفية. وفي تمام الساعة الثامنة، أفطرتُ مع الشيخ حسن في فناء الاستراحة المُظلل بالأشجار. وسألته عن سبب تركيز المحطات الإذاعية على فكرة السلام المجتمعي في برامجها. فبودي أن أعرف هل الأمر مرتبط بمنهجية وخط سياسي ما. فقال لي: «بعد اتفاقية سلام الدوحة عام 2011، والتي وُقّعتْ بين الفصائل والحكومة السودانية، وبناء على توجيهات رسمية،

أصبحت الإذاعات تلتزم ببث كل ما يدعو للوئام والمصالحة، ونبذ العنف، والتمييز والكراهية.» رددت قائلا: «هذا أمر جيد وإيجابي، وأكثر الله منه.»

أفضل ما أعجبني في الافطار الذي جهزه الشيخ حسن لي هو بطيخ حلو المذاق، طعمه كأنه العسل، ولونه أحمر مضيء. فقلت له: «أنا لم آكل بطيخا بهذا المذاق الحلو منذ زمن، فمن أين تحصل عليه هنا ونحن في منطقة صراع» فقال لي: «يُزرع هنا في دارفور، وهنا عموما يا ياسر تُوجد ميزة ربما لا تجدها في مناطق كثيرة من العالم، وهي أن الزراعة هنا طبيعية مائة في المائة، فالناس لا يعرفون في دارفور ما هي الأسمدة ولا المبيدات؛ يضعون البذور قبل موسم الأمطار في بطن الوادي ولما يأتي المطر تنبتُ المحاصيل، ولا يضيفون لها شيئا من أسمدة أو مبيدات. ويتم جمعها، ثم بيعها في الأسواق مباشرة، ومن أفضل المحاصيل هنا هو البطيخ المحلي الذي يجمعه الناس من بطون الأودية، ويُباع بسعر زهيد جدا.»

الغريب في رحلتي هذه أنني كلما تحاورت مع الناس اكتشفت مكامن ثروة وقوة هذا الإقليم، ومدى تمتعه بالثروات والخيرات، التي لا تُعد ولا تحصى، والتي لو استُغِّلت بعيدا عن لغة الحرب والعداء لكانت مصدر قوة للإقليم، ولثراء الجميع، ولكن للأسف ما كل ما يتمناه المرء يدركه.

وبعد الإفطار تحركنا لزيارة مقر الهلال الأحمر القطري في مدينة «الجنينة»، فذهبنا بالسيارات ومع السير في طريق مختلف عن الذي سلكناه أمس من المطار إلى الاستراحة تأكد عندي الانطباع بأن المنطقة على فوهة بركان وأن الوضع قابل للانفجار في أي لحظة وفعلا أكد لي الشيخ «حسن» أن أي خلاف بين رجلين أو امرأتين يمكن أن يؤجج صراعا في المنطقة برمتها من جديد، فالسلام في «الجنينة» يُعد سلاما هشّا.

وأنا في السيارة لاحظت أمرا عجيبا لفت انتباهي، إذ وجدت محلا صغيرا

مكتوب عليه «سوبر ماركت الدوحة». فقلتُ للشيخ حسن: «ما المقصود بـ«الدوحة» في دارفور، هل جاء الاسم بشكل عابر، أم يُقصد بها الدوحة عاصمة دولة قطر؟» فُوجئت من رده إذ قال لي أن صاحب هذا المحل، هو من الناشطين الذين شاركوا في النقاشات المجتمعية التي أقيمت في الدوحة من أجل إنجاز اتفاقية السلام بين المتصارعين في الإقليم من جهة، وبينهم وبين الحكومة من جهة أخرى، وأنه سافر إلى دولة قطر على نفقة الحكومة القطرية، ليُشارك في مناقشات السلام، واستُضيفَ بها لمدة شهر. وهو من المقتنعين بأن خيار السلام هو الأفضل للإقليم وللجميع، وابتهاجا بهذا الأمر وامتنانا لـ«قطر»، فقد أطلق اسم «الدوحة» على المحل، تقديرا منه للجهود التي بُذلت في «الدوحة» من أجل إقرار السلام، لأن الوصول إلى «اتفاق الدوحة» لم يكن يسيرا إذ استمر الحوار والنقاش لإنجازه قرابة سنتين، فقد حرصت حكومة قطر على استضافة كل من له رأي اجتماعي مؤثّر في إقليم غرب دارفور، للحوار معه وإقناعه على الدخول في اتفاقية الدوحة. وبالفعل كنت قد رأيت مرتين على الأغلب وفدا من السودانيين يرتدون الزيّ التقليدي، ولما سألت، قيل لي حينها: «هؤلاء من دارفور من الخرطوم، قدموا لحل النزاع بالإقليم.»

وبعد نصف ساعة من خروجنا من الاستراحة، وصلنا إلى مقر «الهلال الأحمر القطري» بالجنينة، وهو مقر صغير، فتعرفتُ على باقي الفريق الموجود داخل المق. ولمست فيهم حرصا على العمل الإغاثي بحكم أنهم جميعا أبناء المنطقة، ويشعرون بالالتزام الأدبي والأخلاقي تجاه المنطقة، ويخدمون أهلها عبر تسهيل تنظيم وصول مساعدات «الهلال الأحمر» إلى سكان المنطقة بدرجة عالية من الاحتراف، رغم التحديات التي تحيط بهم، فجلسنا في مكتب الشيخ حسن، ومكثت في المقر حتى انتهاء ساعات العمل به وعدت مع الشيخ حسن للاستراحة، لكنستعد للسفر غدا إلى قرية أرارا حيث نُفّذ مشروع الوئام. فسألتُ الشيخ «حسن» عن الظروف الأمنية الموجودة في طريق أرارا التي سنسافر إليها غدا فطمأنني، قائلا: «ستكون معنا فلا

تخف، فوجودك معنا مُؤمّنٌ إن شاء الله.» والسائق سليمان محترف، وهو محل ثقة السلطات الأمنية، فأخوه أحد المسؤولين الأمنيين في منطقة «زالنجي» وهذا سيساعدنا بالمرور من الكمائن، واجتياز العقبات الموجودة طالما معك التصريح الأمني الصادر من الخرطوم. ولكنه أخبرني أن الطريق إلى قرية أرارا وعر جدا، وغير ممهد، ويحتاج إلى صبر وتحمل. ولما سألته عن الملاريا وحمى الضنك، طمأنني أن الهلال الأحمر قد ساهم في مقاومة حمى الضنك، وذهبوا لتطهير هذه الأماكن مع الحكومة، وقد تمت السيطرة على الحُمى. وقال لي: «لقد جهزت لك ناموسية معقمة ستحميك من البعوض، ولكن احترس إذ عليك قبل غروب الشمس بنصف ساعة أن تدخل تحتها، حتى لا تُلدغ من البعوض.» وبدأ يعطيني قائمة بالإرشادات الخاصة بكيفية التعامل مع الأحداث الطارئة، وأهمية ارتداء ملابس الهلال الأحمر، ووضع شعار الهلال الرسمي عليها؛ حتى أتجنب أي سوء فهم من السلطات، أو من حركات المعارضة.

وبعد التحاور مع الشيخ حسن جاء دور السائق سليمان ومساعده محمد الطيب في تجهيز السيارة، وتزويدها بالإطارات الإضافية، وتوفير زجاجات المياه. فالمياه الصالحة للشرب في الطريق معدومة وإذا وجدت تكون في الآبار الغير معقمة. وأخبرني السائق سليمان أن المسافة من مكان الاستراحة حتى قرية أرارا قرابة (١٠٠ كم)، وأنه سيقطعها في حدود من سبع إلى ثماني ساعات، وأنه لا توجد استراحات في الطريق!

استمر فريق الهلال الأحمر في تجهيز كل مستلزمات الرحلة من طعام وشراب وأدوات. وقاموا بالتواصل مع فريق مشروع الوئام المُقيم في «أرارا»، لمعرفة هل يريدون شيئا من مدينة الجنينة، وبعدما تأكد الجميع من الجاهزية للانطلاق في الصبح الباكر، تناولنا العشاء، ثم ذهب الجميع إلى غرفهم للنوم استعدادا للقاء غدا.

ملخص الفصل الثاني

* استعانة المؤسسات الإنسانية بفرق عمل محلية يجعل فرص نجاحها كبيرة.
* وضع معايير شفافة للعمل في مناطق النزاعات يجعل مصداقية المؤسسات مرتفعة. (يمكن الاستفادة من مشروع أسفير)[1]
* مقاومة الكراهية في المجتمع تحتاج إلى رؤية واضحة للمستقبل.
* الصور النمطية السلبية عن الآخر تحتاج معالجة فكرية عميقة.
* توفر العلاقات الجيدة بين مؤسسات العمل الإنساني والجهات الحكومية يوفر الجهد والمال.
* تهميش المكونات الاجتماعية يقود إلى الحروب الأهلية .
* من المهم الاستفادة من التجارب الآسيوية في علاج الكراهية والتعصب .

(1) http://www.sphereproject.org/sphere/ar/home/ شُوهد 2018/ 10/ 20

الفصل الثالث

(وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ)

سورة يوسف الآية 81

صارت الآن تأخذ ابنتها بلانكا معها لرؤية الفقراء محملة بالهدايا والمواساة وتخاطبها:

«هذا يفيدنا يا ابنتي في إراحة ضمائرنا، لكنه لا يساعد الفقراء فهم لا يحتاجون إلى الإحسان، وإنما إلى العدالة.»

بيت الأرواح - إيزابيل الليندي

مكثتُ في مدينة «الجنينة» يومين كاملين في زيارة المكتب الإداري «للهلال الأحمر» والتعرف على فريق العمل هناك، والاطلاع على الأوضاع الاجتماعية والثقافية العامة بالمدينة، استعدادا للانطلاق منها أخيرا نحو المشروع الذي جئت لرؤيته وتقييمه في منطقة «أرارا» في محلة البيضا. أخبرني الزملاء في الهلال الأحمر أننا لا يمكننا الانطلاق مباشرة من العاصمة الخرطوم إلى مكان المشروع لأمرين، الأول هو أنه لا يوجد طريق مُمهد يربط بين الخرطوم، ومحلة البيضا، والتي تقع في أرارا في زمامها الإداري، والأمر الثاني، أنه كان لابد عليّ من مقابلة بعثة الهلال الأحمر في غرب دارفور، بمدينة الجنينة، وهذا ما تم بالفعل. أدركت لاحقا مدى أهمية التوقف بالجنينة كي أستكمل معرفتي بالمشروع، والتي تزودت بها من المسؤولين عنه في اليومين اللذين بتّ فيهما في مقر الهلال الأحمر بالجنينة.

عدم الانحياز

بعد أدائنا لصلاة الفجر في مقر الاستراحة، بدأ فريق البعثة التجهيز استعدادا للذهاب إلى أقصى حدود غرب دارفور، وبدأ سائقنا سليمان في التأكد من سلامة السيارة وقدرتها على أن تشق بنا بطون الأدوية، وحواف المرتفعات، وتجمعات حشائش السافانا؛ إذ مصير الرحلة وسلامة الفريق بات مُعلقا في يد السائق سليمان؛ فهو العارف بخبايا الطريق، ودروبه، ومخاطره، ومدى بعده أو قربه من حقول الألغام التي خلفتها المعارك بين القبائل المُتناحرة.

استقل الذاهبون معنا للمشروع السيارة، وهم المهندس آدم إبراهيم الشيخ، الدكتور في جامعة «نيالا»، والدكتور أبو بكر علي صالح مدير المشروع الميداني، والشيخ حسن مدير مكتب بعثة الهلال الأحمر بغرب دارفور.

وبدأنا في التحرك من منطقة «الجنينة» متجهين غربا صوب الحدود الشرقية لدولة تشاد، حيث يتم تنفيذ مشروع «الوئام والسلام» الذي انطلق بعد اتفاقية الدوحة عام 2011.

أخذت السيارة تتهادى بنا في الطريق، وأنا غير مصدق انطلاقي كأني في رحلة سفاري كتلك التي كنت أشاهدها على شاشة قناة (ناشيونال جيوجرافيك). أشجار هنا وهناك، ونباتات تملأ الأرض، وصحراء نقية، وجو لم يلمسه التلوث. لم أجد أي قلق من سيرنا وسط صحراء التي كانت فيما مضى ساحة قتال عنيفة بين القبائل المتنازعة، فالأمور جيدة على الأقل حتى الآن، والأمر الآخر الذي طمأنني هو وجودي وسط قافلة من أناس وفروا حياتهم للعمل الإغاثي والإنساني، ونجحوا في كسب قلوب أهل المنطقة. فهم معروفون بها، ولهم ثقة وتقدير في نفوس كافة الأطراف المتنازعة، سواء من الحكومة، أو الحركات أو زعماء القبائل، لكونهم يعملون في مؤسسة إنسانية حيادية ليست منحازة سياسيا لأي طرف من الأطراف.

كانت فكرة عدم انحياز المؤسسة نقطة مهمة للغاية، برزت فائدتها المباشرة في مهمتي هذه؛ فعندما يكون هدف مؤسسات العمل الإنساني هو خدمة الإنسان بغض الطرف عن لونه، أو عرقه، أو انتمائه السياسي، هذا الأمر يجعل تحركها سلسلا، وتقديم خدماتها في أماكن النزاع ممكنا، وآمنا بحكم أن الجميع سيكون مُستفيد من جهود الإغاثة، ولا يقع عليهم ضرر ما من تواجد رجال العمل الإنساني وسط مناطقهم ومجتمعاتهم.

عدم انحياز الهلال الأحمر القطري في دارفور لطرف من الأطراف مكنه من الاستمرار في العمل الميداني هناك، بعدما قامت الحكومة السودانية باستبعاد كل المؤسسات الإنسانية الغربية العاملة في دارفور، باعتبارها حسب وجهه نظرها مؤسسات منحازة للمتمردين، حيث اتهمت الحكومة هذه المؤسسات بأنها تعد تقارير ضد الحكومة تستخدم ضدها في المؤسسات القانونية العالمية مثل المحكمة الجنائية الدولية.

أكشاك الفقر

«الفقر يجرد الحقيقة من أي تزوير كاذب»

(كاردينيا، آسف مولاتي)

تهادت بنا السيارة، حتى خرجنا من قلب الصحراء ودروب حشائش السافانا، لندخل قلب مدينة صغيرة إذ أخبرنا السائق أننا سنمر على سوق بعد قليل، وبالفعل لاحت لنا بنايات السوق الصغير على بعد عشرات الأمتار، وتوقفنا لشراء بعض الخضروات والحبوب التي سنحتاج إليها في رحلتنا، لكن منظر السوق كان يبعث على الأسى، ويكشف عن الفقر، وتردي الأوضاع الاقتصادية. فقد وجدت البائعين يجلسون في خيام ممزقة. وهناك على يمين السوق معسكر ضخم للنازحين تظهر

على جدرانه علامات الفقر، وآثار النزاع. بين كل خيمة وأخرى للبائعين عشرات المتشردين الذين يلبسون ملابس مهلهلة قديمة، تعري أكثر مما تستر. نساء يفترشن الرمل والأرض، وأطفال يتحلق حولهم الذباب والجوع والفقر.

قلت في نفسي: «أي نكبة أصيبت بها مجتمعاتنا لكي يتقوت مئات الآلاف من هؤلاء على الفقر والجوع؟ وإذا كانت هذه المشاهد المؤلمة بهذا الشكل ونحن ما نزال في الطريق، فكيف سيكون الحال إذن على بعد 100 كم؟»

انتهينا من التزود بالخضروات، وبعض المؤن البسيطة من السوق، ثم تابع السائق سليمان القيادة صوب قرية «أرارا»، وطوال الطريق حرصت على أن أُبقي نفسي يقظا قدر الإمكان في محاولة منى للحصول على أكبر قدر من المعلومات الجغرافية والاجتماعية التي تتصف بها منطقة الصراع، أدرك أن الوقت الذي امتلكه ضيقا، والتجربة صعب تكرارها، ووجودي هنا هذه المرة عبر عقبات عدة، كنت أحاول قدر الإمكان الحديث مع أفراد الفريق حول المكان، طبيعته، أماكن تمركز القبائل، أي جهات حصلت على المساعدات، وأيها لم يتحصل عليها بعد.

بئر مُعطل وطريق وَعر

«من يغامر بدخول الصحراء لا يمكن أن يرجع أدراجه. ومادام التقهقر مستحيلا، فلا يجب الانشغال بشيء سوى بأفضل طريقة للتقدم. والباقي بيد الله، بما في ذلك الخطر.»

(الروائي باولو كويلهو-رواية السيميائي «ساحر الصحراء»)

ساعدني بطء سرعة سير السيارة على رؤية تفاصيل الأماكن. فقد كانت السيارة مجبرة على السير ببطء لوعورة الطريق. فعلى الرغم من استخدامنا لسيارة رباعية الدفع إلا أن اجتيازنا الطريق لم يكن أمرا سهلا نظرا لوجود ارتفاعات، ووديان، وشعاب كثيفة، وأشجار تعطل الطريق، لدرجة أننا في مرات عديدة احتجنا أن ننزل من السيارة، ونسير على أقدامنا حتى نخفف العبء والحمل فلا تغوص عجلات السيارة في الرمال في بعض الأماكن. ومرة أخرى كنا نحبس أنفاسنا خوفا من سقوط السيارة من فوق إحدى الهضاب.

كنا نتقلب في السيارة بين مرتفع، ومنخفض وهضبة، ووادٍ سحيق! ومن خلال الحوار مع الفريق المرافق عملت أن هناك المئات من القرى والمدن التي يصعب التواصل فيما بينها نظرا لغياب الطرق المُمهدة، إذ حدثني الدكتور أبو بكر صالح أيضا بأن أزمة غياب الطرق المُعبدة في الإقليم يُعد من أبرز أسباب غضب الأهالي من الحكومة. وهذا بالطبع وفَّر لحركات التمرد حاضنة اجتماعية، وشعبية مؤيدة ومناصرة لهم. واستكمل الرجل حديثه قائلا: «إن انقطاع التواصل بين القرى والمدن مُعطل لحركة الناس والاقتصاد؛ فعلى الراعي الذي يريد بيع أبقاره في أحد الأسواق الشعبية المحلية، أن يخرج بها قبل موعد انعقاد السوق بأربعة أو خمسة أيام على الأقل، حتى يستطيع أن يدخل السوق يوم انعقاده ويجد فرصة لعرض أبقاره على المُشترين، والسير لمدة أربعة ليالي مشيا على الأقدام يُعرضه لجملة من المخاطر

قد تقع على نفسه أو على ثروته من الأبقار؛ مثل تعرضه للسرقة أو موت أبقاره من العطش.»

وبعدما تحركنا (قرابة 20 كم) دعانا الشيخ حسن إلى أخذ استراحة تحت ظل الشجرة وارفة الظلال، على يسار الطريق لأخذ قسط من الراحة، وتناول كوب من الشاي. فجلسنا وشربنا المياه، وتناولنا الشاي الساخن، وأثناء الاستراحة أطلقتُ بصري فيما حولي، فإذا أنا أمام غطاء نباتي ضخم من الأشجار والحشائش، يسعى فيها قطيع كبير من الأبقار. فتساءلتُ: «هل هذا القطيع يعودُ لأحد معين أو لقبيلةٍ محددةٍ؟» فأجاب الدكتور أبو بكر صالح أن كل هذا القطيع يعود لزعيم أحد القبائل. فقلت له: «هل تقصد أن ملكية كل هذا القطيع تعود له وحده، أم أن القطيع ملك القبيلة كلها وهو فقط يُشرف عليها؟» فقال: «لا، الأمر كما قلت لك. هذا القطيع كله ملك زعيم القبيلة وحده. فقلت له: «يا دكتور أبو بكر، إذا الإقليم به أغنياء مثل صاحب هذا القطيع؟» فقال لي: «نعم هناك رجال كُثر في الإقليم يملكون قطعانا تسد عين الشمس، لكن هذا لا يعنى أنهم أغنياء!» فقلت له: «كيف ذلك؟» فذكر لي بعدا اجتماعيا ونفسيا واقتصاديا صادما ومفاجئا. إذ قال: «العديد من الرعاة في الإقليم الذين يملكون قطعان كبيرة الأبقار، والتي تُقدر بمئات الآلاف من الجنيهات يعانون من الفقر والمرض!» فقلت له: «لماذا هذا التعارض الصارخ بين إنسان يملك مفاتيح الثروة لكنه في نفس الوقت يرزح تحت نير الفقر والمرض؟» فأجاب: «الثقافة الاجتماعية السائدة هنا تحدد حجم حضورك الاجتماعي، ومدى مكانتك في المجتمع الذي تعيش فيه بعدد ما تمتلك من أبقار.» فكلما امتلك الشخص قطيعا أكبر من البقر، كلما ارتفعت مكانته الاجتماعية، وزاد تقدير الناس له والعكس صحيح.

سلّم الصعود الاجتماعي هنا يعتمد على مقدار ما لديك من قطعان الأبقار،

المشكلة المرتبطة بهذا الأمر أنه يُعد من العيب والعار أن يُقدم الراعي على بيع أي بقرة أو ثور من القطيع. فالأبقار التي لديه في القطيع تستخدم فقط لمسائل اجتماعية محدودة كمهور للزواج، أو تُدفع كديّات في حوادث القتل، وغير مقبول أيضا بيع ألبان الأبقار والاستفادة منها ماليا! فإذا فعل ذلك أحد، نقص رصيده من الاحترام والتقدير بين الناس. لذلك تنتشر هناك قصص مذهلة تتعلق بهذه القضية، وما ينتج عنها من آثار اجتماعية واقتصادية منها على سبيل المثال أن الراعي الفقير إذا تصادف مرضه مع مرض إحدى بقراته، وكان لا يجد نقودا تكفي لعلاجه وعلاج بقرته معا في نفس الوقت، ستجده بدون تردد يُقدم علاج البقرة أولا قبل أن يُعالج هو نفسه! فقلت له: «هل هذه التقاليد والعادات مُنتشرة في السودان؟» فأجاب: «نعم، إن هذه الثقافة الاجتماعية مُنتشرة في مناطق سودانية عديدة أخرى مثل كردوفان، لدرجة أن الحكومة عندما أقامت مصنع بابنوسة في عام 1968م لإنتاج الألبان المجففة هناك لم تحصل على الألبان الكافية لتشغيل المصنع؛ لأن ملّاك الأبقار كانوا لا يبيعون الألبان إلا في نطاق ما يُوفر لهم من نقود تكفي لشراء حاجياتهم البسيطة ولا يزيدون، على الرغم من أن المصنع قد وفر لهم شاحنات صهريجية مبردة، لكي تصل أصحاب الأبقار في مضاربهم، إلاّ أن هذه الشاحنات لم تكن تعود إلاّ بالنزر اليسير، فاضطر المصنع أن يحول نشاطه إلى إنتاج الكركديه والصمغ العربي.»

بعد أن أخذنا قسطا من الراحة، طلبنا من سائقنا سليمان سرعة التحرك، وذلك حتى نصل إلى قرية أرارا قبل حلول الظلام والذي عادة ما يحمل معه جملة من المفاجآت غير السارة للعابرين في هذه المناطق المحشوة بالنار والبارود والغضب.

«إن العالم مصمم ليُلبي احتياجات الإنسان ولكن غير مصمم ليلبي أطماعه»

المهاتما غاندي

عندما كنت أنظر وأنا جالس في السيارة على يميني ويساري، أرى مساحات مترامية من الأراضي الصالحة للزراعة، فسألت أبا بكر: «هل تتوفر مصادر للمياه في المنطقة بوفرة؟» فأجاب «نعم»، فقلت له: «لكني لا أرى حولي لا أنهارا ولا تُرع!» فقال لي: «وفق العديد من الدراسات، غرب دارفور تسبح فوق محيط من المياه الجوفية!» فقلت: «حتى لو هذا صحيح فربما هذه المياه على أعماق سحيقة، لا طاقة ولا قدرة للرعاة والفلاحين الفقراء أن يصلوا إليها.» فتبسم ضاحكا من قولي، وقال لي: «يا أستاذ ياسر لو حفر الناس لمسافة مترين فقط، أو ثلاثة أمتار، ستتدفق المياه.» إجابة أبو بكر على سؤالي زادت من حيرتي، فقلت في نفسي: «أرض طيبة، وماء عذب، وأنعام تسُد عين الشمس، والناس في دارفور يتضورون جوعا!»

هذا التناقض الذي شاهدته بين ثروات وضعها الله في هذه المنطقة، وبين انتشار الجوع والمرض جعلتني ألوذ بالصمت مُفكرا في الأسباب التي جعلت الناس تزهد في استغلال مواردها بشكل جيد. تردد تعبير «تزهد» في عقلي. لا أريد أن أحكم على الناس في ظروف لم أعرفها كلها بعد! لا أريد أن أتحامل عليهم أكثر مما ينبغي.

بعد بُرهة من الوقت تذكرت أن المنطقة يغيب عنها الأمن والاستقرار منذ زمن، ودخلت في دوامة من الكراهية والغضب، وتحاربت مكوناتها القبلية مع بعضها، لذا كان انحرافها نحو أمراض الفقر والمرض والجوع أمرا محتوما؛ فغياب الأمن يجعل الثروات والقدرات الكامنة لا قيمة لها. من الذي سيُقدم على عمارة المكان وهو مُهدد بالقتل، أو يسعى لافتتاح مصنع لتعبئة المنتجات الزراعية وهو يتوقع أن تلتهم نيران المعارك مصنعه غدا أو بعد غد.

كما ساهم شعوري بهذا التناقض بين توفر الموارد وعجز الإنسان عن استغلالها إلى

التشكيك في صحة نظرية ندرة الموارد على الأرض والتي يعتبرها كثير من الباحثين السبب الرئيس في الصراع بين البشر[1]، فقد رأيت بأم عيني إقليما مترامي الأطراف، لو زرع قمحا فقط، للبى حاجة سكان القارة السمراء من الطحين والخبز، لكن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان هو الذي يحُول دون تقاسم البشر للخير والنعم كما قال الزعيم غاندي: «إن العالم مصمم ليُلبي احتياجات الإنسان ولكن غير مصمم ليلبي أطماعه.»

وبعد هذا الصمت والتفكير في موضوع العلاقة بين الثروة والنُدرة، ارتفع صوت العم سليمان وقال: «يا جماعة! الحمد لله لقد قطعنا نصف الطريق الآن بأمان وسلامة، ربنا يكمل لنا الرحلة على خير.» وطلب منا قراءة الفاتحة، والصلاة على الرسول طلبا للنجاة والسلامة والتوفيق في اجتياز المسافة الباقية.

لكن بعد أن قطعنا عشرة كيلومترات متجاوزين منتصف الطريق، ثُقب أحد إطارات السيارة في منطقة منحدرة جدا ومرتفعة، فكان التحرك السريع من الشيخ حسن إذ طلب منا النزول سريعا، حتى لا تنقلب السيارة، وبدأ في تبديل عجلة السيارة المعطوبة بأخرى سليمة. ونتيجة لثقل السيارة، وما بها من أغراض وأدوات ومياه؛ طلب منا العم سليمان إفراغ حمولة السيارة، حتى يتمكن من نزع الإطار المثقوب وتثبيت الجديد. إلى هنا، كانت الأمور عادية وطبيعة ما حدث للسيارة هنا، حادث عارض قد يحدث مثله في أي طريق وسط المدينة، ولكني لاحظت أن هناك توترا على قسمات وجه أبي بكر فاقتربت منه وقلت له: «خيرا دكتور لماذا أشعر أنك قلق؟» فقال: «إن قُطاع الطرق أو المتنازعين هنا يعتبرون تعطيل أي سيارة فرصة لاصطيادها والاستيلاء عليها وخاصة عندما تكون رُباعية الدفع مثل سيارتنا هذه؛ لذا يجب علينا الإسراع في إصلاح السيارة قبل أن ينتبه أحد من هؤلاء الأوغاد لنا.» وهذا ما تم والحمد لله سريعا.

(1) سامي الخزندار، إدارة الصراعات وفض المنازعات، مركز الجزرة للدراسات، مرجع سابق

دُمرة أم إدريس

أوشك الطريق أخيرا كما لاحظت من حديث السائق أن ينتهي، وكدنا أن نصل للقرية المبتغاة، لكن قبل وصولنا إلى قرية أرارا بمسافة 25 كيلومترا فُوجئت بالشيخ حسن يقول: «أنا جهّزتُ لكم مفاجأةً!» فتشوّقت لما يخبّئه لنا، ولكن سريعا قال: «سننزل في فندق خمس نجوم على الطريق. فهذا الفندق يُعد من الفنادق النادرة في دارفور.» استغربت جدا من كلام الشيخ حسن، لم أتوقع بالمرة مسألة فندق خمس نجوم بهذه المنطقة المقفرة، ثم قلت: «ربما بنَتْ أحد الدول فندقا هنا رحمة بالعاملين في مجال العمل الإغاثي والإنساني.» وبعد سيرنا قرابة خمسة كيلومترات بالسيارة قال الشيخ حسن: «تفضلوا لقد وصلنا.» فإذا بي أجد نفسي أمام خيمة كبيرة متهالكة لا تقوى على صد الرياح، ولا منع أشعة الشمس من التسلل عبر ثقوبها الواسعة. ووجدت في وسطها امرأة كبيرة في السن لكنها مُفعمة بالنشاط والبهجة! فقال الشيخ حسن: «هذا فندق «أم إدريس» يعرفنا ونعرفه، ومديرة الفندق صديقة لنا، وتحب أعمال الهلال الأحمر في المنطقة.» فبدَتْ على وجوهنا ووجهها الضحكة والابتسامة، فقلت للشيخ حسن: «ما حكاية فندق أم إدريس يا مولانا؟» فقال: «فندق «أم إدريس» يُسميه الإقليم «دُمرة أم إدريس»، وهذا يُعبر عن حدث اجتماعي معروف بهذه المنطقة، إذ عندما يخرج الرعاة للرعي في الإقليم، يتركون النساء والأطفال خلفهم في الخيام، وتكون هناك قائدة لكل هذا الجمع من النساء والأطفال، وعادة تكون هي أكبرهن سنا؛ لتشرف على رعاية أمور المجموعة، وذلك حتى يعود الرجال من رحلة الرعي والتي ربما تمتد شهورا.»

تذكرت للتو قصة الفيلم المصري الرائع (عرق البلح). يا الله! الفيلم مزيج من الواقعية والسحرية، صورة من الحاضر ممزوجة بخيال الكاتب والمخرج، قرية فقيرة للغاية في منطقة بعيدة بقلب الصعيد المصري. هناك حيث الجنوب، الصعيد

المهمش والفقير، أرض القبائل والعائلات والعادات والتقاليد والأعراف المتمكنة من قلوب الناس أشد حتى من تمكن الدّين منها.

الفيلم الذي يُروى على لسان الجدّة الكبيرة، يتحدث عن غريب أتى للناس بالقرية، ليطلب منهم الذهاب للخليج للعمل، في ظلّ احتياجهم الشّديد لأي عون مادّي يساعدهم على مواجهة شظف الحياة وفقرها، وبالطبع يستجيب كل شباب القرية ورجالها. وتلمع في أذهانهم الأحلام التي سوف يحقّقونها من السّفر. فيسافر جميع الرّجال لتحقيق حلمهم فيما عدا الجدّ العاجز، وحفيده أحمد، ومجموعة كبيرة من النّساء. وهنا نجح الكاتب والمخرج في رسم صورة الهجرة المؤلمة لعشرات الآلاف من المصريين الذين هاجروا في سبعينيات القرن الماضي، والذين أجبروا على الرّحيل وترك نسائهم بلا عائل أو أمان. ورمز الكاتب لوحش الغربة بذلك الغريب ورجاله، وما يدور حولهم من غموض، فلا أحد يعلم من هو ومن أين أتى.

تدير الجدة الكبيرة أمور القرية في غياب رجالها، وتعاني النساء الحرمان في انتظار رجالهن، وتغشى الأحلام قلوب الرجال الذين تسابقوا إلى المجهول رغبة في حمل أدوات الحداثة لبيوت الطين الفقيرة.

الفارق هنا أنه لا حداثة مسيطرة بعد، الرجال هنا يهاجرون من طرف منطقة إلى طرف آخر بذات المنطقة، يسافرون وقريتهم معهم معنويا وماديا، لكن هناك في الصعيد، وفي قرية تشبه قريتي يهاجر الرجال من عالم إلى عالم آخر. ويعودون كالأشباح، ليجدوا الشباب وقد أمسوا كهولا وشيوخا، وليجدوا الكهول والشيوخ قد أمسوا موتى، أو في ذاكرة النسيان، وليجدوا القرية التي تركوها مدينة صغيرة، محت الحداثة شكل شوارعها القديمة.

ورد هذا التشابه إلى عقلي، وأنا أنظر للمرأة وهي تعد لنا الشاي على كومة من الحطب المشتعل.

حادثتها، فوجدتها تتمتع بالحكمة والإرادة والعقل الراجح، وكأني أمام امرأة من العرب القدامى، طويلة البال، قليلة الكلام، لا تنطق إلا بكلمات موزونة للغاية محسوبة، من أين أتت تلك المرأة بكل تلك الصفات؟

قدمت لنا أم إدريس كوبا من الشاي المصنوع على الحطب، وخصتني بكوب كبير، ابتسمت، فقالت: «أنت ضيفنا مرتين، لأنك لست من أهل البلد، ولست من أهل المنطقة.» شكرتها على صنيعها، وحسن منطقها، ارتشفت من الشاي، الذي ذكرني في جلسة عم عبد الفتاح المنياوي الذي كنت أجلس في حقله في إجازة الصيف بقريتنا، والتي كان المشروب الوحيد فيها والأوحد هو الشاي الصعيدي المُعد على نار هادئة من الحطب، والقش، والمُضاف إليه النعناع الأخضر. وبعد تناول الشاي من يد الست أم إدريس تمددنا على الأرض حتى نعطي لظهورنا المتعبة فرصة للاستراحة، بعد مكابدة الضغط والثني والمد الذي تعرضت له نتيجة وجود الحفر والمنحدرات في الطريق إلى آرار، ثم جلسنا وتناولنا أيضا بعض البطيخ، فهو شيء متوفر في المكان بكثرة، ومن خلال طريقة كلام الشيخ حسن مع أم إدريس علمت أن التعارف بينهم قديم.

وقبل مغادرتنا للخيمة وزّعتْ علينا الحلوى «الدارفورية»، واستغربتُ أنا من توزيع هذه الحلوى. فسألت الشيخ حسن: « لماذا هذه الحلوى؟» فسألها هو بدوره فأجابت قائلةً : « أن زوجة ابنها وضعتْ طفلا منذ ساعة في الخيمة المجاورة، وأنها هي التي قامت بتوليدها» . فباركت لها على المولود وسألت الله أن يهب لأم الطفل وللطفل الصحة والعافية، إذ كيف ونحن في هذا العصر من التقدم لا تجد امرأة مستشفى تلد فيها! ولكن لا غرابة في ذلك إذا كان لا يوجد بالمنطقة طريق لسير الناس فهل نتوقع أن تُبنى بها مستشفيات للولادة!

اقتربت في مجلسي من الدكتور أبو بكر صالح، سألته عن أم إدريس، وعن وضعها هنا، ووضع غيرها من النساء، ففُوجئتُ بأن المرأة في دارفور لها دور رئيسي وخطير في هذه المجتمعات، وهي تكاد تكون محور الحركة الاجتماعية والثقافية في المجتمع. تذكرت حينها حديث صديقي الذي يدرس الأنثروبولوجيا، حيث أخبرني أن في أغلب المجتمعات التقليدية (التي تسمى لدى البعض المجتمعات البدائية وهي تسمية لا أحبذها) للمرأة دور كبير للغاية. أستغرب في ذهني: كيف تجتمع فكرة التقليدية وعدم وجود نوع من الحضارة أو المعرفة الكبيرة، ولا تزال المرأة تحتفظ بهذه المكانة؟

أردف أبوبكر قائلا: «لك أن تعلم، أن وزراء دفاع القبائل في دارفور كلهن من النساء، ففي كل قبيلة في «دارفور» وزير دفاع يكون دائما منذ فجر تاريخ المنطقة امرأة.» فتعجبتُ جدا! فقال لي : «لا عندنا في غرب السودان نساء يُعرفن بـ«الحكّامات»، وهن الشاعرات اللواتي يقضينَ في كثيرٍ من القضايا، وتقع على عواتقهن مسؤولية الشحن العاطفي للرجال الشباب للحرب أو السلام؛ فإذا «الحكّامة» أمرت بالحرب فلا بد أن تستجيب جميع القبيلة لندائها وإذ جنحت للسلم فلا بد أن تجنح كل القبيلة لدعوتها لخطورة مكانتها الاجتماعية في نفوس الناس، وإذا وصَمَتْ أحد الأفراد

بالجبن والخوف ستلزمه وترافقه هذه الصفة أبدا الدهر، حتى تقول فيه شعرا آخر ينفي الشعر الأول الذي وصفته فيه بالجبن والخوف، فالقبائل كلها حريصةٌ جدا على إرضاء «الحكّامات» فيها.»

يُعتبر كلام الدكتور أبو بكر كاشفا عن تأثير المرأة في المجتمع «الدارفوري» فهي المربية، وهي الحاضنة التي ترعى الأسرة، وتقوم بشؤونها وخاصة في القبائل الرعوية التي يغيب عنها الرجال لفترة طويلة للرعي وحماية القطيع، فتقوم المرأة بهذه الأدوار. إذ يؤثر دور المرأة بشكلٍ قويٍّ جدا في الإقليم، فهذا ملمح اجتماعي وثقافي من المهم فهمه عند التعامل مع قضايا نزع العنف، وبناء السلم المجتمعي، إذ لا يمكن لجهود بناء السلام أن تنجح في الاقليم إذا تم استبعاد دور المرأة، وتأثيرها في هذا المجال.

وادي الموت

غادرنا فندق «أم إدريس» وأكملنا مسيرتنا نحو قرية أرارا حيث مشروعنا، لكن بعد ما تحركنا لمسافة (10 كم تقريبا)، شاهدت على يمين الطريق إحدى القرى المتضررة من النزاع، ولاحظت فيها مشاهداً يندى لها الجبين. فمسجد القرية مُحترق وبجواره توجد قطعان من الأبقار الميتة. والقرية كلها عبارة عن أطلال متراكمة مهجورة من الناس! وتجاوزنا القرية المنكوبة، وإذ بالسائق سليمان يطلب منا الحذر، وربط الأحزمة، فسألناه: «لم؟!» فأخبرنا: «إننا قريبون للغاية من «وادي الموت»، خذوا حذركم منه!» فقلت له: «ماذا تقصد بـوادي الموت؟» فقال: «في فصل الخريف، يكون هذا الوادي ممتلئا بالمياه، وكأنه نهر متدفق يجري بشدة. وفي العام الماضي، جاءت إحدى البعثات التابعة للأمم المتحدة، وكان قائد البعثة جنرالا، امرأة من دولة «فيجي». وكانوا ذاهبين في مهمة سريعة لرصد إحدى نقاط تفجر الصراع، وبدأ

المطر يهطل ساعتها بكثافة في هذا الوادي الذي له فروع متشعبة ممتدة تصب فيه أطنانا من مياه الأمطار. حينها أمرت قائدة البعثة فريقها المكون من ثلاث مركبات مملوءة بالجنود بسرعة اجتياز هذا الوادي، وكان المطر يتساقط بغزارة، كانت القائدة تعتقد أن المنطقة برية، والمطر في النهاية سيتم تصريفه في باطن الأرض، ولكنها للأسف لم تكون مُدركة لطبيعة المنطقة الجغرافية. فباطن الوادي نفسه ممتلئ بالمياه الجوفية، وبالتالي فالمياه المتسربة والنافذة إليه قليلة للغاية، وتدفُّق المطر المُنهمر سريعا صنع نهرا جارفا ملأ ضفاف الوادي. واستجابت القوات للأوامر ونزلت في بطن الوادي، وما هي إلا عشرة دقائق حتى جاء سيل متدفق من يسار الوادي مُحملا بالماء والطين والحجارة، وجرف سيارات البعثة إلى مسافات بعيدة. وتسبب في وفاة من خمسة إلى ستة جنود من البعثة، فضلا عن عدد آخر من الجرحى.» وتابع سليمان حديثة قائلا: «كانت سيارات البعثة مجهزة فعلا لتجاوز الصعوبات، ولكن للأسف عدم دراية قائدة البعثة بجغرافية الوادي المُناخية، تسبب في فقدان كل هذه الأرواح.»

لا أدري لماذا تغاضت هذه القائدة عن الاستعانة بمرشد ودليل من أهل المكان، فالاعتماد على أناس من أهل المنطقة العارفين بجغرافيّة الأرض، وطبيعة السكان، وأحوال المُناخ يُقلّل من المخاطر والخسائر التي يمكن أن تصيب العاملين في مشاريع الإغاثة، ونزع العنف.

بعدما تحرّكنا هذه المسافة الطويلة، قطعنا فيها الصحاري الواسعة، والوديان، وتجاوزنا تلالا ومنحدرات، ها هي ذي قرية «أرارا» تلوح هناك في الأفق، وقد بدا الغطاء النباتي حولها كثيفا بالغ الخضرة. وكلما اقتربنا منها أكثر وجدنا معالمها مختلفة عن القرى التي مررنا بها. فالقرية مُحاطة بغطاء كثيف من النباتات، والأشجار الكبيرة الكثيفة، والمزارع الخضراء. أدركت لتوّي أن القرية انصرفت عن النزاعات التي حاقت بغيرها، وأن أهلها انصرفوا للرعي والزرع، فالقرى التي مازالت متورطة

في الحرب والصراع، لا تجد بها لبنة قائمة على أصولها، ولا حقلا ترتع فيه البهائم، ولا مسجدا يتراحم فيه الناس، ولا سوقا تُتبادل فيه المنافع.

ها نحن على أعتاب القرية، وقفنا للحظات بالسيارة من أجل مرور قطيع كبير جدا من الأبقار. يبدو أنها خارجة من أرارا مع رعاتها متجهة إلى المراعي خارج محيط القرية. سررت بمنظرها للغاية، خصوصا بعد إحباطي من رؤية القرية المحترقة السابق ذكرها، وبدخولنا من بوابة القرية بسلام يكون قد تحقّقنا مقصدنا الأول من هذه المهمة، وهو الوصول إلى مكان تنفيذ مشروع الوئام، وبقي أمامنا أن نبحر في شوارع ونفوس أهالي أرارا، كي نرى أثر مشروع الوئام في حياة للناس، وكيف أعاد الأمن فيها من جديد، بعد مرحلة طويلة من الصراع والنزاع.

دخل السائق سليمان من بوابة القرية الغربية قُبيل غروب الشمس بساعة تقريبا، واقتربت السيارة من تجمعات خيام مستديرة، تبدو كأنها براميل ضخمة، لكنها من قش، ولها أبواب من خشب. فسألت أبا بكر عنها، فقال: «هذه تُسمى هنا «قطيّة» أو «قطاطي» وهي عبارة عن بيت مبني من القش القوي الكثيف يُؤخذ من حشائش «السافانا» التي تُجمع بجوار بعضها البعض بإحكام بالغ بما لا يسمح بتسرب المطر داخلها، ولا دخول أشعة الشمس إليها.

وكل عائلة ربما تسكن في «قطيّة واحدة» أو مجموعة من «القطاطي» التي يحوطها من الخارج سور منخفض الارتفاع من الطين والقش. وهكذا هي معظم البيوت الموجودة في القرية، فقلّ أن تجد بيتا مبنيا من الطوب أو من الإسمنت أو من الخرسانة المسلحة. فغالبا كل السكان يعيشون على هذا النمط المعيشي من السكن، تحت الأشجار وسط حشائش السافانا وفي أطراف القرية.

حينما رأيت هذا النمط المعماري البسيط المتوافق مع هوية المكان، وطبيعة البيئة، تذكرت أننا ابتلينا منذ عقود بنمط معماري سخيف. غابات من الإسمنت التي

تجلب الحر صيفا، والبرد شتاء، عمائر الزجاج والألومينتال المناسبة للجو البارد، جلبناها نحن في مناطقنا الحارة، العمارات المرتفعة ذات الشقق الضيقة كي تناسب أكبر عدد ممكن من السكان الذين يتم حشرهم حشرا فيها، النوافذ المعدومة لصالح مكيفات تستهلك أكبر قدر ممكن من الكهرباء، أي جحيم نستنزف فيه أعمارنا من أجل شرائه بأموال ضخمة، في الوقت الذي يمكن أن نسكن في بيوت أكثر بساطة، بأموال أقل، وسعادة أكبر.

مررنا بسوق شعبي يعرض الفلاحين والمزارعين فيه منتجاتهم البسيطة جدا، مثل الطماطم وبعض أنواع الفاكهة، المحدودة، رغم عدم وجود تنوع كبير في المحاصيل المعروضة في السوق، إلا أنك يمكن أن تأكلها باطمئنان، بدون قلق من الهرمونات، أو سموم المبيدات. وبجوار هؤلاء الفلاحين تجد مجموعة من النساء يقدمن الشاي وبعض المشروبات الساخنة مثل الكركديه للراغبين، فالسوق عبارة عن مجموعة من الخيام المُتقاربة والمُتشابكة والتي تتم تحتها عمليات البيع والشراء، فطابع البساطة هو المُهيمن على فضاء القرية، لكني لاحظت بعضا من مقرات الجمعيات الخيرية مثل فرع لمؤسسة «الفاو»، ولكن معظم هذه المقرات مُغلق بأمر من الحكومة السودانية، بعدما سحبت هذه الأخيرة منها تراخيص العمل منذ فترة.

كان في استقبالنا في مبني متواضع وسط القرية كل من السلطان، وهو الحاكم القبلي في المنطقة، وأيضا «الفُرشة» الذي يقع في درجه اجتماعية أقل من السلطان في التراتبية القبلية، والعديد من الشيوخ في القرية، والشيخ يُقصد به في القرية هو الرجل الذي يُمثل قرابة خمسين أسرة موجودة في القرية ويتحدث باسمهم أمام الحكومة والسلطان. وبعد الجلوس معهم والتعرف عليهم سريعا، وشرح فريق الهلال لمهمتنا في القرية، وطلب مساعدتهم لنا، قابلونا بالحفاوة الشديدة، وعرضوا علينا المساعدة ما رغبنا فيها. شكرناهم ثم أسرعنا في التحرك حتى نلحق بمقر الإقامة في مجمع

الخدمات الذي تأسس لخدمة مشروع الوئام، قبل غروب الشمس، حتى نتجنب لدغات البعوض الناقل لحمى «الملاريا»، والذي يبدأ في البحث عن ضحاياه فور الغروب. فوفق توصيات الأطباء والعاملين في الهلال الأحمر، أفضل طريقة لتجنب الإصابة بالأوبئة أثناء تواجدنا في القرية، هو تجنب لدغات البعوض من خلال عدم الخروج ليلا بعد غروب الشمس، واستخدام المبيدات المضادة للبعوض، واستخدام ما يُعرف بالناموسية أثناء النوم.

وفور وصولنا إلى مقر مجمع الخدمات في القرية، بدأنا في إنزال الأغراض والحقائب من السيارة، والتوجه بها إلى مقر الاستراحة في داخل المُجمع، ثم قام أحد المشرفين بتوزيع غرف النوم على أفراد الفريق، وبعد أخذ قسط من الراحة، قام بعض أفراد فريق الهلال الأحمر الموجود في مجمع الخدمات، والمتواجد به بشكل دائم بإعداد العشاء لنا. وعلى العشاء تعرّفت على جميع العاملين في مقر الخدمات.

بعد الانتهاء من العشاء، أحسست بخدر شديد يتسلل إلى جسدي، أحتاج فعلا لراحة ونوم هادئ، بعد هذه الرحلة الشاقة، والمغامرة المشحونة بالأسئلة والمراقبة والملاحظة، فاستأذنت من الجميع للذهاب إلى النوم، ولكني تذكرت أنني لم اتصل بزوجتي بالدوحة. كنت أريد أن أطمئن عليها وعلى أولادي، وأخبرها أني قد وصلت أخيرا إلى القرية التي يتواجد بها المشروع. للأسف وجدت هاتفي قد أصابه الصمم، فنحن في منطقة لا توجد بها تغطية، ولا شبكة اتصالات، سألت نفسي: «ماذا لو حدث طارئ هنا، كيف يتواصلون مع الخرطوم أو مع الجنينة؟!»

التزمت بالتعليمات، فارتديت جوربا طويلا سميكا، ودهنت أطرافي بكريم طارد للبعوض، ووضعت الناموسية حولي، ثم غصت في نوم عميق هادئ، لم أذق مثله من فترة. هدّني التعب، والرحلة الطويلة، وحاجة جسدي الملحة لراحة بعد فترة بحث وقلق واضطراب شديد، وكأني أذوق النوم لأول مرة منذ فُتح حديث المشروع لأول مرة مع نصر الدين في قطر.

اليوم الأول في «أرارا»

مع شروق الشمس تحركت من غرفتي، وبدأتُ تجهيز أدواتي، ومحاولة كتابة احتياجاتي من فريق الهلال، ووضع تصور لما يمكن فعله في اليوم الأول في القرية. وبما أن الهدف الرئيس من هذه الرحلة هو تقييم نتائج ومخرجات مشروع الوئام، وأثره في المنطقة، فقد عاودت التفكير في فلسفة الطريقة والآلية التي سأقيم بها المشروع، فهل سأعتمد فقط على منهجية تقييم المشروع من داخله وفق الأهداف الموضوعة له من قبل الجهة المنفذة، مثل التحقق من مساهمة المشروع في عودة الوئام والانسجام، وعودة النازحين إلى القرية، وإنشاء مجمع للخدمات، وكفالة الأيتام، والموجودون، وعمل المزرعة وهكذا، فضلا عن أن أتأكد بنفسي من تحقيق هذه الأهداف على الأرض بشكل حقيقي، وأختبر بالفعل عمل لجنة «الوئام» الخاصة بالمصالحات، وحجم وجودها على الأرض، ومدى جودة المهام التي تقوم بتنفيذها، وكذلك تقييم لجنة حماية المحصول الزراعي للمزارعين، وأن أراجع عمل لجنة المرأة، أم يمكن إضافة منهجية أخرى، وآلية أخرى تكشف عن حجم المُنجز من غير المُنجز في المشروع؟

فبدأت بسؤال الدكتور «أبو بكر» عن تقييمه الشخصي لنتائج المشروع، فهو الرجل القائم على كل تفاصيله، ووهب أغلب يومه لإدارته، فقال لي أنه يعتبر مشروع الوئام من أنجح المشاريع التي عمل فيها في منطقة دارفور تحديدا، وذلك لأن المشروع تمكن من تحقيق أهداف اجتماعية وثقافية وحياتية-في رأيه-تُصعب كثيرا من فرص عودة الناس في القرية إلى العنف مرة أخرى.

ثم قام بتفصيل كلامه وفق التالي:

* نجح المشروع في عودة القبائل إلى المُصاهرة فيما بينها، وهذا الأمر لم يكن موجودا بالمرة تماما قبل بدء المشروع.

* تكريس حالة الأمان في التنقل بين الطرقات، وعقد عهود الأمان لخلق حرية في تنقل البشر بين أرجاء القرية بأمان.

* قدوم المؤسسات الإنسانية والإغاثية الأخرى للعمل بالمنطقة، والدخول مع الهلال الأحمر في شراكات، وتنفيذ مشاريع مُشتركة نظرا لنجاح نموذج الهلال الأحمر في معالجة المشاكل الاجتماعية وبناء السلام.

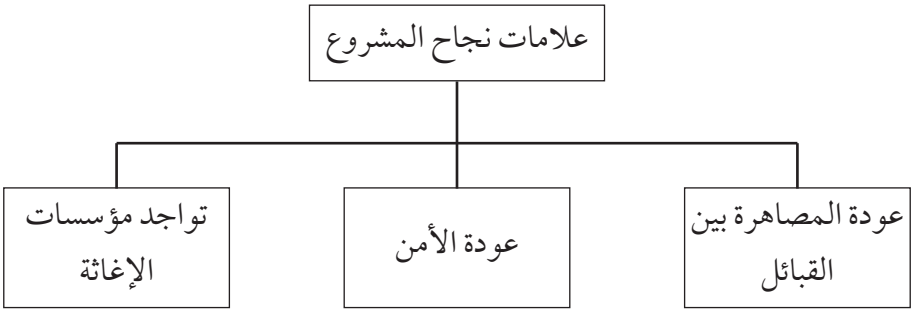

دونت هذه المؤشرات الثلاثة التي ذكرها الدكتور أبو بكر، وقررت إضافتها لمنهجية التقييم الأولى، وبهذه المؤشرات المذكورة وبمنهجية التقييم الأولى (تقييم المشروع من داخله) سأسعى إلى التأكد ميدانيا من صدق كل هذا على الأرض خلال الأيام التي سأقيم فيها في قرية أرارا عبر الملاحظة والمشاهدة والاقتراب من الناس والسكان، ولكن الاحتكاك بالأهالي بشكل مباشر أمر غير مُرحب به طبعا من الجهات الحكومية التي تتحسس من احتكاك أي شخص غريب بالأهالي، فلا بدّ أن يكون الاقتراب من الأهالي المستفيدين من المشروع لسؤالهم عن المشروع بشكل غير مستفز، وأن أحاول أن أجعله قصيرا ومركزا، وأن أبتعد عن الأسئلة التي يمكن أن تقلق أفراد الحكومة المحلية، أو المجموعات القبلية التي لها صلة بالحكومة المركزية بالخرطوم.

اتضح بعد قليل أنني سأحتاج إلى مترجم، لأن الناس في القرية وما حولها

يتحدثون بـ «الرطانة» وهي «لهجة دارفورية» يصعب أن يفهمها شخص من خارج دارفور. فطلبت من الدكتور أبو بكر حلا لهذه المشكلة، فقال لي: «لا تقلق لدينا شاب رائع اسمه «آدم» يعمل معنا في المشروع، وهو من القرية نفسها، ويتقن الرطانة والعربية، وسيكون مرافقا لك كظلك عند حديثك مع الناس من أجل الترجمة من ناحية، ومن جهة أخرى لتشجيع الناس على عدم التحرج من التواصل معك.» ستلاحظون أنني إلى الآن التقيتُ بثلاثة أشخاص يجمعهم قاسم مُشترك، وهو اسم «آدم»، «آدم الصابوني» السائق الذي استقبلني في «الخرطوم»، والدكتور المهندس «آدم» المتطوع من جامعة «نيالا»، والشاب «آدم» الذي سيقوم بالترجمة، وكأن اسم «آدم» فعلا يعكس أن هذا المجتمع قريب الصلة بأبينا «آدم». وكأن التاريخ لم يمض وعجلة الجغرافيا لم تدُر، فالناس في طيبتهم سماحتهم ونمط عيشهم يذكرونك بالعصور الأولى حيث لا خدمات موجودة، ولا كهرباء ولا مياه نقية. لست أدري هل انتشار اسم آدم في المنطقة هو رسالة احتجاج على نقص الخدمات، أم هي رسالة وفاء وامتنان لآدم أبي البشر وحنين إلى طيبة قلبه وسلامة سريرته!

وأثناء حديثي مع الدكتور أبو بكر صالح، دعانا الشيخ حسن لتناول الإفطار في الاستراحة. وأثناء الإفطار طرقت أُذني أول قصة من قصص مشروع الوئام، والتي سمعتها من الطبيب عبد الرحيم الشيخ علي، المقيم في مركز الخدمات الصحية في المجمع. فهو الطبيب المسؤول عن المركز الصحي داخل مجمع الخدمات، والذي يوفر خدمة الرعاية الصحة الأولية والأساسيات، ورعاية الأهالي الموجودين في القرية وما حولها. ولقد لمست أهمية وجود المركز والطبيب المُقيم بنفسي لأنه كما تعلمون، تبعد القرية (100 كم)، أو يزيد عن العاصمة المحلية «الجنينة»، والتي تبعد هي الأخرى عن «الخرطوم» بحوالي 1200 كم، فتخيلوا أن امرأة فاجأتها آلام الولادة، أو طفلا مصابا في حادثٍ، من المفترض أن يُنقل إلى مدينة «الجنينة» في طرق وعرة جدا تستغرق من حوالي سبع إلى ثمان ساعات سيرا! لذا يُعد وجود

المستشفى في القرية بمثابة المؤسسة الضرورية الأهم لحياة البشر، بالمقارنة بأي مبنى أو مؤسسة أخرى.

لمست السعادة والسرور في عين الطبيب عبد الرحيم عندما علم أنني مصري، بدأ يُدَندنُ بأغاني أم كلثوم، وعبد الحليم حافظ، اعتبر الرجل أنها نشيد ترحيب يطرب لها كل مصري. وبعد الإفطار معه دعانا لأخذ جولة داخل المستشفى الذي يُشرف عليه، وعندما دخلت، سمعت أن هناك حالتين في الاستقبال مصابتين بـ«الملاريا».

في أثناء الزيارة همست في أذن «أبو بكر» قائلا: «كيف نجحتم في إقناع الدكتور عبد الرحيم بترك «الخرطوم»، وقبول الإقامة في هذه المستشفى النائية؟ وألا يعود لأهله في «الخرطوم» إلا مرة واحدة كل شهرين؟» فقال لي سيكشف لك سؤالك عن الأثر الذي أحدثه مشروع الوئام، فقد توصلنا في مشروع الوئام إلى طريقة مُحفّزة للأطباء ومفيدة جدا للمشروع، حيث قمنا بالاتفاق مع الحكومة السودانية بأن أي طبيب يتعاون مع الهلال الأحمر، ويوافق على العمل في المناطق النائية مثل قرية «أرارا» سيقوم الهلال بتقديم راتب آخر بمقدار الراتب الذي يتقاضاه من الدولة. وقد جعل هذا الدعم من الهلال الأحمر العديد من الأطباء يقبلون العمل في مهام الهلال، فيجمعون بين فعل الخير، وكسب الرزق.

وبعد جولتنا في أرجاء المستشفى، ذهبنا للجلوس في مكتب الدكتور عبد الرحيم، واستكملنا حديثنا عن تجربته في القرية، ووضع الناس الصحي فيها، وتأثير الفقر والحرب على صحة الإنسان النفسية في غرب دارفور. ثم ذكر لنا قصة إنسانية مؤثرة للغاية، إذ حكى لنا كيف أن الفقر ربما يُفقد الإنسان كثيرا من عواطفه ومشاعره ويقوده إلى أفعال يصُعب تصديقها.

بائعة الدواء

قصّ علينا الدكتور عبدالرحيم هذه القصة: في ليلة من الليالي الحالكة، التي زادت فيها الرطوبة بشدة، وكاد البشر يهلكون بسبب ضعف التنفس، حملت إحدى النساء طفلها المصاب بمرض الملاريا، وجاءت به إلى المركز الصحي، وتم أخذ عينة من دمه في المُختبر للتأكد من إصابته بالمرض، وجاءت النتيجة للأسف إيجابية، فوُصف له الدواء على شكل جرعات يأخذها بانتظام بشكل أسبوعي، وطُلب منها حينها أن تأخذها من صيدلية المركز الصحي، ومع استمرار صرف الدواء للطفل المُصاب، كنا لا نرى تحسنا في حالته، بل على العكس كانت حدة مرضه في ازدياد. فسألنا الأم: «هل ابنك يأخذ الدواء بانتظام؟» فقالت: «نعم.»

وبالطبع لم يكن أمام الطبيب سوى الاستمرار في صرف الدواء الوحيد المُتاح لمعالجة الملاريا في الصيدلية لدينا، بعد أسبوع عندما جاء الطفل للمراجعة وجدناه على شفا الموت، اكتشف الطبيب أن مستوى المرض قد ارتفع بشكل كبير جدا، وأصبح عنده شك أن الأم لا تعطي الدواء للطفل، فانفعل على الأم، وقال لها يبدو أن هناك شيئا غير مفهوم يحدث، فإما أنك تعطينه الدواء بشكل خاطئ، أو تنْسَينَ إعطاءه الدواء بحسب الجرعات المتفق عليها. عند هذه اللحظة طلبت الأم من الطبيب الكلام معه على انفراد، فاكتشف الطبيب أن هذه الأم المسكينة هي أم لأحد عشر ولدا، وزوجها قد قتل في إحدى المعارك مع القبائل الموجودة على أطراف القرية، وهي لا تملك مصدر دخل لإعاشة الأطفال، فكانت تأخذ الدواء المقرر لطفلها المريض، والمدعّم من الحكومة، وتبيعه للمرضى الآخرين بسعر مرتفع، حتى تستطيع الإنفاق على أطفالها الأيتام.

قصة موجعة للغاية. الناس هنا يبيعون صحتهم، أو حياة أحد أطفالهم كي يعيلوا بقية الأطفال. إلى أي مدى قتلت الحرب بعضا من الإنسانية في نفوس الناس هنا؟

إلى أي مدى نجحت الحرب والكراهية أن تسوق الناس إلى هذه الخيارات الصعب والمؤلمة؟ أوجاع الحرب تكشف زيف الأفكار والثقافة الشاذة، والرغبة في قتل الآخرين ووأد حياتهم فقط بسبب الاختلاف في العرق أو الدين أو الطائفة. أي لحظة إنسانية بائسة عشتها وأنا أستمع لكلمات الطبيب؟ أي إحباط وقهر تملّكني، وأنا أتفرس في وجوه زميلات وقرينات لها في ممرات المستشفى.

يكمل الطبيب الحكاية، ويقول أنّه وفّر للطفل علاجا جديدا، وقام بتوصيل الأسرة لمؤسسة إغاثية هنا، كفلتها ووفرت لبعض إخوة الصبي بعض الأشغال التي تعينهم على نوائب الدهر.

الآبار الذكية

انتهت القصة التي آلمتني تفاصيلها بشدة، وانتهت بعدها مقابلتي مع الدكتور عبد الرحيم. أخبرني سليمان السائق أننا سنتحرك بعد قليل نحو وسط القرية؛ لكي نلتقي بشيخ مشايخ قبائل الرعاة في منطقة أرارا، ومحلة البيضا، وهو في نفس الوقت عضو لجنة حماية المحصول الزراعي في مشروع الوئام، فذهبنا مع الفريق للمكان المقصود، فإذ به مقرٌ متواضع، مكون من غرفة واحدة مخصصة للاجتماعات، وبها دولاب صغير، ومكتب لحفظ المستندات والوثائق. ووجدنا الشيخ دفع الله إبراهيم زعيم إحدى قبائل الرعاة جالسا مفترشا الأرض، ينكثها بعود صغير في يد، وفي يده الأخرى سبحة زرقاء اللون، سلمنا عليه، فرد السلام ورحب. وقام ليجلس معنا على الكراسي، فأبيت إلا أن أنزل إليه لأجلس على الأرض، قائلا: «على حصير الأرض عشت بين أهلي يا شيخ.» فابتسم بارك الله فيه، ثم سألته عن رأيه وتقييمه لمشروع الوئام في القرية. فأجاب: «صراحةً هذا أول مشروع يُنفذ في المنطقة، ونشارك نحن قبائل الرعاة في تصميمه وإدارته.»

أومأت برأسي أحثه على إكمال حديثه، فأردف قائلا: «نحن موجودون هنا منذ زمن بعيد ومع تفجر النزاع والحروب بين القبائل، حينها جاءت منظمات كندية وأمريكية وأوروبية لتقديم يد العون للمتضررين من الحرب في القرية. كانوا يأتون ويقدّمون لنا المساعدة فقط، دون سؤالنا عما نريد، وما نرغب، وما لا نحب. وقليل منهم استمع لنا في المشاريع التي نود إقامتها هنا في القرية»، ثم قال لي: «سأعطيك مثالا حتى يتضح المقال.» ثم أشار لي قائلا: «على يسارك الآن مبنى كبير مخصص لتوفير العقاقير البيطرية للأبقار، والأغنام، والإبل الهائمة في المنطقة، وقد بنته إحدى المؤسسات الإغاثية الغربية لخدمة الرعاة، ولكنه بعد شهر واحد من العمل أغلق أبوابه وغادره الأطباء العاملون به وأصبح مقرا لا تسمع فيه ركزا ولا قولا!» فقلت له: «لماذا يا شيخ دفع الله حصل هذا؟» فقال: «الجماعة الغربيون لم يأتوا البيوت من أبوابها. لم يسألوا المستهدفين من هذا المشروع ماذا يريدون؟ وما هي الأمراض التي تنتشر وسط قطعانهم، ولا كيف يحصنون أنعامهم؟ هم افترضوا أننا فقراء وأنعامنا مريضة، وبالتالي توفير مركز بيطري من طرفهم سيحل مشاكل الرعاة المتراكمة في غمضة عين! ولم يفهموا أننا الرعاة لا نستطيع الدخول بالقطعان إلى داخل القرى بالأساس، لأنها لو دخلت ستُهلك الحرث والنسل فأقل راع عندنا يملك حوالي ألف بقرة أو جمل ودخول هذه الأعداد كما تعرف يا سيد ياسر سيخلق معارك مع الفلاحين والمزارعين بسبب هجوم القطعان على محاصيلهم أثناء سيرها داخل القرى. فالقطعان تسير على مشارف القرية فقط خلف الكلأ والماء، وعادة ما تتجمع حول آبار المياه في أعداد غفيرة وفق نظام تقليدي متفق عليه. إذا كانت هذه المؤسسة الخيرية التي أنشأت مبنى لتطعيم الحيوانات جادة ومحترفة لوفرت سيارات لتقديم هذه التطعيمات في أماكن تجمع القطعان هو آبار المياه.»

فقلت له: «يا شيخ دفع الله أنت أعطيتني مثالا عن أخطاء الآخرين فهل من الممكن لو تكرمت ان تعطيني تجربتك في مشروع الوئام؟» فقال لي: «نعم على الرحب

والسعة، سأعطيك مثالا لواقعة حدثت بيني وبين فريق الهلال الأحمر الذي جاءني في أحد الأيام مسؤوله في المنطقة، الشيخ حسن يُخبرني بأن لديهم تمويلا سخيا من أجل حفر خمسة آبار لصالح الرعاة لسقي الحيوانات في قرية «أرارا»، فكان جوابي المُباشر عليه هو الرفض وعدم قبول العرض!» وساعتها قال لي الشيخ حسن: « أنت راعٍ ولديك موجة جفاف قاسية فلماذا ترفض حفر بئر لسقي الإبل والأغنام؟» فقلت له: «أنا رفضته لأمر خطير جدا، هو أن هذه الآبار إذ حُفرت دون مراعاة لتركيبة القبائل الرعوية والعلاقات بينها وبين القبائل الزراعية، ستتحول إلى حفر من نار وإلى براكين من غضب! بدل أن تكون مكانا للتنمية والنماء»، فقلت له: «ما الذي يحول البئر إلى مكان للحرب والدماء؟»

فقال الشيخ دفع الله: «مجتمع قبائل الرعاة ممتلئ بالمشاكل بين بعضهم البعض وإذا لم نراع ذلك في أماكن حفر الآبار، ستزيد الخلافات لأن الآبار تجمع الناس وقطعانها. فإذا تجمّعوا على بئر واحد وبينهم خلافات سابقة تكون احتمالات تجدد الأزمات أكثر بحكم الاحتكاك والتقارب في المكان. لذلك لابد من حفر الآبار على مسافات متباعدة خاصة في الأماكن التي بين قبائلها صراعات وخلافات، أما النقطة الثانية المهمة جدا فإنّ قرية «أرارا» تقع على الحدود الغربية للسودان مع جمهورية تشاد وكما تعلم يا أستاذ ياسر أن القبائل والرعاة في إفريقيا لا يعترفون بهذه الحدود، فهم يتحركون بين الدول دائما ذهابا وإيابا مع قطعانهم وخاصة في فترات الهجرة والبحث عن الكلأ والماء، وهذا بطبيعة الحال يُساعد في انتشار الأمراض بين الأبقار في المنطقة. ولو قمنا بحفر بئر هناك، يقع على خط هجرة الحيوانات، فأصحاب الأبقار القادمون من جمهورية تشاد سيتوجهون بأبقارهم المصابة صوب مصدر المياه، ومن ثم يتحول البئر إلى مكان للعدوى ونقل المرض للقطعان السودانية غير المصابة. لذا من الواجب أن يكون مكان البئر بعيدا عن مسار هجرة الأبقار بمسافة لا تقل عن سبعة كيلومترات، حتى لا تدخل الأبقار والإبل إلى القرية». وتابع الشيخ

دفع الله حديثه قائلا: «لقد استجاب الهلال لملاحظات الرعاة حول الآبار. والحمد لله كل الآبار التي حفرها لنا الهلال مازالت تعمل بكفاءة عالية ويستفيد منها الجميع دونما منغصات واشتباكات.»

وبعدما انتصف يومي الأول في قرية أرارا كنت قد تأكدت من إتمام إنشاء المباني والمنشآت الخاصة بالمشروع والمُدرجة في الخطة مثل المدرسة والمستشفى والمسجد، ومجمع الخدمات، وجلست مع الطبيب عبد الرحيم والشيخ دفع الله شيخ الرعاة.

تلاميذ السلام بذور الأمل

في أثناء عودتي مع فريق الهلال إلى قر الإقامة، وجدت مشهدا جميلا بعث فيّ راحة وأملاً شديدين، إذ وجدت التلاميذ الصغار يخرجون من المدارس التي أقامها مشروع الوئام ممسكين بأيدي بعضهم البعض، عائدين إلى بيوتهم بزيّ المدرسة الجميل. فطلبت من الدكتور أبو بكر أن نزور المدرسة من الداخل، ونرى مسار العملية التعليمية بها، ونلتقي بالمسؤولين فيها، ونسمع منهم تجربتهم أيضا. فوافق مشكورا، وأمر السائق سليمان أن يتوقف حتى ننزل أنا وهو من السيارة ونتحرك نحو المدرسة، وأن يستمر هو في طريق العودة معه باقي الفريق. دخلنا المدرسة ووصلنا إلى فنائها المتسع، فاجأت مُدرسة مشرفة على المكان مُسرعة، ورحبت بنا، وخاصة بالدكتور أبو بكر مسؤول المشروع فهي تعرفه جيدا بحكم العمل المُشترك في المشروع، وبدوره أبو بكر عرفها عليّ، ثم قالت: «تفضلوا في المكتب عندي الآن، لأن مُديرة المدرسة قد غادرت للتو.» توجهنا إلى مكتبها بكل سرور، فاستأذنت أبو بكر في سؤالها هذا السؤال: «هل أنت سعيدة يا أستاذة عائشة في العمل بمشروع الوئام كمعلِمة؟» فقالت: «الحمد لله أنا في غاية السعادة والسرور، لأن المشروع أتاح

لي خدمة أهلي، وأقاربي، والناس في قريتي، ومساعدتهم على أن يعودوا لحياتهم، عندما كنا نعيش جميعا في سلام وأمان.» فقلت لها: «برأيك كيف تحققين ذلك، وأنت تدرسين الأطفال هنا بالمدرسة؟» فقالت: «أولا نحن نحاول غرس مجموعة من المبادئ في نفوس الأطفال، تعينهم لاحقا على تجاوز الثقافة السائدة، التي ساعدت على خلق الحرب الأهلية. نحاول أن نخلق وعيا ضد العنصرية والطائفية والقبلية. فنضع في الفصول مثلا أبناء قبائل متنوعة، بحيث لا يصبح الفصل مكدسا بأبناء قبيلة أو عائلة واحدة. خطة عمل المدرسة هنا قائمة على مساعدة التلاميذ على الاندماج مع بعضهم البعض، حتى لو كانوا من قبائل متحاربة سابقا وبينهم عدوات واحتقانات، وحتى لو وصلت هذه العداوات إلى قتل ودماء، لأنهم من خلال تواجدهم بجوار بعضهم البعض داخل الصفوف. ومع الوقت والزمن، تنمو بينهم علاقات وروابط إنسانية جديدة تنسيهم الكراهية، والأوجاع، والحرب.»

ثم أضافت المعلِّمة قائلة: «كما نرسخ فيهم كراهية الصراع والعنف، وحب السلام من خلال الأناشيد والحكايات والمناهج، والأنشطة خارج الصف. فباب المدرسة يتسع لكل أبناء القبائل، بغض النظر عن مشاكلهم السابقة.»

ثمّ ذكرت الأستاذة عائشة موقفا أثّر فيها بشكل واضح للغاية، وظهر ذلك من خلال حديثها وسردها في تلك القصة. قالت: «كان عندي طالب متميز جدا، وكان متفوقا وذكيا اسمه إبراهيم، ولكنه فجأة وبدون مقدمات انقطع عن الدراسة شهرا كاملا، فسألت عنه فقيل لي أنه مريض، وفي الشهر الثاني وأنا أسير في السوق، وجدته جالسا أمام عربة يبيع عليها الطماطم!» فقلت له: «يا إبراهيم لماذا لا تأتي إلى المدرسة؟» فأجاب: «لأن أمي مريضة، وأصبحت لا تستطيع أن تخرج إلى السوق لبيع الخضار بنفسها.» حينها طلبت من إبراهيم أن يأخذني إلى أمه، وفعلا ذهب معي، فوجدتُها فعلا لا تقوى على الحركة لكبر سنها. وعلمت منها أنها هي المسؤولة عن

الإنفاق على أسرتها بحكم أن الأب متوفّ، اضطرت الأم إلى أن تخرج للسوق لبيع الخضار، ولما مرضت لم يكن هناك بُد من انقطاع إبراهيم عن المدرسة حتى تتمكن من الإنفاق على الأسرة.» ثم تابعت الأستاذة عائشة حديثها قائلةً: «عندما عدتُ إلى المدرسة طرحتُ الأمر على مديرة المدرسة، وتمّ رفع الموضوع إلى لجنة «توفير سُبل العيش» في مشروع «الوئام والسلام»، فقرّرت اللجنة التدخل، ووفّرت لأسرة إبراهيم معاشا متواضعا يكفي الأسرة، حتى يعود الطالب إبراهيم إلى مقاعد الدراسة، ويستأنف مسيرته، ويبني مستقبله، والحمد لله عاد بالفعل.»

سعدت بكلامها أيما سعادة. ما أراه هنا ليس أرقاما، ولا بيانات، أو ندوة يحكى فيها كلام عابر. ما أراه واقع حقيقي، أراه بعيني في المدرسة، وفي المعلمين، وفي الفصول التي تمتلئ بأجيال جديدة. يحاول قادة المجتمع الجدد تجاوز المحن الماضية، بوضعهم في بيئة تعليم ووعي مختلفة تماما.

وحتى لا نؤخر الأستاذة عائشة عن العودة إلى بيتها، بعد انتهاء دوام الدراسة، شكرتها على حسن استقبالها لنا، وما تفضلت به من سردٍ يعكس بشكل مباشر نتائج مشروع الوئام في الواقع على الأرض، واستأذنا في الانصراف عائدين إلى مقر الاستراحة، وبلقائنا مع الأستاذة عائشة، والشيخ دفع الله، والدكتور عبد الرحيم، نكون قد حصدنا خيرا وفيرا في يومنا الأول في هذه القرية الطيبة وإلى اللقاء في صباح آخر غدا.

اليوم الثاني في أرارا (لقاء مع الفُرْشة)

بدأت يومي الثاني في قرية أرارا بمقابلة بشخصية هامة، فقد اتفقت مع السائق سليمان أن نطرق باب «الفُرْشة»، جمال كرامة ونجلس معه لنتحدث، فلا يمكن أن نمر على القرية دون الاستماع إليه، وأرى وجهة نظره في المشروع، وكيف يقيمه

بحكم أنه أدرى الناس بتفاصيل القرية على كافة المستويات، وله مكانة أدبية وسط جميع الأهالي والقبائل الموجودة في المنطقة. تحرك معي السائق إلى مقر إقامة «الفُرْشة» وذهبنا إلى بيته. وكان في استقبالنا بكل محبة ومودة جلستُ بين يديه مستمعا ومتسائلا بعدما قدمني له سائقنا سليمان فقال له: «الأستاذ ياسر جاء من «قطر» في زيارة لمشروع «الوئام» لتقييم المشروع.» فتهلّل وجه الرجل، ثم أثنى على دولة قطر، قائلا أنّ الخير الذي نحن فيه الآن يعود إلى جهود الناس الطيبين في الدوحة، فلاحظت من كلامه أن الرجل يكنّ الفضل الكبير لدولة قطر وأهلها لما قدموه من جهود لإقرار السلام، وإعادة الإعمار لقرية أرارا.

بعدما جلسنا في حضرة «الفُرْشة»، صنع لنا الشاي السوداني على نار هادئة في وسط الدار. وبدأت في الكلام معه بسؤال عن أثر مشروع «الوئام والسلام» على القرية من وجهة نظره؟ فقال لي: «مشروع «الوئام والسلام» ساعدنا في نشر السلام والعدل في القرية، وذلك بفضل التدريب والدورات التي أخذناها عن طرق التفاوض والتحكيم بين المتخاصمين، وأصحاب المنازعات، والتي رفعت من قدراتنا على تحقيق العدالة بين الناس في القرية. فأنا من سلطاتي المُعترف بها هنا أنني أقضي في القضايا التي تقع بين الناس في القرية، وذلك وفق القانون العرفي المتوارث منذ الأجداد، عبر محكمة عرفية تحكم بين الناس، في كافة القضايا سواء كانت على المستوى الأسري، أو الديّات، أو حوادث الاعتداء على الأراضي والسرقة. وعندما وفر لنا مشروع الوئام تدريبا محترفا على يد متخصصين في فض النزاعات، وسبل تحقيق العدالة أصبحت أحكام المحكمة العرفية أكثر إنصافا للمظلومين ضد المعتدين.» فسألته سؤالا آخر: «لماذا تعتقد أن المحاكم الشعبية أداة مهمة في نشر السلم المجتمعي بالمنطقة عكس المحاكم المدينة؟»

قال لي: «سأحكي لك حادثتين حصلتا، ستكشفان لك الفرق الشاسع بين المحاكم المدنية والمحاكم الشعبية. في أحد الأيام كان هناك راع لقطيع من الإبل اسمه إسماعيل، وهو عائد بقطيعه من الإبل في منطقة من شرق القرية ليلا، إذ بالإبل تفلت منه رغما عنه، وتدخل إلى حقل أحد المزارعين، وكان مزروعا بنبات «الكركديه». وفي ظرف أقلّ من ساعة كانت الإبل قد أكلت كل المحصول، وانتهى أمره من الوجود. انتهى المحصول الذي كان المزارع «عبد الله» ينتظره منذ ستة أشهر. ففي ليلة واحدة، وفي ساعة واحدة، أهلكت الإبل الكركديه. وبالتالي، فقد المزارع مستقبله، وخسر بضاعته، فلما سمع أصوات الإبل ليلا تنعبث في حقله، وكان بيته قريبا من مزرعته، صرخ في أهله وقبيلته. فخرجوا مسرعين واشتبكوا مع الإبل الموجودة وقتلوا بعضها وأمسكوا بالبعض الآخر، وعند هذه اللحظة شعر الراعي بالخطر على حياته، وعلى حياة بقية القطيع، فأرسل أحد أبنائه سريعا إلى رجال قبيلة رعوية قريبة منه، يستنجد بهم ويطلب الحماية منهم. وفي ظرف ساعة واحدة، وصل رجال قبائل الرعاة المسلحين، والمدججين بالأسلحة إلى عين المكان. ولم يتبق إلا القليل لتبدأ رحى معركة مؤلمة، وقاسية في القرية، ولكن من لطف الله ورحمته كما يقول الفُرشة «كرامة» أنه علم بالأحداث من أحد الرجال العقلاء في قبيلة المزارعين، والذي هو عضو في لجنة فض المنازعات بمشروع «الوئام والسلام»، فتحرك مُسرعا، وتواصل مع لجنة فض النزاعات، التي تحركت سريعا بحكم امتلاكها لمجموعة من الدراجات النارية زودهم بها الهلال الأحمر. وتدخلت اللجنة ومعها الفُرشة كرامة، وتمت محاصرة الأزمة، وإنهائها بفضل الله تعالى وكرمه. وبعد فض الاشتباك بين الطرفين جاؤوا إلي في المحكمة للتقاضي. وفي هذه الواقعة تم تعويض المزارع، وأخذنا عهدا على الراعي ألا يكرر هذا الأمر مرة أخرى.» انتهى الفرشة كرامة وبدأ يقص علينا قصة ثانية بكل حماسة واسترسال.

الأسمدة مقابل السلام

ثم حكى الرجل الحكيم قصة أخرى، مفادها أنه بعد توقيع اتفاقية الدوحة للسلام، استجاب كثير من اللاجئين لنداء العودة الطوعية، وعادوا إلى قراهم، وقرروا ترك معسكر الإيواء الذي عاشوا فيه أمرَّ أيام حياتهم. وكان الفلاح (محمد المجتبى) من هؤلاء العائدين، وذلك بعدما هُجِّر من داره وأرضه. فقد أُجبرت أسرته الكبيرة، والمكونة من ثلاث زوجات، وعشرة أولاد على ترك قطعانها من الأبقار، وهجر حقولها الزراعية التي كانت تأكل منها، والفرار نحو معسكر الإيواء المُكدَّس بالعائلات المتضرِّرة من نيران الكراهية والثأر.

وعندما اقترب محمد المجتبى من مشارف قريته: (أرارا)، ورأى أشجارها الباسقة التي يعرفها وتعرفه، انهمرت الدموع من عينيه. وبدأت السعادة تشق طريقها إلى صدره، ولكن الزمن -كما تعرفون -مملوء بالنوائب والمفاجآت. فعندما وصل لوسط القرية وجد بيته قد أُحرق، وهذا متوقع ومعهود في الحروب. والأخطر أنه وجد أبا بكر -أحد جيرانه السابقين- قد استولى على أرضه وأبقاره، فماذا يفعل في هذه المُصيبة؟ أولًا طلب من أبي بكر أن يرد له أرضه، فكان رد أبي بكر: «لقد وجدتها خاوية على عروشها، وأنت لم تعُد إليها منذ أعوام مديدة، فقررت إصلاحها وبذل العرق والمال فيها، حتى إذا بدأت تُؤتي أُكُلها تريد أن تأخذها مني غصبًا، هذا ليس عدلًا!»

هذه الواقعة دفعت «المجتبي»، وكثيرين من الذين وقعوا في المشكلة نفسها إلى التكتل والانخراط في حرب مع من استولوا على بيوتهم وأراضيهم. وهذا يعني أن قرية (أرارا) مُقبلة على موجة عاتية من صراع طاحن، ما لم تتداركها يد القدر، أو مجموعة من العقلاء. وهنا تدخلت لجنة فض المنازعات لمعالجة مشكلة المجتبي، فعقدنا اجتماعا عاجلا للتشاور في طرق حل هذه الأزمة سريعا، بما يُرضي كل الأطراف.

وتوصلنا إلى مخرج مُشرف لأبي بكر والمجتبي، إذ قلنا لهما: «لدينا عرض مُغرٍ لكما يقضي بـأنه إذا توافقتما، وقررتم القبول بالشراكة في زراعة الأراضي، فسُيقدم مشروع الوئام لكما مساعدات زراعية من بذور وأسمدة، وبعض الآلات الزراعية مما سيُضاعف الإنتاج، ويُمكنكما من زراعة مساحات أوسع وأكبر.» والحمد لله، أنهما قبلا بالعرض. وبهذا الحل توصلنا لسلم مجتمعي حفظ القرية من اندلاع صراع جديد.

هنا يمكننا أن نقف سويا للاستفادة من تفاصيل هاتين الواقعتين، فقد قام الفُرشة من خلال محكمة القضاء العرفي، ولجنة فض النزاعات في مشروع الوئام؛ أولا، بمنع الاشتباك، ومحاصرة بؤر التوتر في القرية. ثم قام بعد ذلك بثلاثة أمور أخرى، هي جبر الضرر الواقع على المُزارع، وأخذ حقه من الراعي، ومُعاقبة المُتسبب في الأزمة. ثم قام بالصلح بين المُزارع والراعي، وكل هذا تم في عشية وضحاها، دونما تسويف وتأخير. والثالث، تم أخذ تعهد على الراعي بعدم تكرار هذا الأمر.

وهنا تبرز نقاط قوة القضاء العرفي عن القضاء المدني، فالأخير معهود فيه التأخير، وعدم الحسم السريع بين المتخاصمين، كما أن القضاء المدني لا يعرف قصة الصلح بين المتخاصمين على عكس من آليات عمل القانون العُرفي. الأمر الثالث أن كثيرا من الناس، وخصوصا في المجتمعات ذات الطابع القبلي، لا تثق كثيرا في قوانين رسمية قد تخالف أو لا تكون على هوى ثقافة هذا المجتمع. أيضا قد يرى هذا المجتمع التقليدي أو القبلي أن القضاء المدني (أو الرسمي) يمكن التفلت منه بثغرات قانونية، أو أنه لا يجلب الحق كما ينبغي، ولا يطفئ نار من أخذت حقوقهم، لذا كان من إبداعات مشروع الوئام في قرية «أرارا» هو قيامهم بتطوير النظام القضائي العرفي، بما يجعله مساعدا على سرعة الحسم في النزاعات، ويرفع مستوى الشفافية فيه والإنصاف.

وكما هو معروف، توجد في منطقة «دارفور» آليات تقليدية لفض النزاع، تُسمى هناك نظام «الجودية». وهو نظام عُرفي للتقاضي معترف به، وعريق في «السودان» قائم على أن يكون لكل قبيلة شخص يمثلها ب «الجودية»، وهي عبارة عن مكان يتجمع فيه الأجاويد، وهم أناس يتصفون بالحكمة والرزانة، وغالبا يكونون من كبار السن والشيوخ، للبت في المشاكل؛ فإذا كانت المشكلة بسيطة بين زوج وزوجته يكفي حضور عضو واحد من الجودية لمعالجتها، وإذا كانت قضايا قتل وسرقة إلخ، فلابد من اجتماع هيئة الجودية كاملة.

المحكمون في الجودية التقليدية فقط من الرجال، رغم مكانة المرأة التي تحدثنا عنها سابقا، وبالتالي عدت تلك المحاكم لدى مجموعة الوئام ناقصة، نظرا لغياب المرأة عن التمثيل في هيئة الجودية؛ لذلك قام مهندسو مشروع الوئام بإقناع الفُرشة «كرامة» ومن معه من شيوخ بقبول تمثيل المرأة في هيئة الجودة، فتم ذلك بعد جهد كبير من الإقناع والتدريب والتأهيل للنساء اللواتي سيُشاركن فيها.

ولما استفسرت عن جدوى هذه الفكرة من الفُرشة «كرامة» قال إن إدخال المرأة في نظام الجودية خفّض نسبة القضايا في القرية قرابة ٪70، وكان للأمر عِلّة، ألا وهي أن النساء في حكمهن يكملن ما لا يراه الرجال، وأنهن أميل-بحكم العاطفة-للحل والمرونة، لا لفكرة العقاب، وكذلك لارتباط تلك النسوة بأغلب نساء القرية، كأن يعقدن مجالس يستمعن للشكاوى من جهة أخرى، ويطرحن فيما بينهن حلولا قبل حتى أن تُرفع القضايا لنظام الجودة، وبالتالي خفضت القضايا لهذه النسبة.

سررت بحكمة الرجل، وحسن تقديره، وشرحه السلس الذي سهل على استيعاب هذه التجربة العظيمة، وفي نهاية اللقاء شكرته شكرا خاصا جدا على حسن الاستقبال وعلى المعلومات القيمة التي قدمها لنا بكامل تفاصيلها.

يَا يحيى خُذِ الْسلام بِقُوَّةٍ

ونحن في طريق عودتنا إلى مكان الاستراحة اقترح عليّ السائق أن نزور الشيخ «يحيى أبو القاسم»، فهو من شيوخ القرية وأحد الذين يمثلون المزارعين في مشروع الوئام، فوافقت على الفور. وتحركنا صوب بيت العم يحيي أبو القاسم، والذي يقع في أقصى غرب القرية. فأخذنا مسافة طويلة في الحركة، لأن الطرق وعرة وغير معبدَّة، والأطفال يملئون الشوارع، لكن بطء السيارة، مكنني من مشاهدة النساء، وهُن يقفنَ أمام المعاصر، لاستخراج زيت الفول السوداني. إذ يُعد الفول السوداني من المحاصيل الرئيسية الموجودة في غرب «دار فور» إذ يستخرج منه الزيت، وكذلك يفعلون مع محصول السمسم، جعلتني هذه المشاهد أكن تقديرا لمشروع الوئام الذي يسَّر عودة الخلق لأعمالهم وأشغالهم، وحببّ إليهم مساكنهم وجيرانهم، بعد أن بغضتها إليهم الحرب.

بعد نصف ساعة من السيرّ، وصلنا إلى بيت الشيخ، وأخبره السائق سليمان أنني قادم من «الدوحة» إلى القرية لزيارة المشروع، وعندما علم الشيخ يحيي أني قادم من «الدوحة» قال لي: «ما أخبار الدوحة الطيبة؟» فقلت: «بخير وتُسلم عليك.» ثم قال لي: «أنا جلست شهرين في «الدوحة» في أحد الفنادق الفخمة من أجل مباحثات بناء السلام في دارفور، وقد تكفلت وزارة الخارجية القطرية بتوفير تذاكر الطيران، وسبل الإقامة في أفضل الأماكن في الدوحة لي ولكل شيوخ القبائل الذين كانوا معي.»

وعندما سألت الشيخ يحيي عن مشروع «الوئام»، أجاب أن أهم شيء صنعه فينا مشروع «الوئام والسلام» هو إيقاف الحرب في المنطقة أولا، ثم الانطلاق في بناء القرية من جديد على أسس سليمة.

والجزء الأهم في المشروع كما فهمت من الشيخ يحيى، هو معالجة المشروع لجذور العنف في القرية، إذ قال الشيخ «أن أكبر أزمة بين المزارعين والرعاة كانت

تتمثل في أن المزارع يظل في أرضه يزرع لشهور وينتظر الحصاد، و في لحظه خاطفة يأتي بعض الرعاة بقطعانهم، فيهجمون على المحصول، وينتج عن ذلك خراب وتبدأ عجلة العنف في الدوران».

فسألته: «هل هذه المشاكل جديدة أم أنها قديمة يا شيخنا؟» فقال: «هذه المشاكل قديمة في وقت حدوثها، ولكنها جديدة من حيث تكرارها بكثرة، وباستمرار في أماكن متعددة من الإقليم.» ووفقا لقوله إن ذلك يرجع لموجات الجفاف التي ضربت الإقليم في العشر سنوات الأخيرة. قال: «كنا نعيش في سلام مع إخواننا الرعاة، حيث كانوا يأخذون طرقا بعيدةً عن أماكن الزراعة، وكان عندهم حشائشهم التي تنبت في الأدغال، وآبار المياه التي تكفيهم، فلم يكونوا بحاجة لدخول قرى الفلاحين، ولكن مع الجفاف أصبحت الإبل تتفلتُ إلى أماكن تجمع المياه لدى المزارعين فتفسد الابار، وتُهلك المحاصيل.»

ثم قال: «عندما كان الإنجليز يسيطرون على المنطقة، كانوا يضعون علامات واضحة تُبين أماكن عبور الرعاة، وأماكن أراضي المزارعين فلا يجور أحد على الآخر، وفي حالة وقوع خطأ ما يكون من السهل علينا معرفة من المخطئ، ومن المتسبب في الضرر. فلو أنا زرعت في ممر الإبل أكون المخطئ، وإن هو أتى وتجاوز حدود أماكن المزارعين فهو مخطئ. ومع وجود محكمة الفُرشة كان يتم تسويه النزاع بكل سهولة ويُسر، ولكن مع موجات الجفاف، وإهمال الحكومات المُتعاقبة لعلامات الترقيم، أصبحت المسائل بلا ضابط ولا رابط مما ضاعف من المشاكل وفجر الصراع في المنطقة.»

أبو السبعين صانع السلم

مع طرح الشيخ يحيى لجذر المشكلة، سألته: «كيف دفع مشروع الوئام بحل هذه

المشكلة الضخمة؟» فقال الشيخ: «بالطبع رحبنا بالمشروع، لأننا أدركنا أن الحرب أكلت الزرع والنسل، والصغير والكبير، وجاء الجفاف فزاد فوق البلاء بلاء، حينها كانت نفوسنا كلنا تتوق لحل ما، فلما طرحت مبادرة السلام في 2011، دخلنا فيها كلنا أفواجا. ثم لما كان من تداعيات مبادرة السلام في الدوحة، مشروع الوئام، جلس شيوخ المزارعين وشيوخ الرعاة في القرية مع الدكتور «أبو بكر صالح» والشيخ «حسن» و«آدم»، لأجل التفكير في حل لمشكلة هجوم القطعان، والرعاة على أراضي المزارعين. فسأل الشيخ حسن شيوخ قبائل الرعاة: «لماذا تهجم إبلكم وأبقاركم على الأراضي الزراعية؟» فقالوا: «نحن لا نريد الضّرر لأحد، ولا نتعمّد مهاجمة إخواننا المزارعين إطلاقا، ولكن نتيجة الجفاف في المنطقة أصبحنا لا نجد الكلأ الكافي لإطعام الحيوانات، ومع عطش وجوع الحيوانات، صارت تهرب منا، وتشرد إلى أماكن المزارعين، فالأمر ليس بإرادتنا، إنما هو الجوع يدفع الحيوانات قبل أن يدفعنا، فما الحيلة؟»

ثم قال الشيخ يحيى، وهنا خيم الصمت على جميع الجالسين في المكان: «المطر بيد الله سبحانه، وإنبات العشب ليس بأيدينا نحن! فالأمر كله لله يصرفه كيف يشاء.» ثم زاد النقاش، وعلا الحوار بين الجموع، وحينها قال أحد شيوخ الرعاة: «لديّ حل ممتاز سيُعالج مشكلة الجفاف، ويطمئن المزارعين!» فالتفت إليه الجميع، متشوّقين لسماع رأيه، فقال: «الحل أن يُوفر لنا الهلال الأحمر أعلافا للحيوانات.» وهنا تكلم الدكتور أبو بكر وقال: «هذا أمر مستحيل تنفيذه، لأنه يحتاج إلى ميزانية ضخمة جدا خارج قدرات الهلال الأحمر. وثانيا الكميات المطلوبة ضخمة جدا، فتهاوى هذا الحل المُقدم من قبل شيخ الرعاة، ولكن الحوار في الجلسة وفق كلام الشيح يحيى استمر، حتى تكلم الشيخ «حسن»- مسؤول البعثة وبحكم عمله السابق في منظمة «الفاو» المُهتمة بالزراعة حول العالم- قال: «أنا أعرف أنواع الحشائش الموجودة في غرب دارفور، وخاصة تلك التي تتغذى عليها القطعان من الإبل والأغنام وأن أشهرها

نوع اسمه «أبو السبعين»، فما رأيكم لو تعاون الجميع في بذر بذور هذه الحشائش في موسم الجفاف وقبل هطول المطر على المراعي، حتى إذا جاء المطر نبتت هذه الحشائش مرةً أخرى بغزارة مُوفرةً الكلأ للإبل؟»

فوافق جميع الجمهور من الرعاة والفلاحين على تجربة الفكرة في الموسم الحالي ورؤية النتائج وما سيحدث من تطورات في الموضوع، وفعلا تولت لجنة «حماية الموسم الزراعي» تنفيذ المشروع. وقد قامت اللجنة بمساعدة الأهالي في زراعة عشرة آلاف هكتار بعشبة «أبو السبعين»، ومع هطول الأمطار تحولت الأرض القاحلة الصفراء إلى جنة خضراء، ونجحت التجربة الأولى. وبعد ذلك تم تعميمها على باقي المناطق. وقبل وداع الشيخ يحيى، قدم لنا الرجل هدية جميلة وغير متوقعة ولا يمكن تخيلها؛ إذ أهدانا أعوادا من قصب السكر التي يزرعها في حقله، وقال لي بكل عفوية وبساطة: «بلغ شكري لناس قطر كلهم على ما قدموه لنا من خير.» فشكرته، ودعوت لهم بالخير والأمن والسلم.

اليوم الثالث في «أرارا»

وبعدما عدنا من لقاء أحد شيوخ المزارعين، الشيخ «يحيى أبو إسحاق» وجلسنا معه هذه الجلسة الجميلة، حينها نكون قد طفنا على عديد من القيادات الشعبية والاجتماعية والقبلية في قرية «أرارا»، بقي إذن أن نمر على السلطات الرسمية حتى نعرف رأيها في المشروع. فمشروع «الوئام» قادر على إعادة السلام بين كافة المؤسسات، فمن غير المقبول أن يحدث الصلح بين المجتمع والقبائل، ويظل هناك عداء السلطة القائمة أو الحاكمة!

فسألت رئيس البعثة الشيخ حسن: «هل يمكن أن نلتقي بأحد من الرسميين بالقرية؟ وهل يوجد تمثيل للحكومة السودانية في هذه المنطقة النائية؟» فقال لي: «نعم هناك ما

يعرف باسم المُعتمد، وهو يُرسل من قبل الحكومة المركزية في «الخرطوم» ويكون ممثلا لها ويرأس الأمور الإدارية في القرية.» فقلت له: «أكون لك من الشاكرين، لو استطعنا أن نذهب إليه سويا، حتى نستمع له ونرى رأيه ورؤيته للمشروع.» فقال لي: «عندي لك خبر جيد سيسعدك.» انبسطت أساريري لتعليقه، فأردف قائلا: «المعتمد سيأتي غدا إلى مقر مجمع الخدمات، فعندنا معه بعض النقاشات حول المشروع، وبعض مطالب الأهالي التي يودون إنجازها. هناك اجتماع معه في الصباح الباكر، فجهز أسئلتك واستفساراتك، وماذا تريد أن تعرفه من المعتمد.»

واستعدادا للقاء جلست أراجع وثائق المشروع، وأحدد ماهي الأسئلة التي سأسالها للمُعتمد، لكي أعرف رأيه في المشروع، ثم بعدها أخذت قسطا طويلا من النوم، إذ كما حدثتكم سلفا بأن مسيرة النوم والمُكوث فوق السرير في المنطقة إجباريا، يبدأ من وقت غروب الشمس إلى مطلع الفجر، تحاشيا للدغات البعوض، الحشرة الملعونة حاملة الملاريا، وأثناء الليل قلت لنفسي: «العيش هنا هادئ وبسيط، وينعم الناس بسكون غريب، قلما اشتهاه أمثالنا ممن يعيشون تحت ضغط آلة العمل و المدينة، لكن كيف يعيش الناس وهم مجبرون على قضاء نصف وقتهم فوق الأسِّرة، وداخل البيوت؟» كان الشيخ حسن ينام معي في نفس الغرفة على سرير مُقابل، فقلت له: «كيف يعيش الناس حياتهم هنا وسط كل هذه المخاوف من الملاريا؟» فقال لي: «من رحمة الله على الناس أن المرض ليس موجودا في كل الإقليم، وثانيا مرض الملاريا عادة ينتشر في فصل مناخي مُحدد هو الخريف، حينما يسقط المطر، وتتكون برك المياه، أما الشهور الأخرى غير الخريف نادرا ما ينتشر فيها المرض.»

ومع شروق الشمس استيقظنا، وتناولنا الإفطار، وانتظرنا قدوم المعتمد لمجمع الخدمات، وفي تمام الساعة التاسعة صباحا نظرت إلى مدخل مجمع الخدمات، فإذ بي أرى رتلا من السيارات العسكرية رباعية الدفع، يقف على أبوابها جنود مسلحين،

وإذ بها تتوقّف في منتصف مجمع الخدمات، وينزل منها رجل تبدو علية مظاهر الهيبة والجلال، وسمعت الطاهر وهو عامل يشتغل في المكان يقول للشيخ حسن: «لقد وصل المعتمد.» فأول ما لفت انتباهي هو وجود سيارتين عليها جنود أشدّاء، قد رزقهم الله بسطة في الجسم يحرسون سيارة رباعية، والتي كان فيها المُعتمد! فتساءلت لماذا كل هذا التأهب العسكري الكبير لزيارة مسؤول محلي عاديّ، وليس وزيرا أو حتى محافظا للمنطقة؟

ونظرا لبدء الاجتماع مع المُعتمد، قمت بتسجيل السؤال في كراستي، لحين الحصول على إجابة عليه في وقت مناسب، فجلسنا واستقبلنا المعتمد، وبدأ الاجتماع مع لجنة الوئام التابعة لـ«الهلال الأحمر»، ودار معظم النقاش بينهم على تطورات المشروع، فكان طلب فريق مشروع الوئام من المُعتمد هو التسريع في عملية تمهيد الطرق بين القرى المجاورة لقرية أرارا، حتى يستطيع الناس الوصول لمجمع الخدمات والمستشفى بسهولة. وحينما أقول كلمة تمهيد الطرق لا يعني ذلك القيام برصف الطريق، وإنما يعنى فقط مرور «البلدوزر» عليها لإزالة الصخور والأحجار الضخمة منها فقط!

ثم انتقل النقاش إلى مُقترح تطويري خاص بمشروع تقدم به المهندس «آدم إبراهيم الشيخ»، وهو مد خط مياه نقية من مقر مجمع الخدمات إلى أحياء القرية المجاورة، إذ يقع المجمع مشروع الوئام على مشارف القرية المحرومة من المياه النقية التي يتمتع بها المجمع، لذلك يهدف المشروع إلى تزويد سكان القرية بالمياه النقية عبر مد خط أنابيب من المجمع إلى داخل القرية والتي ستفتح في أوقات محددة، حتى يتمكن الناس من شرب المياه المُعالجة، والحصول على جرعات من المياه النقية التي تحفظ عليهم حياتهم بعيدا عن المياه الملوثة. ولتنفيذ هذا الأمر لابد من وجود ميزانية؛ فتم الاتفاق مع المعتمد على أن المهندس «آدم» يشرف على

المشروع، ولكن على المعتمد أن يتواصل مع الأهالي ليوفروا مواسير المياه، ويوفّروا أيضا شبابا عاملين ليقوموا بحفر هذه المسافة الطويلة، حتى يتم دفن هذه المواسير، ومد شبكة المياه للقرية، فتم الاتفاق ما بين المعتمد وفريق «الهلال الأحمر» على توفير مجموعات من الشباب، وتوفير الميزانية؛ لكي يبدأ المهندس «آدم»، وعند هذه النقطة يكون اللقاء بين المُعتمد وفريق الهلال الأحمر قد انتهى. وكان أبرز ما سجلته عن هذا اللقاء في استمارة تقييم المشروع نجاح الفريق المسؤول عن مشروع الوئام في تحقيق التنسيق الكبير ما بين الجهود الحكومية والجهود الشعبية بما يحقق أهداف المشروع، وذلك بشكل سهل، وبتكلفة أقل، كما اتضح في مشروع مد خطوط المياه النقية، بعد أن انتهى اللقاء فوجئنا بأن المعتمد يطلب منا التحرك معه إلى قرية بجوار «أرارا» تُسمى قرية شوشتا، حتى نسمع مطالبها فلم يملك الفريق إلا الاستجابة لطلبه سريعا، فتحركنا في سيارة بعثة «الهلال الأحمر» بقيادة سائقنا سليمان، وكنا نسير وسط المركبات المسلحة، وكانت هناك سيارة مُسلحة في المُقدمة، وأخرى في الخلف ونحن بينهما، فهنا همست في أُذن «الشيخ حسن» وقلت له: «لماذا هذا التوتر الأمني؟»

فقال لي: «هناك قرى ما زالت لم توقع على «اتفاقية السلام»، ونحن سنمر عليها، وهذه القرى بها حركات متمردة تستهدف أي رمز للحكومة في المنطقة، وبالتالي لابد من خط سير معتمد مؤمن، لا يتم استهدافه من القوى المناوئة.»

وكانت قرية «شوشتا» تبعد (١٠ إلى ١٥ كم) عن قرية «أرارا». وما هو جدير بالذكر أننا ذهبنا في حماية المعتمد حتى وصلنا إلى قرية «شوشتا»، وعندما دخلنا القرية فوجئنا باجتماع كبير في وسط القرية، وإذ بشيخ القرية يقف ليرحب بنا، ثم بدأ في تقديم مطالب أهالي قريته للمعتمد، ولفريق الهلال الأحمر، والتي كان من أبرزها إدخال قريتهم ضمن مشروع الوئام المُطبق في قرية أرارا المجاورة، فبدأت

أسجّل هذه المطالب. وشرح شيخ القرية للفريق مطلبه فقال: «إن قرية «أرارا» هي الأخت الكبرى للقرى المحيطة بها، وأن السكان في «شوشتا» إن أرادوا بيع بعض المنتجات أو الشراء يذهبون إلى سوق «أرارا»، وإذا أرادت النساء عصر محصول الفوق السوداني أو السمسم، يجب عليهنّ المشي إلى قرية أرارا. فلا توجد معاصر في قرية «شوشتا»؛ لذلك يطلب من الهلال الأحمر مساعدتهم بعمل معصرة للزيوت في داخل القرية.» ومن خلال المعلومات التي توفرت لي في الميدان عن قرية «شوشتا»، وعلى الرغم من أنها انحازت للسلام إلا أنه لا يمكنها الدخول في قائمة القرى المستهدفة بمشاريع بناء السلام لأن عدد سكانها أقل من (15 ألف نسمة) بكثير؛ لذلك مطالب شيخ القرية انحصرت في تزويدهم ببعض الخدمات الجزئية.

وقد انتهى الاجتماع العام مع أهالي القرية وشيخها والمعتمد قبيل صلاة الظهر، وتحركنا بعد ذلك محيط القرية، فوجدت هناك طاحونة كبيرة للحبوب في مدخل القرية قدّمها الهلال الأحمر باعتبارها مشروع خدميا للقرية، يساعد على الاستقرار، وتحسين سبل العيش في القرية، وخاصة لفئة النساء. وعلى الرغم من تواضع حجم الطاحونة وصغر قدرتها، إلا أنني لمست فرحة الناس في القرية، وسعادتهم الغامرة بها، وخاصة النساء لأنها وفَّرت عليهم طحن الحبوب بالطرق التقليدية اليدوية المُرهقة. بعد زيارة الطاحونة، وجدت مؤسسة كندية تبني مقصبا لذبح البهائم على يسار هذه الطاحونة فسألت الشيخ «حسن» أنكم أخبرتمونا سابقا أن المنظمات الغربية فرّت من هذا المكان ولا تعمل فيه، فكيف جاءت هذه المنظمة الكندية لتقوم ببناء مقصب للأهالي في قرية شوشتا؟ فأجابني: أنه عندما بدأ الهلال الأحمر في مشروع السلام والوئام بدأت «الأمم المتحدة» ترصد حالة الاستقرار التي بدأت تدُب في المنطقة، وهذا شجع المؤسسات الخيرية العالمية على الرغبة في العودة إلى العمل في المنطقة بالتنسيق مع الحكومة، وبدأت الدولة تمنح تراخيص للمؤسسات الغربية التي لا علاقة لها بالعمل السياسي، ومن هنا بدأت هذه المؤسسات تطلب الشراكة

معنا لكي ندخلها لهذه القرى، ونوضّح لها الاحتياجات الخاصة، بكل قرية في إقليم غرب دارفور. وعلى سبيل المثال، حين تواصلت معنا المؤسسة الكندية، أخبرناها أنّ قرية شوشتا بحاجة ماسة لمقصب (مذبح)، نظرا لأن الناس يذبحون الذبائح على الأرض في أماكن غير مُهيأة للذبح؛ مما يجعل لحوم الذبائح ملوثة، وتتسبب في إصابات للأهالي عند تناولها.

وبعد تجولنا في قرية «شوشتا»، وسماعنا للآراء من قبل المعتمد كان لا بد من العودة قبل حلول الليل، ونزول الظلام سريعا حتى ندرك الوقت في قرية «أرارا» قبل مجيء الليل وانتشار البعوض، وأيضا أمنيا لابد من تأمين عودة المعتمد إلى مقر إقامته في محلّة «البيضا»، حتى لا يتعرض لأي هجوم ليلي من بعض القرى أو بعض القوات التي تعارض الحكومة. ونحن في طريق عودتنا مسرعين حدث انفجار في إحدى إطارات سيارات الحراسة، واستدعى ذلك توقّف الموكب كاملا، وفوجئت بأن القوة العسكرية المُرافقة لنا بدأت تنتشر حول الموكب، وهي في وضع استعداد وتأهب تحسبا لأي استهداف بالقذائف للموكب من قوات المتمردين أثناء إصلاح إطار السيارة، باعتبارها هدفا ثابتا يسهل اصطياده.

وبعدما وصلنا بحمد الله إلى مقر إقامتنا في قرية أرارا، طلبني المُعتمد للركوب جواره في سيارته وقال لي: «بلغ شكري لإدارة الهلال الأحمر في الخرطوم والدوحة على جهودهم الخيرية التي يقومون بها في محلة البيضا، فجهودهم ربنا مُبارك فيها، ولها أثر طيب في عودة السلام والأمن للناس، وهذا على عكس مشاريع «بعض» الهيئات الأخرى، والتي يبدو لنا أن العائد منها ضعيف إن لم يكن معدوما.» بدى أنه رأى في وجهي الحذر من تلقي التعليقات على أداء المؤسسات الأخرى، أو خشي من فهمي أنه يجاملنا، فقال لي: «أعطيك مثالا واضحا على ما أقول لك.» فقلت: «تفضل.»

فقال: «عندما تعطل الموكب بنا، لو نظرت عن يمينك لوجدت مجمعا ضخما للخدمات لا يعمل، ومُغلقا للأسف، وتسكنه القطط والكلاب. ولعلك تسأل لماذا وصل الحال بهذا المُجمع إلى هذا المستوى من الإهمال والتدهور؟» فقلت: «نعم بالطبع.» فقال: «هذا المُجمع بُني من قبل إحدى المؤسسات الخيرية الخليجية، وتم تزويده بكل الأجهزة الحديثة ولكنها لم تراعِ فكرة إعادة السلم المجتمعي أولا بين سكان القرية المتحاربين، قبل بناء مجمع الخدمات. ولذلك في يوم افتتاح المشروع حدث اشتباك ضخم جدا بين القبائل المتحاربة، فكل قبيلة كانت تحاول السيطرة على مقر المجمع، والاستفادة منه دون القبائل الأخرى، ونتج عن هذه الاشتباكات قتلى وجرحى، ووصل الأمر في النهاية أن المجمع أغلق تقريبا، لأنه يقع في منطقة قريبة من إحدى القبائل المتحاربة، وبعيدا عن القبيلة الأخرى. فاختيار الموقع كان خطأ لأنه بجوار قبائل المزارعين وبعيد عن أماكن الرعاة، وهذه القبائل ما يزال بينها خلاف. وهذا الخلاف حال دون عمل هذا المستوصف ومجمع الخدمات بل كاد أن يأتي عليه تماما، وتسبب في تأزيم الأزمة وعدم حلها. هذا هو الفرق الكبير بين عمل «الهلال الأحمر القطري» ضمن منظومة «الوئام وبناء السلام» قبل إنشاء المشاريع التنموية، ومؤسسات أخرى تعمل دون أن تراعي الجانب الخاص بالمنطقة والإقليم، وهذا المجمع لا يزال إلى الآن مغلقا للأسف.» ونزل الرجل بعدها من سيارتي، وودعني بكل حفاوة واهتمام، وعند هذه المحطة يكون قد قضي يومنا الثالث في قرية «أرارا».

اليوم الرابع في أرارا

ومع بداية يومي الرابع والأخير في قرية أرارا والذي سأُغادر فيه المنطقة عائدا إلى مدينة «الجنينة» جلست في الصباح الباكر ألملم فيه ملفاتي، وأرتب فيه الأشياء، وأنظر فيما تم إنجازه، وما لم يُنجز من المهام، وبينما أنا مُنهمك في تسجيل بعض الملاحظات الهامة حول المشروع نادى على الدكتور أبو بكر لتناول الإفطار في الاستراحة معه، فرحبت وذهبت إليه. وأثناء تناول الطعام قلت له مازحا: هل لديك

أقوال أخرى يا دكتور قبل إغلاق ملفات التحقيق؟» فقال: «عندي أقوال مهمة.» فقلت له: «تفضل.» فقال: «من المهم أن أكلمك تفصيلا عن لجنة مهمة من لجان المشروع.» فقلت له: «تفضل أسمعك بإنصات». فقال: «إن أهم أنشطة مشروع الوئام في أرارا مشروع (كسب العيش).»

من الرصاص إلى الغراس

وتابع أبو بكر حديثه بأن مشروع كسب العيش هو نشاط هدفه توفير فرص عمل للفقراء وللمحاربين العائدين للحياة المدنية بعد اتفاقية سلام الدوحة، إذ وجدنا في القرية بعد فترة من الزمن مقاتلين عائدين للقرية لا يعملون وليس لهم حِرف يعملون فيها؛ لأنهم باتوا محترفين في زرع الألغام وقنص الكمائن والسطو على المزارع. وأصبحت علاقاتهم بسبل كسب العيش تكاد تكون معدومة إذ أصبحوا غير مهيئين نفسيا للعودة لمهنهم. وهذا الوضع يعنى تهديدا للسلام في القرية؛ نظرا لتمتعهم بخبرات قتالية، ومع وجود مشاعر الانتقام والغضب لديهم ربما يتفجر النزاع في القرية من جديد بسببهم. فقررنا أنا نتعامل مع هذه المُشكلة بشكل جاد من خلال حصر أعداد المُقاتلين أولا ثم دعوتهم بعد ذلك للتشاور معهم في توفير سبل لكسب الرزق الحلال عبر أعمال مناسبة لهم سواء في أنشطة المشروع أو في خارجه، وبدأنا في تنفيذ التجربة بهدوء وخطوة خطوة. عيّنا المُقاتل السابق «إبراهيم محمد» كحارس مقيم في المُجمع، ووفرنا له غرفة للإقامة ومرتبا شهريا مجز، ثم بعد ذلك بدأنا نوفر فرصا أكبر، إذ عيّنا الشيخ نصر الدين الذي كان قائدًا لقوات المزارعين في النزاع رئيسا للجنة فض النزاعات في مشروع الوئام. فتعجبت من كلام الدكتور أبو بكر وقلت له: «يا دكتور هذا الأمر أقرب للخيال من الحقيقة! تحويل مقاتل شرس إلى صانع سلام كتحويل أسد هصور إلى فارس نبيل!» وقلت له: «بعد إذنك لن أغادر اليوم القرية حتى ألتقي بالشيخ نصر الدين وأسمع منه بنفسي.» فقال: «سأحاول تدبير الأمر، حاضر.» فنادى على سليمان السائق وأمره أن يبحث عن الشيخ نصر الدين ويطلب منه القدوم إلى مقر الاستراحة للأهمية والضرورة.

واستكمل الدكتور أبو بكر حديثه معي قائلا: «ألم تلاحظ شيئا غريبا في الاستراحة؟» قلت له: «ماذا تقصد؟» فقال: «منذ وصلنا للاستراحة ونحن نتناول طعاما لذيذا في الإفطار والغداء والعشاء بانتظام بدون تأخير.» فقلت له: «صحيح.» فقال أبو بكر: «إذا تعال معي.» فتحركت معه نحو الجهة الشرقية لمبنى الاستراحة، لأجد مطبخا كبيرا تعمل فيه امرأتان. فقلت له: «تمام لقد رأيت المطبخ والعاملين فيه. هل هذا ما أردت أن أُشاهده معك؟» فقال: «لا، وإنما أردت أن ترى الطباختين اللتان تعملان في تجهيز الطعام داخل الاستراحة، وهما في الأساس فقيرتان تحتاجان إلى مساعدة. تقومان بالطبخ لنا بمقابل مالي، كما تحصلان على غذائهما اليومي من المطبخ. وبالتالي نحن قد نجحنا في تأمين دخل لأسرتيهما. انتهى، فسألت إحداهما عن اسمها فقالت: «اسمي زهرة وعندي تسعة أبناء.» فقلت لها: «منذ متى يا زهرة وأنت تعملين هذا المكان؟» قالت: «منذ عامين والحمد لله بفضل عملي هذا استطعت إطعام أولادي وتوفير مصاريف الدراسة.» وهنا قال الدكتور أبو بكر أن عمل هاتين المرأتين معنا يأتي ضمن برنامج كسب العيش الذي يستهدف تشغيل الفقراء والمُقاتلين.

وبعدما انتهيت من زيارة المطبخ قال: «تعال لنجلس.» طلبتُ أن أذهب إلى الحارس الحاج «إبراهيم»؛ لكي أتعرف منه على قصته فوجدته لم يكتف بأن يكون حارسا فقط، ولكن وجدته يجلس أمام خيمة صغيرة من القش مقابلة لبوابة المجتمع فقلت له: «هل هذه الخيمة تابعة للمجمع؟» فقال لي: «لا هذه خيمة وضعتها لأُربي فيها الفراخ والكتاكيت مستفيدا من بقايا الأكل الذي يتبقى في مطبخ الاستراحة، لذلك لم أُطل معه الحديث فقد لمست فيه تحولا كاملا عن نفسية الصراع والقتل، وبدا أنه أصبح محبا للحياة، ويستقبل الناس بترحاب رقيق، ويرغب في زيادة دخله من خلال تربية الفراخ.»

وبعد مرورنا على الحارس قلت للدكتور أبو بكر: «وهل هناك حالات أخرى غير التي رأيناها استفادت من برنامج كسب العيش؟» فقال: «نعم ولكن الأهم في برنامج كسب العيش أننا نظمنا دورات تدريبية لتعليم المهن والحرف للناس حتى يبحثوا هم بأنفسهم عن أرزاقهم.» فقلت له: «وهل أثرت هذه الورش في الناس؟» فأجاب: «نعم؛ إذ أقنعنا الرعاة الذين لم يبق لهم قطعان جراء الحرب، ولا يجدون سبلا للعيش أن يتحولوا للتجارة. واشترينا سلعا بسعر الجُملة من مدينة الجنينة، ليقوموا ببيعها في سوق أرارا. هذا التحول نوعي وعميق؛ أن تقنع راع أن يتحول إلى إنسان مستقر ويظل في مكانه، وهو المُعتاد على السفر وعدم القعود والاستقرار في مكان مُحدد. وأيضا ساعدنا المزارعين الفقراء إذ علمناهم كيف يزرعون محاصيل مثل «الملوخية»، وزودناهم بفسائل أشجار الموز على سبيل المِثال. المهم أننا حرصنا على أن نعلم الناس أن الانتقال بين المهن ليس عيبا، ونجحنا بدرجة كبيرة في إشاعة هذه الثقافة؛ أنّ السعي على أكل الرزق والعيش هو أحد سبل السلام والجلوس فارغا هو مدعاة لتكرار الآلام. فقلنا للناس: املؤوا أوقاتكم بالعمل والمحبة بدلا ملئها بالآلام والذكريات الحزينة.» وعند هذه النقطة تذكرت عنوانا مهما كان مذكورا في وثائق المشروع تحت عنوان مزارع الوئام. فقلت لأبو بكر: «هل مزارع الوئام من مشاريع كسب العيش.» فقال: «تلك ملحمة كاملة. سأُقص عليك نبأها.»

مزارع المحبة

مزرعة الوئام والسلام نشاط يهدف إلى إعادة الوئام الاجتماعي بين القبائل المتحاربة سابقا، وللمزارع هدفان رئيسيان: الأول توفير وسيلة كسب للأمهات الفقيرات من خلال عملهن في المزرعة؛ والثاني تنمية وشائج الرحمة والمحبة بينهنّ، عبر تنوع القبائل التي تنتمي لها لمزارعات؛ فكل مُزارعة تنتمي إلى قبيلة وعائلة مختلفة عن الأخرى. ونتيجة النزاع سابقًا فمعظم القبائل التي ينتسبن لها انخرطت في الصراع الأهلي في دارفور، وهذا ما قاد إلى سيادة القطيعة والكراهية بين أفراد تلك القبائل على المستوى الاجتماعي والثقافي؛ فحالات المصاهرة بين القبائل أصبحت نادرة، والمشاركة في المناسبات الاجتماعية بين مختلف العائلات أصبحت عزيزة! فجاءت فكرة جمع هاته المزارعات الفقيرات بعد توقيع اتفاقية السلام للعمل يدا بيد في مزرعة واحدة، يتقاسمن أُكلها الذي يفيض منها بإذن ربها بينهن بالتساوي. وهي وسيلة تُساعد في إعادة رتق النسيج الأهلي الذي تمزق بفعل الصراع، فشرط مشروع الوئام لمنح المزارعات مساحة لعمل المزرعة، وتقديم المساعدة لهن، وتوفير الآلات الزراعية: هو قبولهن بالعمل معا، وإزاحة الكراهية والذكريات المؤلمة للحرب جانبًا، والتعلُّق بالأمل وتضميد الجراح عبر الشراكة، وعدم السماح للماضي المؤلم أن يغتال المستقبل، وقد ساهمت فكرة مزرعة الوئام في إنشاء فضاء اجتماعي جديد في قرية (أرارا)، يقوم على التواصل والمسامحة والمحبة.

وبينما نحن جلوس مع الدكتور أبى بكر نتجاذب أطراف الحديث عن خبايا ونجاحات المشروع، كان سائقنا الهُمام سليمان قد وصل بسيارته إلى بوابة الاستراحة ولمحت على يمينه شخصا عظيم الهيئة، فارع الطول، ضخم الجسد كأنه قُدّ من جبل، فقال لي ساعتها: «أبو بكر، هذا هو الشيخ نصر الدين.» فقمت وافقا من مكاني مسرعا لاستقباله والترحيب به. وفي هذه اللحظات شعرت بالفرحة والسعادة لأن الله يسر

لقائي بهذه الرجل قبل مغادرتي القرية؛ إذ تمثل تجربته الميدانية بتحوله من مقاتل إلى صانع سلام ومسؤول عن محاصرة العنف والكراهية في القرية ذروة أمل أي مهتم بناء السلام وفض النزاعات، فكما تعلمون، غاية العاملين في بناء السلام هي إقناع الناس بأن الأصل في الحياة هو السلام وليس الحرب، والمحبة لا الكراهية، والتواصل بين البشر لا القطيعة بينهم، وعندما تتجسد هذه الغاية في تجربة ميدانية يمكنك أن تسألها وتستلهم الدروس منها فذلك سبق عظيم ومنحة فاضلة. وقد لمس الدكتور أبو بكر تأهبي لسماع الشيخ نصر الدين؛ فدخل مباشرة في الحوار وعرف الشيخ بي وبمهمتي وتركني أنهل من حديث الرجل كيف أشاء. فسألت الشيخ نصر الدين أولا سؤالا عاما فقلت له: «لماذا تصارع الناس في المنطقة وكانوا من قبل يعيشون في سلام؟» فأجاب: «السبب الذي دفع الناس للحرب هو الجفاف الذي ضرب المنطقة، فأصبح الرعاة لا يجدون الكلأ الذي يسدُّون به رمق أنعامهم، ولا الماء الذي يروون به ظمأهم وعطش دوابهم؛ فتعرضت أراضي الفلاحين ومزارعهم لمصائب كبيرة، واعتداءات مُفجعة، من قطعان الإبل الجائعة، ومجموعات الأبقار الهائمة على وجهها بحثًا عن الماء والزرع. وتشاركت الأغنام والماعز في حملات السطو على المزروعات، فقد بلغ الجفاف في الإقليم مبلغًا عظيمًا، جعل الرعاة لا يستطيعون كبح جماح قطعانهم من الإغارة على أراضي الفلاحين وآبارهم، فإذا نجح الرعاة نهارًا في ضبط القطيع، تسرَّب القطيع ليلًا نحو المزارع، ومع تكرار الخسائر في أراضي الفلاحين آناء الليل وأطراف النهار، قرَّروا تشكيل مجموعات مسلحة لحماية الحصاد الذي تعبوا في رعايته شهورًا عديدة من البذر والسقي والعرق، وكان يضيع في ساعة من نهار أو ليل، إذا جاست فيه الإبل بأقدامها بين الحقول، ومع اشتباك هنا ومعركة هناك أمسكت نيران الحرب الأهلية في ثياب القرية، ثم امتدت على طول صفحة إقليم دارفور، إذ تشكلت ميليشات وعصابات، وتدخلت قوى عالمية وإقليمية، واستعانت الحكومة المركزية بقوات رسمية ومحلية لضبط الأمور، ولكن سبق السيف العَذَل.»

ثم سألته وماذا كان دورك في هذه الدوامة من العنف يا شيخ نصر الدين؟

فأجاب الشيخ قائلا: «مع تدهور الأحوال، وتكرار هجمات الرعاة علينا وما حدث جراء ذلك من انتهاكات للفلاحين، قررت أن أكون مدافعا عن قومي المزارعين ضد هجمات الرعاة المتكررة، سواء التي جاءت بقصد أو عن غير قصد، فانتشار الكراهية وحب الانتقام والرغبة في الثأر جعل العقول لا تعمل، والأفئدة لا تُبالي بصرخات الضحايا، وآهات الأرامل والمساكين. فقد صار الكل عدوًّا للكل في القرية، ثم التحقت في العام 2004م بإحدى حركات التمرد بالمنطقة، وصرت قائدًا محليًّا للحركة في غرب دارفور، وخضت معارك ضارية ومؤلمة مع القوات المحسوبة على الرعاة والتي تسمي محليًا (الجنجويد)، ثم ترقيت عسكريًّا داخل الحركة، فأصبحت مسؤولًا عن قطاع عسكري عريض في غرب دارفور، أتحرك فيه أناء الليل وأطراف النهار؛ أحشد المزارعين ليكونوا جنودا في الحركة.»

ثم جاء دور سؤالي الأهم له: «ولماذا تركت السلاح بعد ذلك؟»

فأجاب: «حصلت لي واقعة فارقة ومؤلمة؛ ففي العام 2006 وفي أحد ليالي دارفور المُظلمة هاجمت إبل الرعاة الجائعة قريتي؛ فأهلكت مئات الأفدنة المزروعة بمحصول الكركديه، الذي تعتمد عليه القرية في نشاطها الاقتصادي. وبعد مرور وقت قصير من الهجوم، تنبهت مجموعة الحراسة التي أقودها للواقعة، وبادرت بإطلاق النار على الإبل حتى تهرب، ومع شروق شمس اليوم الجديد بدأت في تقدير الخسائر، فوجدت أننا قتلنا عشرة من الجمال وثلاثة من الأفراد، ثم أمرت مجموعتي المسلحة بالانتشار حول القرية لمعرفة أماكن تمركز الرعاة وإبلهم، فاكتشفوا أن الرعاة قد نصبوا خيامهم على بعد خمسة كيلومترات من القرية، فذهبت إليهم من أجل طلب التعويض عن الخسائر التي تسببوا فيها، وذلك وفق عرف قبلي محلي اسمه «الجودية»، وبعد سجال حادٍ اكتشفت أن الإبل المهاجمة لهم تحركت من

تلقاء نفسها، تحت ضغط الجوع والعطش وطول السفر، فهي قادمة من جمهورية تشاد المجاورة، ولم يجد لها الرعاة الماء أو الكلأ، فما كان من الإبل إلا أن تسربت إلى حقول القرية، ولما اكتشف الرعاة تسربها انطلقوا خلفها محاولين إجبارها على العودة، لكن فشلوا في ذلك.» وهنا بدا الأسف على ملامح وجه نصر الدين وهو يحكي الحكاية، ثم تابع قائلا: «لقد تأكدت بأن الرعاة الثلاثة الذين قتلتهم، ماتوا بلا ذنب جنوه، ولم يكونوا مهاجمين وإنما كانوا مسالمين يحاولون السيطرة علي إبلهم المُتسللة، وإبعادها عن مزارع الفلاحين! وقال من أجل ذلك رفضت قبول التعويض الذي عرضه شيخ الرعاة. ويقول نصر الدين أن هذه الحادثة فارقة في حياته؛ فقد جعلته يفكر عميقًا في جدوى حمل السلاح، ويعيد النظر في جذور الصراع، ليكتشف أن العديد من هجمات الرعاة السابقة وربما اللاحقة لا تتوفر فيها نية قصد الضرر بالمزارعين.»

المسجد المحروق

واصل الشيخ نصر الدين حكايته بطرح وقائع بالغة الإثارة ومُفعمة بالألم والحزن العميق، وأخبرنا أن هناك مصيبة كبرى حدثت بعد حادثة الإبل بعامين، هزت وجدان الرعاة والمزارعين معًا، فقد تعرضت إحدى قرى للمزارعين لهجوم كاسح ومتعمد من قبل البقارة (رعاة البقر)، وحصل اشتباك بين الطرفين، وقتل عدد كبير من الأفراد، وأحرقت بيوت، وهلكت أبقار، ووقع في الأسر العديد من الأشخاص. ومع حلول الليل انتصرت قرية المزارعين على الرعاة، فبدأت مجموعة الرعاة في الانسحاب، وهي تُلملم أشلاء قتلاها، وما كان من الرعاة بعد ذلك إلا أن قرروا الانتقام من القرية بطريقة وحشية، فانتظروا أسبوعًا كاملًا لتجهيز الخطة والعدة من أجل إحداث انتقام مؤلم؛ فقرَّروا الهجوم على مسجد القرية المصنوع من الخشب والقش أثناء صلاة الجمعة، وإضرام النار فيه بإلقاء كرات اللهب عليه، ومحاصرته

بمجموعة من المُقاتلين المزودين بالبنادق الآلية، لقنص كل هارب من الحريق! وقد نفذ الرعاة خطتهم المتوحشة؛ فسقط في الحادثة نحو 150 من المصلين بين محروق بالنار، ومُصاب بالرصاص المسجور، ولما سمع الشيخ نصر الدين بالواقعة حرك مجموعته، واشتبك مع المهاجمين بغرض فك حصار عن المسجد، وإسعاف المصابين الناجين، وبعد انقشاع غبار المعركة انشغلت القرية في لملمة جراحها، ودفن موتاها، ثم تداعت مجموعات المزارعين المسلحة من أجل الإعداد لانتقام موسع من الرعاة، وبدأت كل مجموعة مسلحة في عرض خطتها؛ فطرحت طرق انتقام، مثل تسميم آبار المياه من أجل قتل أكبر عدد من الرعاة والإبل والأبقار والأغنام! ونوقشت خطط نصب كمائن لخطف الرهائن، وقدمت مقترحات لحرق قُرى الرعاة بكاملها وبمن فيها من النساء والأطفال، إلا أن نصر الدين كما حكى لنا ظل صامتًا طوال النقاش، ولم ينبس ببنت شفة؛ فقد سرح بخياله، فوجد أن الحياة في غرب دارفور تحولت إلى جحيم على الجميع، بسبب الانتقام والكراهية المتبادلة بين الكل. فكل هجمة للرعاة تنطلق بعدها حملة ضدهم من المزارعين، وكل غارة للمزارعين على الرعاة يعقبها انتقام من الرعاة ضدهم، بشكل أعنف، حتى تخضبت أراضي القرى بالدماء والأشلاء؛ فلم تعد الأغنام ترعى ولم تعد الأرض تُنبت، ولم تعد الإبل تجد قوتها! فقد أحرق أتون الحرب الأهلية الأرض والماشية، في معركة لا رابح فيها، وإنما الجميع فيها خاسرون. قال: «ومن ساعتها بدأت حماستي للعنف والبارود تبرد، فتخليت عن قيادة المجموعة المسلحة، وأصبحت فردًا مقاتلًا فيها فقط، وتخليت عن زمام القيادة لصالح شاب قُتل أبوه في حريق المسجد، ثم بعد ثلاثة أشهر انسحبت من المجموعة تمامًا، وعدت إلى قريتي، ولكني لم أنس مظلومية إخواني المزارعين، فكنت دائم التفكير والبحث عن مسار آخر لنيل حقوقهم غير العنف الذي وسَّع دائرة الانتقام، ومدد نطاق الكراهية، وجعل العيش المُشترك بين أبناء القرى مستحيلًا.»

محاسن الأقدار

قلت له: «كلامك مهم ومفيد» وقد فهمت منه لماذا توقفت عن القتال ولكن السؤال الأهم الآن «كيف تحولت لرمز للسلام وصانع له في المنطقة؟»

فأجاب الشيخ «في نهايات عام 2010م جاءت لجنة إنسانية دولية لزيارة القرى المتضررة في غرب دارفور، حيث أسكن، وطلبت اللجنة من كل قرية أن ترسل وفدًا ممثلًا لها للتشاور في مدينة الجنينة عاصمة غرب دارفور؛ فحضرت ممثلًا عن قريتي، وسافرت إلى مقر اللجنة بالعاصمة، فوجدت أن هدف اللجنة هو البحث عن شركاء محليين من المزارعين والرعاة، يؤمنون بأن هناك طرقًا أخرى لنيل الحقوق غير خيار العنف والدم، وذلك للتشاور معهم في البدائل الممكنة، التي لا تجعل الناس في دارفور محصورين في خيارين اثنين: أما أن يكونوا ضحايا أو قاتلين، فكان ذلك من محاسن الصدف التي حصلت في حياتي؛ فقد تقاطعت مهمة اللجنة الدولية مع رغبتي في البحث عن بدائل غير العنف؛ فواصلت حضور برنامج اللجنة الذى شمل التدريب على تحليل النزاعات وإدارتها، ومعرفة وسائل بناء السلام، وآليات دمج المُقاتلين في الحياة المدينة.

ثم تسارعت خطا بناء السلام في الإقليم بعد ذلك من قبل جهات متنوعة، فكان من أبرزها وأهمها اتفاقية الدوحة للسلام المُوقعة بين الحكومة السودانية، وبعض الحركات المتمردة في الإقليم، والتي وُقعت في العام 2011م، فحل الهدوء في العديد من قرى غرب دارفور، ودخلت قرية الشيخ نصر الدين في هذه الاتفاقية، وبدأت منظمات الإغاثة في التدفق على المنطقة من أجل مساعدة الأهالي في تخفيف آثار الصراع، وكان الهلال الأحمر القطري من أوائل المؤسسات التي بدأت تعمل في المنطقة عقب اتفاقية سلام الدوحة، وطرح الهلال الأحمر القطري العديد من المشروعات الإنسانية، ومن أبرزها مشروع

الوئام في غرب دارفور، الذي يستهدف تسخير كل إمكانات العمل الخيري ليصب في رافد إعادة الوئام والسلام بين المحاربين سابقًا، عبر الاستفادة من جهود أهالي القرى أنفسهم، فلما سمعت بالمشروع ذهبت وطلبت التطوع به، فوافق الدكتور الجالس على يمينك على انضمامي للمشروع، فنظرت إلى دكتور أبو بكر وابتسم الجميع، ثم اختارني الدكتور أبو بكر لأكون مسؤولا عن لجنة الوئام المتخصصة في فض النزاعات بين الأهالي، حتى لا تشتعل الحرب من جديد».

كان سماعنا لحكاية الشيخ نصر الدين في ختام رحلتنا هو مسك الختام الذي جعل لنهاية مُغامرة السفر إلى قرية أرارا نكهة ومعنى، فكما تعرفون أن الانطباع الأخير يدُوم كما الانطباع الأول تماما، ومع ختام حديثنا الشيق مع الشيخ نصر الدين نادى علينا العم سليمان السائق يدعونا لطعام الغداء، الذي جاء في حينه، بعد يوم مملوء بالحكايات والقصص النادرة والهامة عن مشروع السلام الذي حل على القرية أخيرا بعد سنوات طويلة من الصراع الدامي.

وبعد الانتهاء من الغداء وتوديع الشيخ نصر الدين، بدأ السائق الهمام «سليمان» يعد السيارة لخوض رحلة العودة نحو مدينة الجنينة عاصمة غرب دارفور. وفعلا تم وضع الأمتعة، وبدأنا في الحركة وها نحن نودع قرية أرارا التي وهبتني معرفة وروحا قلما أجدها في مكان آخر غيرها ؛فقدت علمتني أن الأصل في حياة الناس هو السلم، والعيش المشترك، وأن الحرب هي الاستثناء، وأن الأصل هو التواصل بين البشر، وأن التعاون والتساند روح يجب أن توجد كي يستمر الناس في عيشهم، وأن القطيعة مجرد محطة عابرة، وأن البشر يمكنهم أن يعيشوا إذا تمسكوا بالأمل، وابتعدوا عن فكرة الانتقام؛ فالله سبحانه وهب الناس من الموارد والخير ما يكفيهم إلى قيام الساعة، ولكن الأطماع والشيطان والشر أحيانا يتغلبون على الإنسان فيقع

في فخ الكراهية والغضب. ولكن قرية أرارا علمتنا أن للخير والسلام والمحبة رجالا في كل وقت وعصر.

تحركنا وأنا أودع هذه القرية بذكريات في عقلي ستعيش معي لفترة طويلة، شاكرا لها، ولأهلها، وللعاملين في هذا المشروع، وكل من ساعدني في الوصول إلى هذه القرية، فقد ساعدوني أن أرى عن قرب ما قرأت عنه في الكتب، وساعدوني أن أرى ما آمل وما أحب يتجسد أخيرا بين ناظريّ، ووهبوني تجربة لا أدري متى أرى مثلها، أعطوني الأمل بأن تجربة النزاع في وطني يمكن حلها في يوم ما، إن قدر الله أن ييسر الفرق المتنازعة هنا لقدر من العقل والرشد.

ووصلنا السير في طريق العودة على نفس خطنا في طريق الذهاب، ولكن رحلة العودة أخذت منا وقتا أقل من رحلة الذهاب، ودخلنا إلى مدينة «الجنينة» ليلا حيث مقر استراحة «الهلال الأحمر القطري»، وتبقى لي وفق البرنامج المعد لهذه الزيارة أن أذهب لزيارة الشريك الأكاديمي الداعم لمشروع الوئام، مركز بناء السلام التابع لجامعة «زالنجي»، والتي تبعد عن منطقة «الجنينة» قرابة (70 كم)؛ إذ قدم مركز بناء السلام فيها بالتعاون مع الهلال الأحمر كل الورش والدورات التدريبية التي حصل عليها أهالي قرية «أرارا»، مثل دورات تطوير المحاكم الشرعية، والمحاكم القضائية الأهلية مع «الفُرْشة» و«جمال كرامة»، وأيضا تدريب زعماء القبائل على فض النزاعات، وبعد المبيت في الاستراحة، تحركت في الصباح الباكر وبصحبة كل من السائق الهُمام «سليمان» العارف بالمنطقة ودروبها كما يعرف أصابعه وبنانه، والدكتور أبو بكر صالح، وأثناء سيرنا نحو الجامعة أشار لي سليمان أن على يساري يوجد أحد مخيمات اللاجئين، وقال لي: «هذا المُخيم تُشرف عليه قوة حفظ السلام من جمهورية «رواندا»، وهم ضباط سمعتهم جيدة جدا؛ لأنهم يتعاملون مع النازحين واللاجئين تعاملا إنسانيا راقيا جدا بعيدا عن الإهانة.» فقلت له: «لماذا هؤلاء الضباط

كما قلت مميزون؟» فأجاب: «لا أعرف، ولكن ممكن الدكتور أبوبكر يعرف فقد تعامل معهم كثيرا.» فقال الدكتور أبو بكر: «يا أستاذ ياسر لأن «رواندا» كما تعرف وقعت في نفس المشكلة التي وقعنا فيها، وهي «الحرب الأهلية» التي ذاقت بسببها الأمرّين، وراح فيها مئات الآلاف من الهوتو والتوتسي بفعل ما أصابهم بمثل ما أصابنا الآن، لاحقا تاب الله عليهم وخرجوا من تلك الحرب بتجربة عظيمة تكللت في دولة تعيش الآن لحظة تآلف مجتمعي عالية، تجسدت في دولة ذات حكومة ديمقراطية، واقتصاد جيد، وتنمية مجتمعية يضرب بها المثل في محيطها الإقليمي، ثم أصبح الضباط المبتعثون منها في مهمات حفظ السلام، يحاولون أن يجنبوا غيرهم ما وقعوا فيه يوما ما.»

تحركنا نحو الجامعة بعدما تجاوزنا معسكر اللاجئين الذي أشار إليه سائقنا، ومررنا على أحد الجسور الموجودة على أحد الوديان، لكننا وجدنا الجسر محطما ولا يعمل؛ فاضطررنا إلى اجتياز بطن الوادي رغم وعورته نحو مدينة «زالنجي» وبعد فترة قال لي سليمان: «تفضل لقد وصلنا إلى جامعة «زالنجي».» فنظرت إليها، فإذا أمامي مبنى يصُلح ليكون مدرسة ابتدائية أو مدرسة إعدادية بالكاد. وكان معنا طبعا زميلنا «أبو بكر صالح» مشرف المشروع فقلت: «هل أنت متأكد أن هذه الجامعة؟» فقال: «نعم هي الجامعة.» ثم دخلنا، واتجهنا إلى مقر مركز بناء السلام.

فاستقبلنا بالترحاب الشديد الباحث الكبير الأستاذ «كبيري» في مدخل المركز، وعرفته بنفسي، وعلمت أنه هو المسؤول عن التنسيق بين مركز بناء السلام ومشروع الوئام والسلام. فسألته عن رأيه في مشروع الوئام فقال: «إن المشروع ممتاز لأنه من المشاريع القليلة التي تواصلت معنا لبناء السلام، وكانت حريصة جدا على الاستفادة من بحوث المركز، خاصة وأن مقاربة المركز لقضايا فض النزاعات تنطلق من داخل الثقافة الإفريقية الموجودة في «دار فور»، مستخدمين الأعراف والتقاليد القائمة من

أجل تطويعها لتكون رافعة للسلام. فنحن في مركز بناء السلام لدينا بحوث عن دور العمداء ودور «الفُرش» ودور المحاكم القضائية ودور «الجويدية»، ودور المؤسسات الدينية والمساجد في بناء السلام وفض النزاعات.»

ثم سألته عن أبرز الدورات التي قدمها مركز بناء السلام في مشروع الوئام فأجاب: «قمنا بتدريب النساء في المزارع على معالجة ذكريات الحرب المؤلمة، ودربنا الشيوخ هنا على أدوات التفاوض والوساطة وما هي الشروط الواجب توفرها في الوسيط، وكيف يكون الوسيط نزيها.»

ثم سألت الأستاذ كبيري: «هل تجد في مشروع الوئام عيوبا ينبغي معالجتها؟»

قال: «للأمانة هناك جانب كان يحتاج إلى تطوير.» فقلت له: «ما هو؟» فقال: «تدريب النساء بشكل أكثر مما تم؛ لأنهن مؤثرات جدا اجتماعيا وثقافيا في المجتمع، ولعلك قد عرفت من خلال تجربتك الميدانية حجم التأثير الذي يقمن به في مجتمعهن المحلي.» فأومأت برأسي موافقا ومؤكدا على كلامه.

من خلال هذه الزيارة أيضا، استمعت إلى وجهة نظره إلى أهمية التدريب في المشاريع، وذكر لي أن المركز مُنفتح على أي تواصل مع أي أحد يريد دعم السلم، ونزع العنف في الإقليم، وقال نحن عندنا قائمة بحوث ميدانية متاحة للراغبين في فهم الصراع في دارفور، مثل بحث «أثر الشريعة الإسلامية ودورها في بناء السلام»، وفكرة الشريعة والإسلام مطروحة في البحوث لأنه كما تعلم مدى تأثير الدين على عقول وقلوب الناس عندنا، إذ الدين أحد أبرز المكونات الثقافية بالمنطقة،

ثم ذهبنا بعد ذلك إلى زيارة مكتبة مركز بناء السلام والوئام، والتقينا الأستاذ «عباس محمد أحمد» المسؤول عن المكتبة، ودار بيننا حوار حول إمكانية الاستفادة من خبرات المركز والمؤسسات العاملة في فض النزاعات، وبعد انتهاء لقائنا في جامعة «زالنجي»، كان لا بد أن نعود مع سائقنا الكريم إلى مدينة «الجنينة» قبل الغروب تحسبا

لأي اضطرابات أمنية قد تقع في طريق العودة. وبهذا اللقاء أكون قد أكملت اللقاءات الميدانية التي كنت أرغب فيها، وخططت لها منذ بدء الخطوة الأولى في هذه المُهمة، وعدنا سالمين إلى مدينة «الجنينة» استعدادا للملمة الأغراض، والأوراق، والانطلاق في طريق العودة بأمان الله إلى «الخرطوم» ومن «الخرطوم» إلى «الدوحة».

نهاية الرحلـــــة

وبعد ما انتهينا من زيارة جامعة «زالنجي» مركز دراسات السلام والنزاعات في الجامعة عدتُ بالسيارة مع سائقنا «سليمان» إلى مدينة «الجنينة»، ونحن في الطريق وجدنا قوات عسكرية تابعة للأمم المتحدة والاتحاد الإفريقي والحكومة السودانية تتحرك بسرعة، وتحاصر قطيعا ضخما من الإبل، فكان مشهدا غريبا بالنسبة لي؛ فطلبت من السائق أن نتوقف؛ لأني أحتاج أن أفهم ماذا يحصل في منطقة «الجنينة» أو على مشارفها. ثم بعد فترة قاربت نصف الساعة من الحركة في المنطقة، ومطاردة القوات العسكرية والآليات للإبل، تمت السيطرة على القطيع، وتم الإمساك به، ومحاصرته عبر ضرب طوق عسكري حوله، حينها التفت إلى يساري حيث الدكتور أبو بكر، فقلت له: «ماذا يفعلون دكتور؟» فأجاب بأن هذه قوات تابعة «الأمم المتحدة» والاتحاد «الإفريقي» المعنية بحفظ السلام في المنطقة، وهي تطارد هذا القطيع، لأنه نزل لأراضي المزارعين، وكاد أن يفسد المحصول بأكمله، ثم ابتسم قائلا: «من هنا تنشأ الحرب، من هنا تأتي كل المصائب، فكما تعرف، الحرب الأهلية في دارفور جاءت نتيجة الاشتباكات بين الرعاة والمزارعين. فلو سكتت القوات عن هذا الأمر سوف يستعين الراعي بقبيلته من الرعاة، وكذلك سيفعل المُزارع، وحينها يتفجر الصراع من جديد. لذا قامت القوات بمحاصرة القطيع المتسبب في الأزمة، والتحفظ عليه حتى يأتي صاحبه، ويتم التفاوض على تعويض المزارع الذي تضرر محصوله.»

هذا الموقف الذي رأيته للتو، وأنا في طريق مغادرتي للإقليم، جعلني أعتقد بأن بذور الاحتقان في المنطقة مازالت كامنة في المجتمع المحلي، وأن الجهد المطلوب لبسط الأمن والسلام يستدعي الانتباه من الجميع، سواء من الأهالي، أو من الحكومة، والأهم من المؤسسات الإغاثية والتنموية الوسيطة، خاصة وأن وجود قوات حفظ السلام لن يستمر أبد الدهر، وبالتالي ينبغي على أهل الإقليم أن يفعّلوا أدواتهم الموجودة التقليدية في ضبط مثل هذه المسائل، ومعالجة أسباب النزاع؛ لأنهم ما لم يقتنعوا بخيار السلام فكل المساعدات الخارجية التي تُقدم لهم لن تفيد في وقف النزيف الموجود، حتى اللجوء إلى محكمة الجنايات الدولية، وتسليم بعض المتورطين -إن صح الادعاء والاتهام أيضا- هو أداة ربما لإحقاق الحق، ولكن لا يؤدي بالضرورة لإحقاق السلام ودرء النزاع والعنف بالمنطقة. ومع بداية حلول الليل كنا قد وصلنا إلى استراحة الهلال في الجنينة، فوجدت الشيخ حسن في انتظارنا، وقد أعد لنا العشاء بنفسه، فتناولت مع الفريق العشاء الأخير، ثم اتجهت بعد ذلك إلى غرفتي لتجهيز حقيبتي استعدادا للسفر في الصباح الباكر.

كلكم لآدم

استيقظت في الصباح الباكر، وأخذتُ أغراضي وحقيبتي، وانطلقت مع سائق المركز، و رئيس البعثة «الشيخ حسن» إلى مطار الشهيد صبيرة، لأستقل منه الطائرة للخرطوم، وودعت المرافقين جميعا، وشكرتهم على ما قدموا لي من مساعدة، وحسن ضيافة، وخبرات ومعارف لا تُقدر بالذهب، وبعد قرابة ساعتين من الطيران، هبطت الطائرة في مطار «الخرطوم» وكان في استقبالنا سائقنا الجميل «آدم صابون»- وكأن الرحلة مكتوب عليها أن تبدأ مع «آدم صابون» في الخرطوم، وأن يكون في وسطها لقاءء بالمهندس «آدم»، وأن يكون في طريق عودتها الشاب

«آدم» المترجم المشرف على المشروع في منطقة غرب دارفور، وأن تنتهي مرة أخرى مع آدم صابون!

وعدت مع آدم صابون إلى فندق «جراند هوليداي فيلا»، وقضيت الليلة في الفندق، وأنا أجهز أغراضي، وأتواصل مع أسرتي بالدوحة، وأخبرتهم بأنني والحمد لله عدت سالما إلى الآن إلى محطة «الخرطوم»، وسوف أتجه للدوحة قطر في صباح الغد إن شاء الله.

وفي صباح اليوم التالي، مرّ علي العم صابون في الفندق، فنزلت من غرفتي، وأخذت حقيبتي، وتحركنا قبل التوجه إلى مطار الخرطوم إلى مقر بعثة «الهلال الأحمر» في «السودان» للقاء السيد «نصر الدين» والفريق العامل معه؛ فذهبت إليهم وعانقتهم جميعا، وبدوت وكأني أودع أهلي، وشكرتهم شكرا حارا على ما قدموه من جهود وخدمات سهلت لي أمر السفر في هذه الرحلة التي كانت محفوفة بالمخاطر.

دعاني الأستاذان نصر الدين وأبو بكر للقاء أخير مع الفريق، طلبا مني فيه أن أعطي انطباعاتي المبدئية حول المشروع، رحبت بالفكرة فورا، وأخبرتهم أنها ستكون ملاحظات أولية قبل أن يصلهم تقريري المكتوب لاحقا، وبالفعل عقد اللقاء الذي استمر لمدة ساعتين، تناولت فيه انطباعاتي ومشاهداتي لمشروع الوئام، ثم بعد اللقاء وعدت فريق البعثة بأن تقريري النهائي عن مشروع الوئام، سيُرسل أولا إلى المركز الرئيسي لـ«الهلال الأحمر القطري» بالدوحة، ثم يحول من طرف المقر الرئيس إلى بعثات الهلال الأحمر في الخرطوم والجنينة.

انتهى اللقاء بشكري مرة أخرى لهم، ثم تحركت مُسرعا صوب مطار الخرطوم بصحبة الرفيق صابون، ثم ودعت الرجل كأني أودع صديقا أعرفه منذ سنوات طوال، وشددت على يديه، وتمنيت أن أراه مرة أخرى، هنا أو في الدوحة، أو في بلد ثالث شقيق، ودخلت إلى مطار الخرطوم، وأنهيت إجراءات السفر، وصعدت الطائرة في

طريقي إلى الدوحة، ومن فرط التعب والارهاق نمت طوال الرحلة، فلم أنتبه إلا والطائرة على وشك الهبوط، فربطت حزام الأمان، وما هي إلا دقائق معدودة حتى هبطت الطائرة بفضل الله على أرضية مطار حمد الدولي. فأخذت حقائبي مسرعا وذهبت إلى البيت على جناح السرعة مشتاقا إلى أسرتي التي شاركتني المهمة منذ التفكير فيها حتى العودة منها. وبعد يوم من الاستراحة في الدوحة، تواصلت مع إدارة «الهلال الأحمر القطري» في الدوحة، وتم عقد لقاء موسع بإدارة «الإغاثة الدولية والتنمية» بحضور الدكتور خالد دياب، والأستاذ عز الدين جلال، مسؤول قسم إفريقيا بإدارة الإغاثة الدولية. قدمت لهما انطباعاتي الأولية عن المهمة على وعدٍ بالتواصل بالتقرير الرسمي بعد أسبوع، حتى أتمكن من جمع شتات الأفكار والملاحظات، وقراءة الأحداث، ومراجعة الصور المُلتقطة من الميدان، وتسجيل المقترحات التطويرية للمشروع.

وعقب انتهاء اللقاء، نادى علي الأستاذ عزالدين جلال، وهمس في أذني قائلا: «نحتاج إلى ثلاثة أيام كاملة حتى نتأكد من سلامتك بشكل حقيقي!» فقلت له: «أنا أمامك في أتم صحة وأحسن حال.» فقال لي: «ربما تكون مُصابا لا قدر بالله بحمى الملاريا وأنت لا تعلم، لأن فترة ظهور المرض بعد الإصابة به تستغرق ثلاثة أيام من يوم الإصابة.» فقلت له: «وما العمل؟» قال: «إسترح في المنزل لمدة يومين آخرين، وراقب نفسك بدقة من حيث ارتفاع درجات الحرارة، وإذا وجدت أي تعب غير مُعتاد توجه فورا لقسم الطوارئ وأخبرهم بقصة المهمة والأماكن التي كنت فيها.»

استمتعت لنصيحته، فلم أرهق نفسي بعمل، وبعد مرور اليومين بسلام أعلنت للجميع براءتي من داء الملاريا وحمى الضنك، وظلّت قرى دارفور تحلّق في ذهني، ورنّات أصوات متساكنيها تطرق أذنّي، وهي تهمس بأنّ السّلام هو أمل الإنسان .

ملخص الفصل الثالث

* فلسفة بناء السلام في المجتمعات المُتصارعة لابد أن تنطلق من داخل الثقافة المحلية.
* بدون مشاركة المرأة في بناء السلام تظل فرص تفجر النزاع كبيرة.
* تجنح الأطراف المتصارعة لطلب الوساطة عندما تُستنزف ولا تقدر على حسم الصراع بالقوة الصلبة.
* لابد من إخضاع الأنشطة الإغاثية في مناطق الصراع لاستراتيجية بناء السلام.
* تطوير وسائل التقاضي العرفية والتقليدية يُعد من الطرق المهمة في عودة بناء الاستقرار.
* لابد عند تصميم المشاريع الإغاثية والإنسانية مراعاة التركيبة الاجتماعية.
* من المهم إشراك القيادات المحلية في تصميم المشاريع في مناطق النزاع بعد السلام.
* معالجة ذاكرة الماضي المُتعلقة بالحرب موضوع بالغ الأهمية من أجل الاستقرار.
* وضع مؤشرات نجاح لمشاريع إعادة بناء السلام في مناطق النزاع يُساعد بناء السلم الأهلي.
* نشر النتائج الإيجابية لمشاريع بناء السلام يفتح باب الأمل في إمكانية تجاوز الحروب الأهلية.

مرفقات الكتاب

1- تقرير ميداني عن مشروع بناء الوئام الاجتماعي بغرب دارفور

في ضوء الزيارة الميدانية لمشروع الوئام الاجتماعي والخاصة بـ»قرية أرارا –محلية بيضة–ولاية غرب دارفور» التي تمت في الفترة من21/ 11إلى 3/ 12/ 2015 وتم فيها لقاء رئيس بعثة الهلال الأحمر القطري بالخرطوم ومقابلة منسق مشروع الوئام ومساعده، ولقاء مدير عمليات دارفور بالجنينة، والاجتماع مع اللجنة العليا للوئام في قرية أرارا، ومن خلال هذه المهمة الميدانية تم الوقوف على أبرز نقاط قوة المشروع، وكذلك أهم نقاط ضعف المشروع، وتدوين العديد من المقترحات التطويرية لمشروع الوئام الاجتماعي.

أولا: نقاط قوة المشروع

* يُعد المشروع الوئام من المشاريع القليلة القائمة على معالجة تفكك النسيج الاجتماعي المحلي بعد النزاع بدافور.
* يتميز المشروع بمشاركة كافة شرائح المجتمع الموجودة في المنطقة .
* ساهم المشروع بشكل كبير في نجاح برنامج التمكين الاقتصادي في القرية.
* نجح مشروع الوئام في فض العديد من النزاعات التي وقعت في المنطقة.

* رفع المشروع من مستوى الإدارة الأهلية على محاصرة العنف في المجتمع .
* تمكن مشروع الوئام من توفير آلية عمل مشتركة بين مؤسسات الدولة والقيادات الأهلية من (العُمد، الشيوخ، الفرشات، والسطان، إلخ...).
* طور مشروع الوئام وسائل فض النزاعات التقليدية مثل الجُودية، والراكوبة، والكرامات
* ساعد المشروع السلطة المحلية في رفع مستواها في معالجة النزاعات المحلية
* أصبح كادر الهلال القائم على تنفيذ المشروع على درجة عالية من الاحتراف
* جعل مشروع الوئام ثقافة المجتمع تنحاز للسلام، وعدم استخدام العنف
* وفر المشروع آليات فاعلة وقادرة على إدارة ومحاصرة النزاعات
* تمكن المشروع من إشراك المرأة على عملية فض النزاعات وبناء السلام.
* ساهم الوئام الاجتماعي في نشر صورة ايجابية عن الهلال الأحمر القطري.
* هناك قابلية لتطبيق مشروع الوئام في العديد من المناطق والقري في اقليم دارفور.
* جعل مشروع الوئام القيادات الأهلية تركز على تفكيك أسباب النزاع.
* ضاعف المشروع من القيمة الاجتماعية المُضافة لمشاريع الهلال الأحمر
* خفض مشروع الوئام من عدد القضايا المرفعة أمام المحاكم المحلية بما يزيد عن النصف.
* ساهم المشروع في دمج بعض أفراد من الحركات المُسلحة في النسيج الاجتماعي.

ثانيا: نقاط ضعف المشروع[1]

* عدم الاستقرار الوظيفي لكادر الهلال الأحمر القطري القائم على المشروع .
* لا يوجد مقر للجنة الوئام الاجتماعي العليا في المشروع.
* عدم توفر وسائل تنقل سريعة ومتاحة للجان الموجودة في برنامج الوئام .
* لا تتوفر أرشفة مكتوبة أو مصورة أو إلكترونية للجان الوئام الاجتماعي.
* عدم توفر التدريب الكافي للفريق الاداري المتطوع من الأهالي .
* دور الشركاء المحليين والاقليميين في المشروع غير واضح على المستوى الميداني.
* نقص التدريب على آليات فض النزاعات للجان الأهلية القائمة.
* عدم تطوير المحاكم الأهلية مثل محاكم الفرشات ومحاكم السلطان.
* عدم تدريب لجان الوئام على كيفية عمل القضاء الرسمي(المدني) في المنطقة.
* عدم إشراك مدربات في عملية التدريب والاقتصار على الرجال فقط.
* مازالت مشاكل تعدي الإبل على مزارع الوئام مستمرة في القرية.
* لم يتضمن نشاط مشروع الوئام تدريب أفراد المجموعات المُسلحة بشكل مُكثف.
* نجاحات مشروع الوئام الاجتماعي لم تروج بشكل جيد داخل المجتمع السوداني.

---

(1) استجاب فريق الهلال الأحمر للتقرير وقام بمعالجة العديد من نقاط الضعف في المشروع بعد رفع التقرير لهم.

* لا يوجد للمشروع اسم دعائي NIKNAME نابع من الثقافية الدارفوية .
* عدم الاستفادة القصوى من نتائج المشروع في رفع مستوي الوعي في المجتمع المحلي.

ثالثا: مقترحات تطويرية للمشروع

* أولا: دعم استقرار واستمرار الكادر القائم على المشروع ماليا وتدريبيا، ودمج العنصر النسائي فيه.
* ثانيا: عقد شراكة استراتيجية مع مركز دراسات السلام والتنمية بجامعة زالنجي.
* ثالثا: التواصل مع الإذاعات المرئية والمسموعة في دارفور لنشر ثقافة السلام.
* رابعا: إنتاج فيلم وثائقي عن التجربة بشكل محترف .
* خامسا: توسيع دائرة عمل لجان الوئام الاجتماعي لتشمل مناطق جديدة.
* سادسا: تكثيف التدريب على آليات فض النزاعات المُقدمة في المشروع.
* سابعا: نقل التجربة للمؤسسات العاملة في المنطقة ويفضل البدء بالمؤسسات القطرية .
* ثامنا: إنتاج دليل الهلال الأحمر القطري لبناء السلام في ضوء خبرة مشروع الوئام.
* تاسعا: توفير مدربات محترفات لتقديم المواد التدريبية للنساء بشكل واسع ومُكثف.
* عاشرا: التواصل مع المؤسسات الدولية المهتمة بنشر ثقافة صناعة السلام لعرض التجربة .
* حادي عشر: الاستفادة من المشروع في جذب متطوعين جدد للهلال في المجتمع السوداني.

خاتمة الكتاب

تعد مشكلة الصراع في إقليم دارفور من أبرز الصراعات التي شهدتها المنطقة العربية والإفريقية خلال الفترة الماضية؛ إذ يُعد إقليم دارفور شبه دولة بمساحته الكبيرة، وبتعدد أعراقه، ويحتوي على قبائل متنوعة، بلهجات مختلفة، لكن هناك مجموعتان أساسيتان، هما القبائل العربية والإفريقية، وقد أدى الصراع في الإقليم الذي نتج عن أسباب مختلفة، من بينها حالة الجفاف الشديدة التي لحقت بدارفور في فترات موسمية للصراع على موارد الرعي والماء، وهو ما أدى إلى تصاعد المشاكل داخل هذا الإقليم بين أبناء الشعب والوطن الواحد.

وقد دخلت الحكومة السودانية وأطراف الصراع بعدها في مفاوضات مختلفة استمرت لأكثر من عقد من الزمان، في محاولة لوأد النزاع المستمر هناك، والعمل على وجود بيئة سلام تتيح لأهل الإقليم العيش المشترك، وكان آخر هذه المفاوضات هي التي جرت بالدوحة في العام 2011، والتي تكللت باتفاقية سلام كبيرة، كان على أثرها مساهمة الدولة القطرية بمساعدات مختلفة لتكريس حالة السلام بدارفور، رغبة في إعادة من هُجِّروا وأخرجوا من ديارهم للعودة إلى منازلهم من جديد.

كان أبرز المشاريع التنموية التي أشرفت عليها مؤسسات قطرية، مشروع «الوئام والسلام»الذي تم تنفيذه وإدارته من قبل «هيئة الهلال الأحمر القطري»، إذ كان المشروع مختلفا من حيث الاستراتيجية والمنطق، لم يكن يهدف المشروع لوضع بذور مشاريع إغاثية وخيرية ثم الرحيل بعدها وكفي، بل كان المشروع يؤمن بأن زراعة حقل أُحرق، وإعادة ترميم مصنع تم هدمه، وبناء كوبري تم إسقاطه لن يتحقق سوى بوضع جسور السلام بين أهل دارفور، وأن عملية التنمية لن تستمر سوى بوجود وعي كافي لدى أهل الإقليم بنبذ الصراع والعنف والقتل على أرضية الهُويّة.

بدأ المشروع في دارفور، وبدأت ثماره تظهر للوجود، وهنا أدرك المشرفون ومنفذو المشروع أن عليهم مراجعة خطوات المشروع أولا بأول، ومراجعة ما تم على الأرض، وتقييم ما تم تنفيذه، فكانت الشراكة بين الهلال الأحمر و«مركز التنوع»، المتخصص في إدارة النزاعات، فكانت تلك التجربة الإنسانية المُلهمة التي دفعتنا لكتابة هذا الإصدار؛ راجيا أن يكون به النفع والفائدة للمهتمين ببناء السلام والتعايش بين الناس في ربوع العالم العربي.

المراجع

* مركز التنوع لفض النزاعات http: / /www.tanaowa.org /site/

* شُوهد 16/ 10/ 2018 http: / /www.who.int /features /qa /54 /ar/

* https: / /www.youtube.com /watch?v=VxQQwqcxDRU16 /10/ 2018

* محمد زباري مونس. (2015). مشكلة دارفور-دراسة في الجغرافية السياسية. مجلة أبحاث ميسان. 11(22)، 231-256

* عبده مختار موسى. (2009). دارفور من أزمة دولة إلى صراع القوى العظمى. مركز الجزيرة للدراسات

* جمال حمدان، إستراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الشروق

* سامي إبراهيم الخزندار، (2014) إدارة الصراعات وفض المنازعات إطار نظري، مركز الجزيرة للدراسات ص209

* http: / /www.darfurconference.com /sites /default /files /files / DDPD٪20English.pdf شُوهد في 16/ 10/ 2018

* روبرت د. كابلان، (2015) انتقام الجغرافيا، عالم المعرفة، العدد 420، ص 43.

* يوهان غالتونغ، جاك لينش، (2010)التغطية الإعلامية للنزاعات، ترجمة رشيد زياتي ، مؤسسة قرطبة، ص 60.

* سوزان كولن ماركس، (2008) مراقبة الريح حلّ النزاعات خلال انتقال جنوب إفريقيا إلى الديمقراطية، عمان، الأهلية.

* هزيمة الكراهية.. تجربة اليابان في الانحياز للمستقبل .http: / /www.tanaowa org /site /?p=1438 شوهد في 16/ 10/ 2018.

* تيد روبرتغير، (2004) لماذا يتمرد البشر، ترجمة مركز الخليج للأبحاث، ص86.

* شرف عبد العزيز طريح. الجغرافيا المناخية والنباتية مع التطبيق على مناخ إفريقيا ومناخ العالم العربي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة.

* http: / /www.sphereproject.org /sphere /ar /home/ شوهد في 20/ 10/ 2018.

ياسر الغرباوي

– باحث في فض النزاعات وبناء السلام.

– مؤسس مركز التنوع لفض النزاعات.

المؤلفات

– حركات التغيير والحراك الجماهيري.

– الهروب من الحرب الأهلية (مصر نموذجاً).

– دارفور خلقٌ جديد ، تجربة حية في بناء السلام.